فرات ياسين







غراب آدم

فرات ياسين

غراب آدم



* اسم الكتاب: غراب آدم.

* تأليف: فرات ياسين.

* الطبعة الأولى: شباط 2003 م.

* الناشر:

الفرات والنشر والتوزيع

■ ص. ب 113-6435 بيروت ـ لبنان

■ هاتف: 961-1-750054 ـ فاكس 961-1-750053

* التوزيع عبر الانترنت:

www.alfurat.com

الفصل الأول

مرآتـــي تختزن الوجوه، آلة تصوير تومض في جانبها المرئي تلتصـــق شرائطها في الخلف، تظهرها ينابيع ذاكرتي التي تدفقها مضـــخات الخوف منذ أن هاجمت طفولتي أولى لسعات الضرب لينضـــم عويلي إلى جمهرة الباكين الذين لم ينقطع نحيبهم منذ أن دفـــن آدم علـــى أرضهم. استعجلت أيام طفولتي لعلى أتوقف عن الخـــوف والـــبكاء، ولما انصرمت توسلت بذاكرتي لتعيدني إليها، أقتـــنص أفراح البيض الملون في العيد، طعام رمضان، الجري في الحقـــول راكبين صغار الحمير، نغفو داخل قلوب أمهاتنا بملابسنا الجديدة ولم نغادر أحشاءهن، كلما كبرنا أوجعهن الطلق. في النهاية يهلكـــن بولادة عسيرة لأحد الأبناء، ربما توأمان يدوم حملهن بهما عشرات الأعوام، لكن الخوف أبى أن يبارحنا، لازمنا عبر التاريخ، أهـــدى هـــزائمه، خياناته، دسائسه، روحه الضالة، هذا الخليط من

القذارات تسمدت تربتنا به، أنبتت غرساً أزلياً كعظام الموتى تونع أوراقــه بنســغ الدم المتدفق من سواقي خزانات الري التي أنشأها أسلافنا ما قبل التاريخ، منجلهم يجتث الزرع قبل أوان نضجه، لم يصدأ بفعل لزوجة روح الأغصان الملتصقة منذ أن كان فرداً ولم تكـف النــباتات مــن العودة إلى الحياة، تهدي رؤوسها للمناجل المتربصة دوماً، ترهقها طوراً، تتكاثف ملتصقة على الأسنان، يعود المــنجل مقبضاً يأكله الزرع، وطوراً تكون كالمبرد يصقل أسنان المنجل، تمكنه من ذاتها.

بعد أن عدت للمكان الذي منه خرجت وجدت البيوت والأرض والســماء تتقاسم الحزن، أطلالاً فقدت لسان الراوي، تحمل ذاكرة الأبكــم وعــيونه، تعزف بأناملها مراثي السمفونيات التي لم تنطق بعد، يسمعها الأبناء الذين دفنوا جماعات صرعى الرياح الرمادية التــي تهب من أنابيب الفولاذ، لم أجد قبورهم رغم اتساعها، وحده قــبر صبرية التي رفض أهلها أن تدفن عند أحد الأولياء لا يزال كما كان يذكرنا بجبننا، بشجاعتنا الزائفة المتفردة بقهر النساء، يوم أطل سلطان من السور الملاصق لبيتها، كانت تنشر شعرها الطويل الكثــيف يغطي وجهها، تمشطه من الخلف، تمعّن سلطان في هذا الشعر المحبوس طويلاً، تلمع رقبتها كبدر في ليله مظلمة، فاجأهما قريــبها. هرب سلطان، لملمت شعرها على وقع قدميه، هربت هي الأخرى، وراءها يعدو قريبها الذي أخره جلب البندقية عن الإمساك بها، احتمت عند السادة ، أقسمت لهم ولأهلها أنها لم تر سلطان ولم يلمســها طوال حياته، صدقوها، ليلتها أخذ سلطان يحوم حول بيت السادة يبث الإشارات، يتنحنح، التقطها ذووها القابعون تحت مداس الإقطاعــي يبحثون عن شجاعة لذاتهم، أقسموا بدورهم للسادة ألا يمســوها، طلــبوا عودتهــا إلى بيتها، في الطريق ذبحوها بخنجر

وتزوجوا أخت سلطان بدلاً منها. امتدح الإقطاعي نخوة الشرف، أرسل لهم خروفاً صغيراً افتدته صبريه بحياتها، بسبب صبرية أردت دائما أن أقطع جذوري كما يستأصل جزء فاسد من الجسد، تجادلت مع والدي الذي خرجت من بيته صبرية إلى المسلخ يردد كما الإقطاعي:

- إنه الشيطان الذي زين لهم.

كم لحية رجل صالح حلقها هذا الشيطان الكامن في نفوسنا، ووضعها شاهداً على قبر صبرية المنتصب وحده على تخوم القرية، جعلت منها جان دارك التي ما أن سمع أصحابي في القرية أنها كانت مومساً حتى لعنوني.

الريف محاط بالأسوار، يفتح بابه لمرور الأبقار والمواشي، مغلق على الفلاح، فقد أحكم الإقطاعيون باتفاقاتهم السرية الطوق حول هذا الثور ليظل عمره يسحب المحراث، يضرب صخور الأرض المتصلدة، يحصل على ربع المحصول الذي استلفه مسبقاً ليعود رهينة الديون مرة أخرى إلى أن تطمره الأرض، فقد ابتدع الإقطاعيون ووعاظهم من صغار رجال الدين مقولة:

لو أصبحت الأرض عدواً لك سبعين عاماً فلا تكن عدواً لها.

مع البلهارزيا وسوء التغذية لن يكون بمقدوره أن يزرعها سبعين مرة، أراد بعضهم الفرار أو الارتحال إلى أراض أخرى، أرجعوهم قائلين :

- عودوا لرئيسكم أنتم فلاحوه.

عادوا يقبلون يده، يعتذرون عن جنونهم:

- إبليس ركبنا... قادنا بعيدا عنك.

لأستضافهم ليلتها يملأه الغيظ، دعا لعشاء السخرية كافة الفلاحين الذين تناوبوا على شتمهم، توقف الطعام يغلق الرئة بعد

أن تتنفســوا الهوان، بين الحين والآخر يقفز أحد أزلام الإقطاعي، يهم بضربهم، يوقفه :

- خطــأ شيطاني... حصل مرة واحدة.. إن تكرر سأقتلهم بهذه البندقية.

بعــد عدة أيام يفتعل شيئاً ما، يضربهم بخيزرانته حتى تتكسر لــيعودوا جميعاً داخل الأسوار، يطلق وكيله يحصي حبات القمح، يتسـلمها الفلاح، يبذر، يتسابق مع الطير، يعطيه حصته من الماء، يتصــارع مــع الطحالب والمرّان، يجتثها، يبعدها عن مجراه، يسد ثقــوب الطيــن، يوقــف رشح الماء، يخترق الزرع التربة، يعلو، يخضر، تتكسر هراواته على جوع الأبقار والأغنام، يحصد، يطارد ملتقطــي الســنابل المختفيــن بين الأغصان المقطوعة التي تدمي أرجلهم كشفرات الحلاقة... يدرس، يدوس مع الحمير، تتكسر باقات الســنابل تحت الأقدام، تنفذ رائحة الطعام الطازج لأنوفها، تجوع، تحرن، يضربها، يشتم، يلوم سيدنا نوح الذي أركبها سفينته. يتغلب ألــم الضــرب، تتحرك. يعود الوكيل لإحصاء حبات القمح، يجمع أكــوام الــتراب، يذروها، يلتقط الحبات، يغبر جسده، يومئ الوكيل لأكوام الحبوب :

- ثلاثة أرباع للإقطاعي... ربع لك... هات من ربعك الملحقات، حصــة قهوجــي مضيف الإقطاعي، خمسة صاعات لرجل الدين، أجــور نقل حصة الإقطاعي ـــ ثلاثة الأرباع ـــ على الجمال من مكان المحصول إلى بيته، أخيراً حصتي أنا الوكيل.

الملحقــات تثير أبلغ الغيظ في نفسه، تعصره، توقظ الذل النائم، يتلاســن مــع الوكــيل الذي يهدد برفع الأمر للإقطاعي، ينصاع صامتاً، يلتفت إلى رفيقه:

- أدعو الله أن يهلكني أو يهلك الوكيل.

- ما فائدتك إن هلكت أنت.
- فقط ألا أراه.

يطوي الفلاح حياته راكضاً، يستعجل نضج الغلال، نمو أولاده، وجـبات طعامــه، حتى منيته، يمر على الدنيا سريعاً، لا يلحق أن يخطــف شيئاً، يرى حسرته على وجوه أطفاله، أثقل الأحمال التي حلت على ظهره، ترافقه حتى القبر، يطمرها معه.

أم كــريمٍ أرملــة الزوج الذي أرسله الإقطاعي لمطاردة لص سرق فرساً من قريتنا، لصوص الليل يبصرون دروبه، تملص منه ثــم قتله. أقسمت ألا تدع ابنها كريم يعمل فلاحاً، أصبح الإقطاعي نائــباً فــي الــبرلمان، خلع على نفسه لقب بيك يضيف له سلطة الحكومة.

استضـــاف عــدداً من كبار موظفيها، يتكلم معهم بلغة لا يفهم الفلاحــون مفــرداتها، لغة العاصمة التي تضيف وجاهة لمتكلميها الذين ينطقونها كما يفعل معلقو المباريات الرياضية، حذرهم:

- إياكم أن تذكروا أمام الفلاحين المدارس أو العمل في صفوف الجيش.

أصـــبحت قريتنا كمحجر صحي لا يقربها أحد. رفع الإقطاعي كشوفات الخدمة الالزامية لقريتنا من دائرة التجنيد رغم أن الجيش أخذ يلتهم أبناءه، يفتش عن مواليد جدد.

يمر القطار ككائن أسطوري، استبدلوا بماكنته البخارية بأخرى ديــزل، ازدادت سرعته، سحق المزيد من رؤوس الماشية، تسابقت معه سيارات جديدة أخذ راكبوها يضحكون من عجز القطار الذي يجري منهكاً، تبرز منه رؤوس الجنود كضفادع في مستنقع.

حثت أم كريم ولدها على التسلل والالتحاق في الجيش :

– سأزعم أنك تزور خالك في القرية المجاورة، حاذر أن يراك أحد في دائرة التجنيد، يومان وستكون في المعسكر، سيسجنونك لتخلفك عن الخدمة الإلزامية بعدها يرسلونك إلى محافظات نائية، إن شاهدك الإقطاعي سيعيدك من المعسكر مجللاً بالعار.

لم يعلم كريم أنه سيعيش كالكلب الأجرب يرفسه العريف في ساحات التدريب، يحلقون له شعره، يصفعه رفاقه في مهجع المعسكر، يحجزونه أياماً في السجن الانفرادي، يتلقى سباب الضباط الذي يتناول أمه الأغلى من روحه، يجيب :

– نعم سيدي.

ظلت تلصق كلماتها بين ضلوعه المضروبة ورأسه المصفوع وجبهته التي تراكم عليها بصاق الضباط:

– إنها نافذتك الوحيدة على العالم يا ولدي، لا تأت للقرية، ابعث لي رسالة على دكان الحاج عبد الواحد. سأذهب إلى المدينة كل شهر، أخبرني بموعد إجازتك، نقضيها في مدينة أخرى، لا بد أن تتحمل، اصبر، الله يعينك يا ولدي، أدعوه لك يقظانة ونائمة، أنت لي العائلة كلها مثلما أنا لك، أنت لست واحداً لي، أنت خمسة، بذهابك ستقلع قلبي وعيني وكليتي وكبدي ورئتي، لكني أقسمت عند قبر أبيك ألا أتركك في الهوان طوال عمرك. تجلد يا ولدي، سترى الجذع اليابس ينتصب حتى و لو اعتلاه الرجال. إن رجعت لي سأقتل روحي قبل أن أراك تقتل بيد لص مجهول قرباناً لخيول الإقطاعي، لا تقلق، سأتدبر أمري، تذكر أنني أنشأتك كبذور النخيل لا تثمر سريعاً، أغلق أذنيك عن المذياع، لا تسمع أغاني الريف التي تثير الشجن، الغ عبد الواحد جمعة وجواد وادي وغناءهما الريفي الذي يسبب الهروب من الجيش، ينشدان: يحق لي أنسف إذراعي وداعي، إجعلني أمك وريد إرباي من... لقد وهبتك

تربيتي، لا أريد منك شيئاً سأعيش على الغزل والحياكة فقط، ابتعد عن هذا الذل، ليس لي بذمتك شئ.

كاللصوص رحل كريم ليلاً.

أرســل الإقطاعي أولاده للمدارس في المدينة، أدرك أن الزمن ســيتغير، ستؤول اللعبة إلى قطاع الطرق من المثقفين، رغم أنه لم يــتلق أي تعلــيم يمهر بختمه على محاضر البرلمان إلا أنه يشتم أماكــن مصالحه، يفردها ما بين الغزل المتشابك مثلما أدرك بحسه فائدة التعليم لأولاده كما أدرك خطورته، مدفعاً سيهدم قلاع القرية التي أنشأها إن هو أسلم فتيلها لأولاد الفلاحين. حشد أذكى أعوانه مع الملالي الذين يدعوهم لزيارته، يولم لهم، يجمع فلاحيه، بعد أن يشبعوا يجلس رجل دين واعظاً:

– المــدارس مفســدة العصــر الحديث، تبعدنا عن شرع الله، أنشأتها الحكومة ضد الدين، هل تجدون رجلاً معمماً بين الوزراء، أتعلمــون مــاذا يعمل المدرسون؟ يمارسون اللواط مع الطلبة، هل تقــبلون تقديــم شرف أبنائكم الذي هو شرف عوائلكم المشهود لها بالعفة والكرامة لهؤلاء المدرسين اللوطيين؟

يرد عليه الأعوان:

– لا وألف لا.

يؤكد الحاج عبد الواحد صاحب الدكان أن أولاد هؤلاء الملالي يذهبون إلى المدارس الحكومية وأنهم يتوسلون للأساتذة كي يرفعوا من درجات بعض أولادهم الأغبياء. يكمل الملا:

– شــيخنا صــاحب الــدار، أطال الله عمره وعمّر داره ظلاً للصالحين، استأجر حراساً مسلحين يجلسون في الصف مع أولاده يــردعون المدرســين الفاسقين، أنتم الفقراء من منكم يستطيع دفع

أجـــور الحراس؟ إخواني أقسم لكم أن أشرف مهنة هي الزراعة، حـــتى الزكاة فقط من الغلال، لا تؤخذ من الرواتب المشكوك في مصدرها، أي إن أصحاب الجنة سيكونون منكم فلا تبيعوا آخرتكم بدنيا فانية، حلمت الليلة الماضية بالمرحوم والد نائبكم صاحب هذا الديـــوان العامر، وجهه قمر مشع ينير قريتكم بيده حزمة مفاتيح ــ أشـــار بيده ــ رأيت دوراً عالية لا يوجد مثلها حتى في العاصمة، ذات حدائق وسواق رائحتها تحيي الروح، قلت له: لمن هذه الدور. قال: لأهل قريتي الصالحين. قلت: الله أكبر لقد ضمنوا الجنة وهم أحياء. فيا إخوان لا تدعوا إبليس يقودكم إلى الزلل ويخرجكم كما أخرج أباكم آدم من الجنة.

استصدر النائب الإقطاعي أمراً من الحكومة بعدم ذهاب مفتشي وزارة التربية أو موظفي دائرة التجنيد إلى القرية. بقيت كما شيدها أبـــوه أســـواراً، توقـــف سير الزمن، امتلك السوط الذي ما زالت جـــراحاته طـــرية مـــنذ عهد أبيه، يرسل لهم الوعاظ ينسونهم ألمٍ الســـياط، يفـــتحون لهـــم عذاب جهنم القادم، يرسلون لهم حراساً غلاظـــاً يحملـــون رمـــاح الحديـــد المشتعلة رؤوسها، تنغرس في صدورهم، تذيب عظامهم، هذا في القبر قبل أن يحملوهم إلى سقر موضوع حديثهم القادم.

يهرع المساكين إلى الإقطاعي الذي لا يبدو عليه الخوف مثلهم، يطمئنهم:

– إن بقيـــتم هكـــذا مؤمنين، لا تغيروا ما بأنفسكم، لا تسمعوا الإذاعات، فلن يصيبكم ما أصاب القوم الآخرين.

يـــزول عـــنهم التوتر، يبقى الخوف مدفوناً، مرآة تصقل بيدي الإقطاعي والواعظ يؤطرها الأعوان.

فـــي الســـتة أشهر الأولى الممتدة من نوفمبر إلى أواخر أبريل يمـــلأ الأمـــل والفـــرح قلوب الفلاحين، يستبشرون بأوائل الطيور المهاجـــرة تحمـــل لهم الغمام، لكن هذا البشير العزيز يرحبون به بالبـــنادق والفخاخ، يسقط بعضه، يستمر في طيرانه، بشيراً للقرى البعيدة، لا يرى طريق العودة، يسبر في خط واحد إلى حتفه، يفضل الموت طائراً في السماء، على أن يبقى أسير أسوار البرد السيبيري يحيا حياة المتخاذلين، يترك بيضه في أماكن حتفه، بعضه نأكله، لم نعهـــد طعمـــه في البيض المدجن، تركه مقاتل سقط راكباً، تحميه زوايـــا الأرض، يفقس سراً، لم نعلم بعد طرق خداعه، ينمو كالبؤر الثورية في أرحام الأنظمة العفنة، يعدو ثم يطير سالكا طريق آبائه. مـــن الذي رسمه لهم ؟ هل وجدوه على قشور البيض؟ ما أن يعود نوفمـــبر حتى يعود سالكاً طريق الموت، متتبعاً خطى أسلافه التي خطـــت الســـماء طـــريقها حاملاً الغمام على صدره ليسقط ببنادق مســـتقبليه الفرحين، تماماً كما يستولي المنتفعون على الثورات، لم يـــتوقف طـــيرانه بسبب الخسائر بل ظل يعدو إلى الموت حاملاً جناحـــي الحرية دون أن ينزل موطنه الذي يقسو كما تفعل أسماك السلمون حين تغادر إلى الأنهار لتضع بيضها وتنهي الرحلة.

يمـــتد الحـــبل الســـري واحداً لكائنات الدنيا، تعطي المخلوقات صـــدرها خارجة إصرارها، خوفها، جبنها، روحها للإنسان الذي يأخذها مجتمعة ناكراً كولد ضال يؤذي ما حوله.

تسقط أوائل الأمطار، تحيي الأرض بعد موتها شهور الصيف، الفطـــر بأنواعه ينهض من قبوره فتياً، على جانبي الأنهار و على حافـــات الزروع ينبت الخضار، يتسابق عليه الناس و مواشيهم، الأمـــل بوفـــرة المحصـــول يمزق سبات الشهور المذل، يضاعف

قواهــم، يطــوون الأرض كبساط موشى، يحيكونها على هواهم، يرســمونها بالجــاروف ألوانــاً مائية، يمازحهم الإقطاعي، ينسون مهانته، تسمن ماشيتهم، تنقل نظرات العيون صمت الحب الدفين لا تجــرؤ أن تــتغامز، يسيرون بين الزروع في درب واحد بخطى متــباعدة، يعمــل الفتيان من الطين مخلوقين متقابلين، تمر إحداهن تضع عليهما زهرة برية.

فــي ستة الأشهر الثانية التي تبدأ باقتسام الحاصلات و تنتهي فــي نوفمــبر، ينشر الغم ظلامه على أرواح الفلاحين، يزداد شتم الإقطاعي، لا يعملون شيئاً رغم وجود الأرض و الماء، فالفرات ما زال يفيض حزناً على بكاء الفقراء، لكن الفلاح إن ازدادت موارده يــتمرد. يعمــل ستة أشهر تأكلها ستة أشهر أخرى، ينفذ ما عنده، ينتظر ضيوف الإقطاعي الحاسري الرؤوس الآتين من المدينة مع العمائم التي تهل في موسم الحصاد، يأكل بقاياهم، يحمل بعضه إلى عــياله، يمــرض، يــنذر لأحد الأولياء، يتشافى، يدخر نذره لحين وصــول المـــلا، لا ينفقه إن كان ولده عريان، يتساوى في خوفه الدائم مع أهل العمائم ممن استباحوا شرع الله، حللوا المظالم لكنهم لــم يجرؤا على الافتراء على الأولياء الذين بقيت صفحتهم بيضاء رغــم أنها قد كتبت بدمائهم الطاهرة، يقرأها الأميون من الفقراء بقلوبهــم، يوصـــون من تتوفر له أجرة القطار لزيارة قبورهم بأن يحملوا لهم خرقة خضراء ممسوحة بشبابيك المرقد، يتبركون بها، تسترهم من خوف الغيب الآتي.

تتـــنزل هـــبات السماء و الأرض على الفلاحين بعد منتصف نوفمبر كمائدة واسعة البساط، يجمعون أوانيها، يأكلون منها القليل، يدخـــرونها للضـــيوف أيام القحط الصيفي، يبيعون بعضها طيوراً مهاجـــرة، فطراً، خضاراً، بيضاً على مسافري محطة سكك الحديد القريـــبة منهم، أثمانها للشاي و السكر، للملابس المستعملة. صفير القطـــارات يصـــم الآذان، يخدع المسافرون المحتالون بائعيهم من الفلاحين بحجة عدم سماع التسعيرة، يساومونهم لحين إقلاع القطار ثم يهربون بالبضاعة، يركض الباعة السذج، يستعطفونهم من نافذة العربة، يسرع القطار يتوقفون عن الجري لاهثين :

- إن شاء الله زقوم في بطونكم.

يعـــودون منكســـرين يشيعهم ضحك النظارة، يعودون ليلاً إلى أهالـــيهم، فالقطـــارات لا تمر على المحطة نهاراً. يمرون بجانب العربة الصدئة المركونة في أقصى حدود المحطة، يأخذهم الخوف كمـــن يمـــر علـــى مقبرة. يشاع أن قضبان الحديد تتكسر تحتها، لاســـتبدالها يطلـــبون هـــندياً من طائفة السيخ قتلت قبله عدداً من الموحدين، أرواح الموتى ملتصقة بجدرانها تنوح بعد منتصف الليل مـــنذ أن احـــتمى بها الضابط الإنكليزي في الرميثة يقاوم الأهالي الثائريـــن، ينثر لهم ليرات الذهب العثماني، يصطادهم بالجملة. قتل خلقـــاً كثـــيراً، تداعوا بينهم و اندفعوا نحوه يعدون واقفين، حصد رشاشـــه الأوتوماتيكـــي الكثـــير منهم قبل أن يدركوه. مزقوه بين أيديهـــم، جمعـــوا الموتى، حشروهم داخل العربة، جاء رجل دين صـــلّى علـــيهم، دفنوهم عند أحد الأولياء من دون اغتسال إذ أن الشـــهيد لا يحـــتاج الـــى أن يطهره الماء، يغتسل بدمائه التي لا يحرمها الله.

يتوقف القطار خمساً و أربعين دقيقة في المحطة، يتزايد الإيقاع السريع لحوارات الناس، لحمولتهم، للركوب، للنزول، لترحيل السجناء إلى السجن المركزي في العاصمة، يأتون بهم مقيدين، صفر الوجوه صامتين، ينظر لهم المارة بعيون الريبة، أراد الشرطي كعادته أن يأخذ مجاناً بيض الفلاح التوبي أسرع عدائي القرية الحاصل على جوائز مسابقات الأعراس في الجري، هرب الفلاح ببيضه، جرد الشرطي مسدسه، أنذره بالتوقف. قفز التوبي إلى الجانب الآخر مختفياً بين العربات، فر ثلاثة سجناء، تبعهم الشرطي مع جمهرة الناس، طافوا بهم عربات و بيوت المحطة، قبضوا على أحدهم، الشرطي يصرخ :

– لاحقوا صاحب البنطلون الأبيض، إنه سجين سياسي، دعوا صاحب البيجامة السوداء فقد قتل شخصاً، ندركه فيما بعد.

توقفت المطاردة حين قفز السجينان داخل العربة المهجورة في أقصى المحطة، رجع لهما صاحب البيجامة السوداء يصرخ مرعوباً. عاد الجميع يعدون خائفين يتقدمهم رجل الشرطة.

لم يعد السجين السياسي، قيل إن الأرواح حاصرته داخل العربة . وجد صاحب الكانتين في المحطة بعدها أن مأكولاته تختفي كأنما قضمتها الفئران.

نصح الحاج عبد الواحد صاحب الدكان في مدينة الناصرية والدي بأن يرسلني إلى المدرسة، وافقه أبي قائلاً :

– أنا مغمض العينين بدون القراءة، أريد لولدي أن تتفتح عيناه.

لا تزال هذه الكلمات تلازمني، توفى والدي رحمه الله بعد أن شاهد تفتح عيني وانشراح صدري، لكن الأقدار أخذتني بعيداً، عندما اعتقله رجال الأمن لاحقاً بسببي سألوه :

– أين ولدك عبد القادر ؟

أجابهم :

ــ لا أعــرف أين هو، أرسلته للمدارس التي أنشأتموها و ها هي تأخذه مني، ليتني تركته فلاحاً.

انتظمــت في مدرسة محطة القطار التي هي أشبه بالكتاتيب، مدرسها واحد لكل الفصول الدراسية ولكل المواد، يأخذنا أسبوعياً مشــياً على الأقدام لأطلال السومريين الموغلة في القدم حيث يقف الــتاريخ يروي. تعلو الزقورة معابد الوثنيين أعلى من مقام سيدنا إبراهــيم المتواضــع الــذي هام في الدنيا يبحث عن الله، يدفنون ملوكهــم مزينيــن بالذهب. بعثات الآثار الإنكليزية المتسترة تحت غطائهــا فرق المخابرات استولت على هذا الذهب، يعرون عمال الحفريات نهاية كل يوم، يفتشون حتى بين عجيزاتهم، يبحثون عن قطــع الذهب الصغيرة. في أعلى القمة منذ الأزل يرقد الحكام مع أموالهم، قبورهم أوسع من بيوت رعاياهم. يترك التاريخ لنا حكمة فــي شواهد قبورهم، على أطلال بيوتهم وبقايا عظامهم، لكن لماذا التاريخٍ دائماً أحمق في عصره؟ لم يمنعٍ دماً أن يسفك أو يأمن قلباً فــزعاً، ثــم يأتينا بعد أزمان محاضراً يحمل وسائل إيضاح واعظ مــارق. تطل قصور الحكام على ساحات الإعدام أضخم مساحات البناء السومرية، وقتها لم يكن القتل سراً رغم وجود الدسائس لكن إرهاب الناس برأس الضحية ما زال دستوراً يتوارثه الحكام وثنيين ومؤمنيــن. تجــرى حفــلات الإعدام كعروض مسرحية، تتوسل نظرات الموت، ترنو إلى الأعلى.

حجزوا سيدنا إبراهيم تحت الوادي، لم يستطع تهشيم صنم حي واحــد. نــزل الإصبع سيفاً يفصل رأساً، في أسفل الزقورة رأينا عظــام الموتــى، أضلعهم، سيقانهم، أرجلهم، أيديهم، لكننا لم نجد رؤوسهم. سألنا الأستاذ عن سبب ذلك، تفادى الإجابة قائلا :

- أنظروا إلى عظمة حضارة أسلافنا.

أعدنـــا عليه السؤال، صفعنا. نزلنا إلى بيوت الرعية، أعشاش فــراخ اندثرت، ترابها بنعومة الريش، تجنبها منقبو بعثات الآثار البريطانية إذ لم يجدوا فيها حتى مقبض جردل.

فـــي الوسط لا زال مقام سيدنا إبراهيم عالي الجدران يهزأ من كـــل الأزمان، بني بمزيج البرد والنار على يد بناء ماهر يخلط دم ابنه مع الطين إن تعذر وجود الماء، يصنع طابوقاً لا يفنى، يداوي ســـقمه بالتـــيه في الأرض، أينما حل يولد أنبياء. تقاتل أولاده من بعـــده علـــى تركة الملوك ليصبحوا رعايا، أراد أن يورثهم الألق الذي تشع فيه روحه إذ اتخذه الله صديقاً، ناداهم بصوت مبحوح، لـــم تهو أفئدتهم له. كسر الأبناء جناح أبيهم، اقترنوا بامرأة لوط، توســـل إلى ربه ألا يتعجل، لكن الله يرى بقصاصه تحذيراً لسيدنا إبراهيم.

فـــى الـــوادي الفســـيح ينتشر المحار، رفات البحر المدفون مع الســـومريين، زقورة أور حصن يستعصي فتحه، خزائنهم المدفونة قروناً تنتظر البعثات البريطانية، هل انتحروا بعد أن جحدوا سيدنا إبراهيم وأصبحوا أرواحاً ضالة تهيم في عتمة المقابر ؟

قادنـــا الأســـتاذ إلـــى سرداب عميق، جفلت الخفافيش النائمة، انقضـــت تلتصـــق بنا ،أضاع الأولاد باب الدخول، ركلوا بعضهم بعضاً، داسوا صدر الأستاذ الذي كان أكثرنا خوفاً إذ ظنها أرواح الموتـــى تهـــاجم المتطفلين. كسرت نظارة الأستاذ ،عاد بنا يتلمس طريقه.

رجع نائب قريتنا يتحدث بهمس لأعوانه ثم يعلو صوته غاضباً:

- مجانيـــن، طلـــبة مـــدارس يتحدون الباشا، حاصرهم على الجســـر، سد منافذه عليهم كالكلاب التي تحاصر في مسجد، أذاقهم

أنواع الضرب، صرع الرؤوس الحامية بالرصاص، أساتذتهم اللوطيون يدرسونهم التمرد إلى جانب الفحشاء. ألم أقل لكم إن المدارس فساد؟ حسناً فعل الباشا برمي أساتذتهم في السجون، سأبرق له نيابة عنكم بالتأييد مطالباً بشنق الأساتذة الضالين وغلق المدارس، في الجلسة الأخيرة هويت على الجومرد ضرباً بالعقال لا أعلم كيف تسلل هذا السافل إلى البرلمان. ربما كان الباشا مشغولاً بزيارة لندن يوم التصويت، يظن هؤلاء الرعاع أنهم قادرون على قلب حكومة. رئيس وزراء يصافح ملكة بريطانيا والعظماء من رجال السلك الدبلوماسي، أيعقل أن تتغلب الطباشير والسبورة على بنادق ودروع الجيش ؟! سأطالب في البرلمان بإرسال جميع المدرسين إلى مستشفى الأمراض العقلية.

لم يعلم وقتها هذا الرجل الأمي أن اقتراحه قد بدأ تنفيذه مخططو الشرطة السرية بإرسال بعض أنشط السجناء السياسيين إلى مستشفى المجانين، تصحبهم تقارير طبية بضرورة حجزهم المشدد وتقييدهم بالسلاسل لخطورتهم. حملت الرياح غبار الطباشير، يدخل الأنوف، يصيب بالحساسية التي توقف دوران الآلات، لا تشفى بأمصال الباشا، تطرحه وبطانته على طاولة العمليات. أقفلوا مدرستنا أسبوعين رغم هدوئها، سألنا عن السبب أجاب الأستاذ :

– بمناسبة عيد التتويج.

لعن زملاءه المدرسين في العاصمة، صفع أقرب التلاميذ إليه، استقل القطار الصاعد مهموماً، فمنذ أن هاجمتنا الخفافيش توقع حدثاً مأساوياً. قال الفراش:

– الخفافيش فأل خير... جاء عيد التتويج.

رد الأستاذ ببذيء السباب ثم استدرك:

- كلنا فداء الملك.

أسر لنا الفراش:

- الأستاذ معذور، لم يصرفوا رواتب هذا الشهر.

طيور السمان تتكاثر أواخر الخريف، عدت من المدرسة أنصب الفخاخ لها، تلامسنا نسمات الخريف الصباحية الباردة تطفئ وهج الصيف الراحل الذي أودع حرارته جلودنا. تنخدع طيور السمان بفخاخنا المموهة داخل الحقول، نصطاد بوفرة، تراوغنا قرب البيوت، تطير بلونها الأخضر المرصع، تهبط حيث ينتظرها الموت في الخريف.

بعيداً عن الأعين تلتقيني أم كريم، فأنا ثاني اثنين يعرفان سرها، تحفظه في طرف خمارها تعويذة، تتسلمه من الحاج عبد الواحد صاحب الدكان الذي لا يحسن القراءة، تطلب إعادة قراءته مرات، تدعو لكاتب الحروف صاحب الذي يملي عليه كريم رسائله بأن يفرح الله قلبه دائماً.

بعد شهور تغير الخط، لم يعد كاتب الحروف صاحب يرسل تحياته، حزنت أم كريم، كتبت له رسالة تسأل عن صاحب، لم أنس أن أهدي له تحيات كاتب الحروف عبد القادر.

رجع الجواب برسالتين إحداهما من صاحب يشكو استغناء كريمٍ عن خدماته بعد أن علمه القراءة. زغردت أم كريم، أهدتني عدداً من البيض، تسهب رسائل كريم لكن عطش أمه شديد، أرض فارقها الماء، بيد أن كريم فلاح أريب لا يعرف غير الإخلاص يداً ممدودة، تحتضن أمه عن بعد، تسقيها عروقه النافرة أيام العمل المضني، كتب لها :

- توقفت على مشارف القرية تلك الليلة التي ودعتك بها أضع رجلاً داخل السور وأخرى خارجه، يجذب ذراعي الألم، أراك

تطوقينني تدخلينني في روحك ثم تطردينني خارجها خوفاً، قوة أم لا تفلــت قبضتها يعقبها ضعف يتوسل، تسيل دموع فراقي، الليل يزيد الحزن. أراك عائدة ، قدماك تنهضان بصعوبة، تتوقفان حيناً، تلتفتين إلي، لم يحل الظلام بين التقاء عيوننا، أراك كبيرة و ترينني صغيراً، تبكين لصغري وأبكي لفقدان الحماية، أومأت إلي أن أتابع.

عــادت تحملني نفس السيقان التي ولدت بها، لكن طاعتك هي التي سارعت بالنمو، سرت أحملك لا أشعر ثقلا فعمق الحب الذي تحملينه لي أثقل من أوزان الدنيا. أوائل أيام الخدمة كدت أن ارجع لــك مــراراً، وقفــت كأول ليلة أودعك فيها يجذب ذراعي هوان الإقطاعــي المنــتظر وإذلال رفاقي في المهجع، توسلت بدموعي وحــيداً مــن دونك لكن الدنيا لم تخلق للفاشلين في دراستهم، برز صــاحب، أرســلته دعواتك رسولاً يحميني، ظننت أنهم من الذين أفسدتهم المدارس كما قال الملا، بعد شهور أثمرت نصائح صاحب وأحذيــة الضــباط بانتظامهم، عادوا يدرسون ليلاً. صاحب قبلهم أكمــل الثانوية، يتيماً يحمل أمه وثلاث أخوات، تطوع في قلم لواء الجــيش. لقد توسعت النافذة التي دخلت منها، أصبحت سماء، فتح صــاحب سقف رأسي، تفتحت عيناي مثل عبد القادر دون أن أجد أبــاً يرسلني إلى المدارس لا يحجبها إلا دموع فراقي عنك، لم أعد أخاف الإقطاعي لكني أؤجل المواجهة الآن لعلمي أنك لن تصدقي الــذي يجــري في عروقي، أنا نفسي لا أتذكر اللحظة التي انقلبت بهــا، تأتــي كالعواصف، كالأمطار، لم يفهم أسرارها أحد، أخذتني معها ،أرعد أحياناً، أبرق، توقفني صلواتك. العالم هنا واسع... واسع جدا فيه أكثر من إقطاعي، يتخاصمون أحياناً، يتفقون علينا دائماً. لكــن الناس هنا لا يخشونهم كما كنا في القرية. النقود التي أرسلها حوالــة للحــاج عبد الواحد صاحب الدكان اصرفيها، لا تدخري،

البسي ثياباً جديدة، ابتاعي الحلية التي تحسرت عليها أيام الأعياد. لقـد دس عـبد القـادر بعـض الأسطر، يذكر إفراطك في لبس الأسـمال، توهمين أعوان الإقطاعي بفقداني ليس بمقدوره إعادتي كمـا فعـل مـع غيري. أصبحت مساعداً لصاحب في قلم اللواء. خـريجو الـدورات الحديثة من الضباط يعاملوننا بلطف. يجلسون معـنا السـاعات في ساحات الرياضة، بعضهم يتكلم مثل صاحب دون أن يكون يتيماً، تتسع السماء، تنشق، تطل علينا المجرات آتية مـن الفضاء السحيق، أرتجف، تحميني صلواتك. يمتد العالم بحراً، تتوسـطه قريتنا قطرة سوداء، دمعة محبوسة في بؤبؤ عينيك، لكن روحـي فارقها نسيان الفلاح لإساءات الغير، أسترجع في ذاكرتي الخيط الممدود طويلاً بيني وبين القرية، يلتف، يتكور في رأسي لم أفلح في قطعه، أصبح غزلاً اصطبغ بالألوان، أحفظه لك تنسجينه حين عودتي، تلبسينه أثواباً جديدة لا تتمزق.

أيقنـت أن الفـلاح يعيش خديعة إساءاتها تتوارث، لا يأكل ما تصـنعه يـداه، الناس هنا لا يعطون أحداً شيئاً يمتلكونه، تطعمهم الريبة، يكسرون أوانيهم إن سحبتها يد.

تغـيرت لغة رسائل كريم، أعيد قراءة سطورها لأمه، لا تفهم بعضـها فأشـرح لها المعاني، أصبحت كلغة المدارس. كف عن الكـتابة بالشـعبي، ثم ازدادت لغته إبهاماً، أقرأ ما لا أعرفه على هوى والدته.

احتفظـت ببعض رسائل كريم، تنازلت أمه لي عنها إذ لم تعد تعويذة. أحرقت البخور والحرمل لتطرد عنه الأرواح فما عاد ينشد لهـا بصوت داخل حسن، يطرب روحها كمناغاة الوليد، يتكلم قلبه إن عجـز لسـانه. ظلـت أم كريم فلاحة تحفظ حكاياتها القصيرة تتكرر في كل الأعوام، أرسلت ابنها فلاحاً يحرث في أرض واسعة

... واسعة جداً لكنه فقد المحراث، استبدل أدوات العزف، ما عادت ناياً وربابة وطبلا، سألتني أمه:

- عبد القادر هل تفهم قوله؟

أســمع قرعاً في عزفه، بركاناً يتصارع داخله الطين و النار، يخــتلط جســدا آدم وإبليس، ما عاد آدم مخدوعاً دوماً، حمل الماء يصلب عوده، يحرق به أصابع الشيطان التي ما فتئت تشكله دمية، هادنـــه زمـــنا، اتخذه صديقاً، تعاظم غروره، امتدت يده تصنع من ضـــعف آدم جســداً محنطاً يعرض كمومياء في صالات العرض الفاخـــرة لكـــن الأموات يعودون مراراً لهدف واحد... الانتقام... لا يســـهل مخادعة النار إلا بالقتل، نحاصرها بالماء، تهرب للطين، تمتزج به درعاً توقف سيل الماء ثم تحرقه فخاراً افتقد طراوته.

تطهر كريم كالطين المأخوذ من تربة الأولياء قطعاً تسجد عليها جباهنا تثير الشك لدى الغير.. بدعاً... سفاهة... ثم التحريم. أقسمت أم كريم ألا تجعله فلاحاً، معظمهم لم ير النقود، يقايض عيشه، ظلت مـــرتدية الأسمال تدخر ما يرسل لها، تتمتع بمرأى فئات النقود، لا تعرف كم قيمتها، تخرج الورقة وتسألني:

- كم هذه؟

أجيبها، تعود تسألني :

- كم دشداشة تساوي ؟

تعـــيد الـــنقود إلى مخبئها فرحة. كدرتها رسالة ولدها الأخيرة يخبرها أن المال مصيبة، بدأت تساورها الشكوك في سلامة عقله:

- لعله مسحور، سأبعث له بتعويذة من الملا طاهر الذي أجاب على تساؤلاتها :

- زينتنا المال والبنون.

أنقدتـــه إحـــدى القطع النقدية الوحيدة التي صرفتها، رد عليها ولدها:

- لم يؤمن أهل المال بنبي، آمن من لا يمتلك المال.

رد عليها الملا طاهر :

- الزكاة يدفعها من يملك مالاً ولا يدفعها المفلس. أيهما أكثر إيمانـــاً الذي يقضي فريضته أم الكسلان الذي يذهب إلي قبره دون إكمال فرائضه الخمس ؟

اعـــتقدت أم كـــريم أن ولدها جن وأنها أخطأت بإرساله للعالم الفســيح كـــي يجمـــع نقوداً، كما آسف والدي مراراً لإرسالي إلى المـــدارس عندما أخذ حديثي لا يطابق مفرداته، يستغرب لسماعي عبد الحليم بدلاً من داخل حسن، أخبرته أنني أحب سماعهما، لامني علـــى عـــدم فهمي. أصدقاء طفولتي ياسين و فرحان و سرحان و معـــنا كـــريم الذي غادر يتحلقون عندي في البيت في عطلة نهاية الأســبوع لا يذهـــبون إلـــى بيوتهم لحين وقت النوم، يبالغون في مرضاتي، أرى في عيونهم الريبة لانسجامي مع أم كلثوم، يطلبون تغيـــيرها، أتحدث لهم عن جمال الكلمات والموسيقى يسكتون على مضض ثم ينفجرون ضاحكين، يبادر فرحان :

- والدي يلزمني في الثلث الأوسط من الليل بحراسة أغنامنا، أضـــع البندقية و الراديو تحاصرني أم كلثوم في جميع الإذاعات، أبحـــث عـــن داخـــل حسن لا أجده إلا بعد صلاة الظهر في اليوم التالي.

كتب كريم في أسفل إحدى رسائله لوالدته أن تخبرني أنه أصبح يحب أم كلثوم.

عـدت إلـى المدرسة حزيناً، ودعت صديقي ياسين و فرحان، أغـبطهما لـبقائهما يصـطادان طيور السمان، يفترشان الخضار البارد، يلتهمان الفطر المعفر بالتراب، يرددان أغاني داخل حسن :

"يكـاظم مهجتي الهجران عادمه أوراح الكان سلوى آلها أو ينادمها".

يعصـرني الحنين للأهل، للأصدقاء، لعرائس المروج الخضراء ترمـي عشـقها، تقترن بلا مهور، ألعن من أوجد المدارس سجناً يعزل صغار العشّاق ،حذرني أبي :

- بل مستشفى عصري للعين والقلب والأذن.

كـيف أصـدق أبـي والأستاذ لا يحمل أدوات الجراح بل فماً مملوءاً ببذيء الشتم. يوجعنا بخيزرانته التي يضرب بها عشوائياً، تهوي على من يرتدون الأسمال، يجلسنا ركلاً، يبدأ درسه :

- ... لأضربّن...

تتراءى لنا خيزرانته طوال الحصة تعترض علم الأحياء، تبعده عـنّا. نعـود نسأله، في الدرس القادم يضربنا. جاءني والدي إلى المدرسـة، أدركـت أن شيئاً ما حدث، يرتسم القلق على وجهه، أسـتأذن مـن المدرس، أردفني خلفه على الحصان، شاهدت أهل القـرية يحملون أمتعتهم على الحمير يستحثونها، الإقطاعي وحده اسـتأجر سيارات شحن، نصب خياماً على مرتفع ملاصق لمحطة القطـارات. أخبرني والدي أنه سيترك العائلة معي أتدبر أمرها، أعطانـي بعض النقود، أوصاني بأخذ البقرة والأغنام أرعاها بعيداً عن المحطة إذ انه وكل رجال القرية سيعودون لبناء السدود حول الفرات، يتّقون غضبه.

في ذلك العام فار الفرات، أمواجه جبال تتسلق، تصفع الأرض المنبسـطة تحـت ثقلها، تموت الأحياء، اختفى حسنه الأخّاذ، سال

نصـــالا يقطع رؤوس النخيل، يبعثرها، هرب موظفو دائرة الري، خافوا عربدته. الإقطاعي أمر الفلاحين :

- إن لم تجدوا ترابا ضعوا أجسادكم سداً.

حمـــل الفلاحـــون معهم قففاً. مراكب بدائية تقل شخصاً واحداً. عادوا يعدون على خيولهم، عيونهم ترنو للزروع الغضة سيلتهمها الفـــرات قـــبل نضجها، يتبادل حراس السدود الطلقات النارية في الهـــواء طلـــباً للعـــون. حسر الفلاحون رؤوسهم كما في المآتم، يتهيأون لتوديع أحبتهم حقول القمح الغضة، رضيعاً يغرق في مهده . رأيـــت صديقي ياسين و فرحان، جريت نحوهما، حيّياني بأسى، فرحت بوجودهما، أخذتهما إلى كانتين المحطة، ابتعت لهما حلوى بنقود أبي، لم يكملا علكها، ينظران بريبة للمارة، سألتهما عن سبب خوفهما أجابا:

- ألا يسجنوننا ؟

ضحكت، كانا كطائرين يقتربان من بيدر، وجلين ما بين الإثارة والعقاب، أرجلهما لا تتحمل الأصفاد. الإقطاعي مع بعض حراسه ونســـاء القرية بقوا قرب المحطة، ذبح عجلاً أطعمهم تلك الليلة، يســـتمع للمذياع ينقل أخبار الفيضان، ما زال جسد الفرات الأسفل مـــنطرحاً عـــندنا. في الأعالي نهض يفتح فاه، ندعو أن يشبع قبل وصوله لنا، نذره بأكوام الطمى كي يستغرق في نومه، مارد يتهيأ لكسر القمقم.

فـــرحان و ياســـين زاولهمـــا بعـــض خوفهما، يريان مصابيح المحطـــة نجومـــاً تسقط، عادا يبحثان عن أصابع الحلوى. لم تأكل النساء ليلتها من عجل الإقطاعي، يخشين توابيت الماء التي تتزاحم تحت أرجل أزواجهن، في زحمة الفرار شردت نعاج، تكاثر عواء الذئاب لدى حلول الظلمة.

أوقف سائقو السيارات رحلاتهم إلى القرى القريبة من الفرات، يعلـــو الماء أسرع من تعلية السدود. تشابكت أذرعة الفرات تلوي ســـواعد الفلاحين السمرا. لم تملك دائرة الري أي تراكتور حفار آنذاك لتحبس الفرات في تابوته الطويل. تواصل عملهم ليل نهار، أنهكهـــم صراع الفرات، يضرب جدران السدود، تفتحها قبضاته، يســـارعون لغلقهـــا، يضـــرب في مكان آخر، يعيد الضرب لهم، يرغي، ظهرت في مجراه رؤوس الحيوانات تطفو ثم تغوص تحت المـــوج، ركـــض بعضـــهم يطلب خيوله. انهارت السدود، أدركهم الفرات، تخلفوا عن خيولهم، أركبهم ظهره كرضيع يركب حصاناً جامحاً، البعض الآخر قفز داخل القفة يدفعه الماء، يدور فيه، لم ير قاتلا أشرس منه، تتهاوى الأشجار والناس والحيوانات تحته، يا لهذا الذي يجري في العود نسغا يهب الحياة ثم يأخذها دفعة واحدة، أبدل بانسيابه العذب سيوفاً عمياء لا ترحم، ما الذي أصاب قلبه الأبيض ليحمر هكذا؟

توقـــف غيظ الفرات على مشارف المحطة المبنية على هضبة. توقـــف المـــاء حولها، مساحات الزروع الواسعة تقبع تحت الماء بكاملهـــا، يدثرها بغطائه الأحمر، نفق الكثير من الحيوانات، تطفو، يجرفها الماء، يلقي بها على اليابسة قرب المحطة، لم يعد الرجال، ازداد قلـــق عوائلهم، سبقتهم جثث بعض خيولهم، ناحت نسائهم، اسود الماء في الظلمة يثقل من موته، يسمعنا الليل أصواتاً مجهولة . أغاثـــنا أهالـــي المحطة، تقاسموا طعامهم مع القرويين، منحوهم أغطـــية لـــم توقـــف انتفاض أجساد الأمهات. بعد يومين أمسكت الأرض بلجـــام الماء، حاصرته، ابتلعت بعضه، عاد تراب الأرض يـــربض فـــوق المـــاء كأقوى مخلوق، اختار الله طينته يجبل منها الانســـان، عجـــزت كـــل محـــيطات العالم وبحاره أن تروي ظمأ

الأرض، ظلـــت تتصـــحر بـــرغم ضآلة مساحاتها. ظهرت قفف الفلاحيـــن، جرف أصحابها السيل باتجاهات مختلفة، انقلب بعضها لكـــنها لم تغرق، نزعوا ثيابهم الملتصقة، تضاعف البرد، أغمضوا عـــيونهم لـــئلا يـــروا الموت، تركوا القفف تجري بهم أسرع من خـــيولهم ،كانـــت خير وسيلة بدائية لإنقاذ الأرواح، طيور القمري اســـتراحت معهم في ليل الماء الطويل، فرت ما إن رأت اليابسة. عم البكاء أهالي القرية لمرأى العائدين، وأعقبت الزغاريد، فللحزن طقوس حتى أثناء الأفراح.

ابتاعت أم كريم حلوى جافة نثرتها على رؤوس العائدين. لم يدم حـــزن الفلاحيـــن طويلاً لفقدانهم الزرع، استخدموهم عمالاً بأجر يومـــي لاصلاح سكك الحديد، برز الإقطاعي كمتعهد توريد عمال يـــأخذ ثلثـــي أجورهـــم. تســـللت مـــع فرحان و ياسين إلى آثار الســـومريين، لـــم يقربها الماء، ظلت قلعة أبدية تهزأ من غزاتها، طـــيور القمـــري منتشرة في الكهوف، أطلق فرحان عليها النار، صوتها يوقظ سبات الموتى، يتضخم الصوت صريخاً على أجنحة الخفافـــيش، عدونا مذعورين مخلفين طائر القمري المصاب ينوح علـــيه أصحابه، أشرح لأصحابي ما قاله الأستاذ عن ملكتهم شبعاد وحليها الذي سرقه الإنكليز مع تماثيلها، يقاطعونني :

- شبعاد ؟ لماذا لا يسمونها بسعاد كالاسم الشائع عندنا.

أرســـل كـــريم عدداً من البرقيات المستعجلة يسأل الحاج عبد الواحـــد صـــاحب الدكـــان إن كانت أمه على قيد الحياة أم جرفها الفيضـــان؟ يعـــده ألا يـــتركها بعد الآن وحدها في القرية، سوف يســـتأجر لهـــا غرفة ويأخذها معه أينما ذهب، اعترض الحاج عبد الواحـــد صـــاحب الدكان على صعوبة إلحاق أمه به لكثرة تنقلات

أفــراد الجــيش وعزلهم أثناء المناورات، لكنها فرحت بقربها مع ابنها:

– سأذهب معه، أفنيت عمري بانتظاره.

كتــب كريم أنه انتظم بالدراسة الليلية، ضابطه المباشر يعامله طيباً، دعاه إلى بيته، يكره الحكومة رغم أنه ابن تاجر، يمقتها كمن يــريد إرثــاً صـــاحبه لم يمت، يختلف عن كره "صاحب" صديقي الطيــب الفقــير الذي يريد أن يزيل الخرائب قبل البدء في البناء، يتجاذب روحي سحر الضابط، خيلاؤه وهو يخاطبنا :

– كل جماعة تحتاج لقائد... سرب الطيور يتقدمها قائد.

لكنني أنتمي لصاحب، يهمس:

– الشعب هو القائد، سيصبح هذا الضابط كالإقطاعي.

يفارقني إيماني، نرتعش مصطفين لدى مرور الضابط.

أحــدث ظهور آلات الحفر الزراعية صخباً في الريف، تكالب الإقطاعــيون على تسجيل أكبر مساحات من الأراضي الزراعية، تنازعوا على الصحاري المحاذية، أريقت دماء الفلاحين، يمنونهم، يقــربونهم أثناء الصراع ثم يسلبون منهم الأراضي، لم تتسع دائرة الــزراعة، اســتحدثوا لجان تسوية أراضي الدولة الأميرية. اغتنى الــريف، يــتملقه أهالـــي المدينة، أصبح للإقطاعي سطوة تخشاها الحكومــة، جمعهــم الباشا حوله. وحده حال الفلاح لم يتبدل، يكدح أكــثر ليجاري الآلة، فارقه زهو ساعده الأسمر القوي الذي ضمر أمام الآلات، كف الإقطاعي عن زيارة الريف، أصبح له عدة وكلاء يجــبون له. ســكن العاصــمة يطالــب وكـــلاءه، يستعجلهم جني المحصول، يبيع الزرع في آونة غضاً قبل أوانه لأصحاب الأغنام، يــنفقه فــي صـــالات الملاهـــي الليلية، تستثير الراقصات بهيمية الخــرفان الكامنة، يراه حقلا يزدان بألوانه بلله الندى، أتاه جائعاً،

عطشـــاً مـــن أعمـــاق الصحراء التي لا ينبت فيها غير العوسج، يتضـــاعف جوعه لعروض الأفخاذ البيضاء، يهيج لتلويح مناديلهن الحمراء، ينطح، يخور، ينطرح متوسداً أرض الملهى يفرغ شوالات القمح السمراء.

أخـــبرنا الحاج عبد الواحد صاحب الدكان عما يشاع عن غرام صاحبنا الإقطاعي بالراقصة بديعة، استأجر لها بيتاً جعلها محظيته. مـــنعها من الخروج، أغدق عليها الأموال، لكن بديعة ليست إحدى نســائه في القرية، تستهويها الرذيلة، تسحبها من معطفها، يتحرك جســدها على نقر الطبال، تتنفس الدخان الممزوج برائحة الخمر، تزيـــن فمها بأضراس الذهب، تحكي بمزاح البذاءة. افتقدت زبائنها المتحضـــرين يســـمعونها عسل الغزل الفاضح، لا يملك هذا الثور الرابض غير نقوده. انشغل بإحدى جلسات البرلمان، تلفتت لأحدهم، تســللت يصـــطحبها. غرقـــت في المتعة، عادت متأخرة تخاطب الإقطاعـــي الحانق باستخفاف، رائحة الخمر تهب من منها، لاحظ تورم شفتيها، احمرار عنقها، أثر العض على صدرها، صرخ بها :

- عاهرة.

ردت بضحكة ماجنة:

- من أين أتيت بي؟ من بيت أهلي؟

واصل صراخه:

- سترتك... غطيت جسدك العاري.

استمرت تضحك بمجون:

- لكنني أفضله عارياً.

أفرغ مسدسه بها. ذهب إلى قصر الباشا، أخرجوا جسدها الميت سراً.

نشــرت الصـــحف نعـــياً لهـــا تتهم لصوصاً مجهولين سرقوا مصـــاغها وقـــتلوها. لـــم يظهر أحد من عائلتها يدعي بالجثة، لذا أقامت الحكومة عزاء لها توافد عليه كبار الشخصيات.

تعـــاظم شـــأن ملاكي الأراضي ومستغليها، عائدات الأراضي الواســـعة المـــزروعة بـــالآلات جلبت لهم أموالا طائلة، أجبروا فلاحيهم على شراء البنادق الجديدة ــ برنو ــ جعلوا منهم ميليشيا مســـلحة توقـــف سير القطارات و تقلع أسلاك الهاتف إن امتنعت الحكومـــة عـــن تنفـــيذ بعـــض مطالبهم. عمدت الحكومة بدهائها المـــتوارث إلـــى تأليب بعضهم على البعض الآخر، قربت فريقاً، حرضـــته، اشـــتبكا في صراع دموي، تمد الطرفين سراً إن نفذت ذخـــيرتهما، في النهاية جعلت منهما حراساً لطرقات السكك الحديد وخطوط الهاتف.

كان ذلك الصيف آخر أيامي في محطة القطار، أنهيت دراستي بها. لم أزر بعدها المحطة التي اندثرت لاحقاً، غيروا مسار خطوط الســـكك الحديد لتمر في المدينة مخترقة حافات الأهوار. جئتها قبل ســـنوات يدفعني والدي قسراً، منفياً، سجيناً، غادرتها عاشقاً، أطرب لصافرات القطارات، أغتسل ببخارها تنفثه مراجل الفحم الحجري، أتلـــذذ بحلوى الكانتين، أراقب مقص السكة يحول سير القطارات، أســـمع صافرة الفورمن يلوح بالعلم الأخضر إيذاناً بتحرك القطار. أتتبع درب السومريين مرة كل خميس، نصعد أعلى القمة، نطل من الـــتاريخ نرى سيدنا إبراهيم ما زال صديقاً لله. داره لم يتكسب بها إنســـان، لا تحوي قبباً ذهبية تسكب في بيت السادن، جالس ربه في نفس الدار التي عرفت سقمه.

رجعـــت للقرية، وجدتها تنهض يدفعها شباب الأرض المتجدد. زارنـــي صـــديقاي ياسين و فرحان، استبدلا بنادق الصيد بأخرى

بــرنو، تولــد عندهم التحدي، كثرت المشاجرات الحمقاء، تعددت الإصـــابات، وضـــعوا غرامات ـــ دية ــ لكل نوع منها مع أخذ البندقــية من المتسبب، لم يفلح ذلك في وقف الشجار إذ أن البندقية تعطي إحساساً بالقوة الحمقاء، يتلقفها الفتيان، يمتنعون عن الزواج لحين رضوخ آبائهم الذين يريدون الزوجة لا البندقية في بيوتهم.

كتب لي كريم :

- سمعت أنكم تتسابقون على البنادق، هنا في الجيش نكرهها، لــن تظــل عندكم صامتة، دمية صنعها الشيطان ترقصون بها أيام الأفراح، انتظروها ستقودكم باكين إلى المقابر.

تحققت نبوءة كريم، اشتبك بعض أفراد القرية، قتل واحد من كل طــرف، تداعــى أقــرباؤهم ينصرونهم، نساؤهم يزغردن، ينشدن الأشعار الحماسية لدى احتدام إطلاق النار المتبادل، ما إن تصمت البنادق حتى تتحول الزغاريد إلى نواح ينعي القتلى مختلطاً برثاء الــندابات، يقام العزاء سبعة أيام تذبح فيها العجول والأغنام غداء وعشاء، تستلف أثمانها عائلة القتيل، نشرت البنادق البغضاء سلاحاً ينحر أصحابه. أوهموهم بميادين الشجاعة، بالمجد المر ثم يذهبون للعاصـــمة يعقدون الصفقات على طاولة ملهى بديعة، يبيعون دماء مقاتليهم من الفلاحين، يتبادلون الأنخاب بها، حذرت صاحبيّ ياسين وفــرحان، لــم يوافقني فرحان، جرى ينصر بني عمه، جرح في ســاعده، تكســرت عظام يده، ظل كل عمره يحمل يداً عضباء لا تستطيع رفع جاروف يحرث به حقله، قال بأسى:

- لــو كانــت عينــي، لساني، لا أهتم، لكن الفلاح فقط أيدي وأرجل.

حــان وقــت انتقالـــي إلى المدرسة في المدينة، أدخلوني سكن الطلــبة الآتيــن من الريف، وجبات الطعام مجانية مع الصابون و

غسيل أجسادنا مرة واحدة كل أسبوع في حمام المدينة التركي.
ملاحظ القسم الداخلي يعتمر سدارة يخفي بها صلعته، يعاملنا بطيبة ممزوجة باحتقار لأبناء الريف غير المتحضرين. أعمارنا تتراوح ما بين الثانية عشرة والثامنة عشرة، لم أفهم في البدء سر انشغال أجهزة الأمن بنا، بعد شهرين تبين أن هذا السكن ذا الأدوار الثلاثة ما هو إلا بؤرة ثورية تتلقف الطلبة الفقراء الجاهزين لركوب المخاطر، انخرطت معهم. طلبني ملاحظ السكن:

– مؤخراً لم أشاهدك تدرس جيداً.

– أحصل على أعلى الدرجات... أنا الأول في صفي.

صاح غاضباً:

– أراك تماشي فلاناً و توصل آخر وتهمس مع ثالث.

– من أخبرك ذلك غير صادق.

حذرني بقرصة أذن:

– أنا لي عيوني، أنتم كأبنائي، انصرفوا للدراسة. اتركوا غيرها من سياسة وأحزاب، أيعقل أن يكون معدن مثلكم ملوكاً أو رؤساء جمهوريات بدل الباشا.

قبل مثولي أمام الملاحظ أعلمونا أنه يراقب الطلبة الناشطين لصالح جهاز الأمن مع من جنّدهم من زملائنا للتجسس علينا. وهو بجسمه الضخم يملك وداعة بقرة و دهاء ثعلب، تمكن من كشف كل محاولاتنا للتستر على نشاطنا السياسي، لكنه أبلغ عن بعضها فقط. لم أره يوماً يفقد روح المرح خائفاً كيوم نشوب العراك الجماعي في السكن، استمر القتال ليلة بطولها، تلقى عدة ضربات و هو يقف بين المتصارعين، سقطت سدارته، بانت صلعته الحمراء محتقنة. هرب إلى مركز الشرطة يجر جسمه الضخم، طوقوا المبنى، توقف القتال، انزوى الطلبة في غرفهم يغطون رؤوسهم

المعطوبة بالمناشف، طلب من رجال الشرطة أن ينصرفوا، أخبرهم أن ما جرى سوء فهم يعالجه مع الطلبة، خشي أن يعلم رؤساؤه لو اعتقلوا الطلبة، سيعنفونه أو ربما يوقفون ترقيته لعدم كفاءته. سبب العراك اقتتال قبيلتين في الريف، ما أن علم أبناؤهما في سكن الطلبة حتى اشتبكوا يمزق بعضهم كتب الآخر، ملابسه، يدمي رأسه، نسوا ما درسوه في كتب التهذيب والتربية وما لقنه لهم السياسيون في الحلقات الثورية السرية من تآخي الشعب ووحدته ضد مؤامرات الأعداء. ألقوا بشموع القطط على نفائس المفروشات تحرقها حالما بدا لها فأر.

مدرسونا في المدينة ليسوا كأستاذنا في مدرسة محطة القطار، لا يخافون كثيراً من الحكومة، كما أن الطلبة لا يخشونهم مثلما كنا نخاف أستاذنا السابق، يذهبون معهم إلى السينما التي أراها لأول مرة، خجلت كثيراً لتعليقات البعض البذيئة عندما تتعرى فتاة على الشاشة، عجبت لضحك النظارة، يتفاعل جمهور الحانات الرخيصة من الشيالين لدى انتهاء فلم الكاوبوي، يتبادلون اللكمات تتطاير زنابيلهم، يتركونها هاربين قبل أن يدركهم رجال الشرطة.

صاحب السينما يتعاطف مع بعض الثوريين، يسرب فلماً ممنوعاً يتعالى الصراخ:

- يسقط الاستعمار... عاش الشعب.

تتم الهتافات في الظلام، يتبرأ الجميع منها لدى إشعال النور. تغلق الشرطة دار السينما أسبوعاً، يقتادون صاحبها لدائرة الأمن تجبره لسعات الخيزران على ترديد الشعار معكوساً. منعوا الأفلام العربية والأجنبية عدا الهندية التي نسمع نحيب الفتيات المكتوم خلال عروضها. كانت شاشة السينما مرآة نرى أنفسنا فيها، تلبسنا

فــي كل يوم ثوباً جديداً، عقول غضة يكسبها أول تاجر مبتدئ. لقد برهنت الحكومة أنها أسوأ تاجر يفقد بضاعته.

لا يختلف آنذاك حال المدينة عن محطة القطار. كلتاهما تعيش علــى الريف، لكنها تخلف سقم الروح، هذا ما وجدته عند زميلي فــي صــفوف الدراســة إسماعيل ابن صاحب دكان تتنجي، أراه مصــفرا، صــامتا، أداؤه الدراسي منخفض رغم أنه طالب لامع، عرضــت عليه المجيء معي في عطلة نهاية الأسبوع إلى الريف حيــث الهــواء النقي، دعوت معه جعفر زميلنا الذي ينثر المرح. اســتقبلنا والــدي بترحاب استثنائي، نحر لنا خروفاً صغيراً. انعقد لســان جعفر الذي كان يعمل كالشفرات، أخافه ليل القرية المظلم، يجفل لعواء الحيوانات فيما انطلق إسماعيل يجادل أهل القرية:

- لمــاذا تجعلون أصحاب الدكاكين يخدعونكم، حتى والدي يعمل ذلك، يخلط التبغ مع العروق.

يضــحك لــردود الفلاحيــن الغاضــبة، يخجلون من الظهور كمغفليــن. فــي اللــيل أخذ جعفر يلعن البراغيث التي وجدت في جسمه الترف السمين مرتعاً لا يشبه جلود أهل القرية.

غفــا إســماعيل تحت وخز إبر البراغيث تخدره، لم يشك من جلــده كشكواه من روحه التي لم أقترب من أعماقها، في الصباح أخذتهمــا إلى الحقول، امتطى جعفر حماراً جرى به لحين عودتنا. رافقــت إسماعيل، يتمعن في النباتات الصغيرة يلمسها رضيعاً في مهــده، يمنعنــي مــن قطفهــا، رمى للطيور خبزاً، اعترض على ملاحقتنا لها، ينصت لخرير المياه، لحفيف الزروع تحركها الريح، أصــغى لصــوت الناي شجنا يعزفه راعي الأغنام البعيد، استمتع بأشعة الشمس تغمر لوناً جديداً أضاء بها عيونه، تفتحت روحه كما تتفــتح الزهور، تكشف جمالها، يفيض عبقها، استلقى على العشب

يـــتأمل الســـماء، يتابع طيران روحه في مدارات بعيدة تمر عبرها الطيور أجراماً صغيرة.

كالمصـــحات، فتح الريف الشفاء لروح إسماعيل، يطلب بروح مرحة:

- أعطيك دكان أبي لقاء هذا الحقل الأخضر.

- لا مانع عندي ما دمت أدرس في المدينة، لا تتعجل المبادلة ســتری هذا الحقل الأخضر مصفراً حال مرور وكيل الإقطاعي، لـــيس لـــك شـــريك فـــي دكان أبيك، أنت إنسان حالم، طير يحلق تصطاده الفخاخ متى ما لامس الأرض.

أجابني مستنكراً:

- هناك أرقد في قفص محاطاً بالقضبان، ليس لي روح بقرة كجعفـــر تســـتمتع بالراحة في الزرائب، تنتظر العلف في أوقاته، خلعت باب القفص، ألقيته على مشارف القرية.

طلبت من والدي أن يأخذنا معه إلى مضيف الإقطاعي، أضمر شيئاً لإسماعيل الذي يفحم سامعيه بحجته يستمدها من خياله ملونة كقوس قزح، تبهرنا، سرعان ما تتلاشى عند اشتداد الشمس.

طلبت من رفيقيّ الصمت، أحذرهما :

- استمعا فقط، للديوان طقوس لا تعرفانها.

يتصـــدر الإقطاعـــي مجلسه، يتدرج حسب الوجاهة الجالسون حوله. عاد من العاصمة لخوض الانتخابات البرلمانية، يعيد مقعده المحجوز من دون منافس.

بدا إسماعيل مهموماً، تغير لونه، عاد كما كان في المدينة روحاً معذبـــة. يصـــغي لأوامر الإقطاعي التي لا تعبأ باستجداء الجموع لعطفه.

جعفر يضحك على ذل الفلاحين، أقرصه أحياناً أهمس له:

- لا تضحك قبل الإقطاعي أو بعده.

لكـــنه لا يعبأ بي، بان الحرج على والدي، بعدها طلب مني عدم اصطحاب هذا الزميل السفيه. استمع الإقطاعي لشكوى متخاصمين علـــى جواد، أحضر كل منهم شهوداً أيدوا ملكية الجواد لصاحبهم. ارتـــبك الإقطاعـــي، حاورهم، كانوا من قرية مجاورة، لم يهتد إلى الحل، طلب من أحدهم أن يقسم بأحد الأولياء ويأخذ الحصان، أخذ كل واحد منهم يطلب من غريمه أن يحلف متنازلاً له عن الحصان كونهمـــا يتجنـــبان القســـم خوفاً من بطش الأولياء بهم. قفز جعفر صائحاً:

- أنا أحلف و آخذ الحصان!

بـــدأت المديـــنة تتمرد على القرية، تسلبها زهوها القديم، أفواج العاطلين ابتلعتهم الورش الحرفية الصغيرة، تشكل أيديهم وعقولهم، دخانهـــا المنتشـــر يلتصق على جدران المرافق الحكومية يافطات تـــتمرد، بـــارت سلع الريف، تباع بأرخص الأثمان، معها اندثرت غطرســـة الإقطاعيين على أهالي المدينة، يسخرون من لباسهم في الشـــوارع. أفـــراد الشـــرطة امتلأت جيوبهم بقطع النقد المعدنية، (واشـــرات) يدفعهـــا لهم الأثرياء الجدد، ما عادوا يحيون رؤساء القرى وحدهم كما في السابق.

ظهـــرت علـــب السجائر يدخنها أهالي المدينة، يلبسون القماش الزاهي تتنوع أشكال خياطته. ظلت أردية الفلاحين شوالات قديمة تبرز منها رؤوس تتلفت في شوارع المدينة.

ازدادت المدينة غنى، حل كبار الموظفين و أصحاب الصناعات مكـــان الإقطاعييـــن الذيـــن بانت أميتهم بعد أن رفع عنها غطاء الـــثراء، يـــتحفزون للانـــتخابات النيابية، يرفعون اليافطات، تملأ الشوارع، تدعو للتغيير.

أرسل الباشا من العاصمة من يكتب اليافطات لأصحابه الإقطاعيين، مزقت ليلاً، استبدلت بشتم الباشا على الجدران، امتلأت شوارع المدينة بمسلحي الإقطاعيين يستعرضون. انهمرت عليهم من السطوح كتل الطابوق والحجارة والعصي، فروا راجلين مخلفين بنادقهم يجمعها رجال الشرطة، أمامهم يعدو رؤسائهم على ظهور الخيول. في نفس اليوم اعترض القرويون قطار الليل السريع، أطلقوا عدة طلقات على عرباته.

توقفت الدراسة ثلاثة أيام، شغلوا مدارسنا كمراكز انتخابية، يتعاون أساتذتنا مع كتاب الإدارة المحلية لإحصاء الأصوات، بعضهم ذهب إلى الأرياف، يعبرون الأهوار بالقوارب، يتلقّاهم رؤساء العشائر بالولائم الدسمة، يحذرونهم من الحوار مع الفلاحين. يبقون حتى المساء حيث يرجعون حاملي صناديق الاقتراع. أدار الأستاذ في طريق عودته مفتاح الراديو يلتقط أخبار السادسة مساء، سمع إعلان النتائج، فاجأه المذيع بذكر نجاح المرشح الذي يحملون صندوقه والذي لم يفتح بعد. رمى الأستاذ الصندوق في ماء الأهوار.

لم أسافر إلى أهلي في القريةٍ، في المدينة تجري عروض تبقيني، الضباط الجدد يتدخلون سراً، ينضمون لمعارضي الباشا، يخلعون لباسهم العسكري، يتنكرون، ظلت الأموال في ذلك الوقت حبيسة الخزائن تحفظها الجدران الحديدية السميكة، تمنعها من إفساد الناس. ذهبت لخطاب أحد المرشحين، أوعزوا لنا بحضوره، تجمع خلق كثيرون. من شرفات وسطوح المنازل يطل الناس. ألهبنا حماسه، يخاطب عواطفنا، آمالنا، أشياءنا المستلبة، ينطق صمتنا الأخرس، تجري الدماء في عروقنا شجاعة خرقاء، ثيران هائجة أطلقت في ملعب تطارد مصارعيها.

فر رجال الشرطة، عادت المدينة للناس تزين بيوتها، تتهيأ لليلة الدخلـــة. زميلـــي إســـماعيل حمل الخطيب على كتفيه، طاف به الشـــوارع، لـــم يتعب وهو النحيف، يختلط صراخه مع الجمهور، احمر وجهه، فارقه شحوبه الأبدي، تشع روحه، تملأه حسناً.

فـــي زيارتـــه معـــي للقرية أصغى لصوت الطبيعة يتآلف مع روحه، يفتحها، لكني لم أره بهذا الجمال غير هذه الليلة. لقد أطربته شـــتائم الجمهـــور للســـلطة، فعلـــت به ما لم تفعله الطبيعة حين استضافته. لم ننم تلك الليلة، سكن الطلبة الذي يعاقب كل من يتأخر عـــن الثامـــنة مساء، سهر حتى الصباح على قرع الدفوف. أكلنا السندويش يوزعها مجهولون، قصدت بيت زميلي جعفر، لم أره في الزحام، وجدته شاحباً يقطع حديثي معه بالذهاب للمرحاض، أتخمه شحم الولائم، بقي تلك الليلة في داره يهزه الضجيج.

فـــي وســـط الشارع نقف نحن الشباب الصغار، ندكه بأرجلنا، تســـخر الأرض من طيشنا، ليس بعيداً ذلك اليوم الذي تتوقف فيه أرجلـــنا دون أن نطوي إلاّ القليل، ستتعبنا باتساع طولها، بوعورة مـــرتفعاتها، بطـــرقها المتعرجة، تتصلب أرجلنا، ينشف منها النسغ المـــتدفق، نـــتوكأ عليها، عكاكيز تحملنا فقط، لا تعطينا أي مآرب أخرى.

علـــى أطـــراف الشـــارع يقف الكهول يصفقون بحماس أقل، يتجاذبهم سحر اليوم الموعود وبكاء أطفالهم، لكن هذا اليوم كالقيامة تتمـــنى قربه، يتراءى لنا ثم يبتعد، لم نيأس من لعبة العصور رغم وضوح الخديعة.

كبار السن يجلسون على رصيف الشارع، يتكئون على جدران بـــيوتهم، يضـــحكون، يشـــفقون على هذا الجمع الهادر، لا يخفون شماتتهم من جبن السلطة، تسري في كيانهم شجاعتهم القديمة كتيار

يتدفق، يهدر، ثم يفور تاركين خوفهم الدائم على أولادهم، يطلقونهم في الشوارع سيلاً أوقفته السدود أزماناً.

لمحت كريم، ناديته، التفت صوبي ثم اختفى. لم أطل البحث عنه، أثارني الموكب الآتي من البيت الغامض الذي لم يعد لغزاً لي بعد تلك الليلة، كنت أمر من جنبه، يتوسط الشارع الرئيسي في المدينة، شبابيكه الخارجية مسمرة بألواح الصاج، زواره يتوافدون عليه في الظلام، يدخلون و يخرجون مسرعين، بابه نصف مفتوح تليه ستارة سوداء سميكة، يبقى مغلقاً طوال النهار. ظننت أول الأمر أنه معتقل لدائرة الأمن، أقفز إلى الرصيف المقابل إن مررت سهواً به. دفعني الفضول للسؤال عنه، يبتسم كل من أسأله دون أن يجيبني، تأكد لي أنهم يخشون رجال الأمن إن أباحوا بوجوده لكني لم أفهم سر الابتسامة.

نزل الناس من الشرفات والسطوح يحتشدون، يتفرجون على هذا الموكب الفريد، يسمعوننا أنواع المزاح الطريفة. امتلأت الأرض بالنساء اللواتي لففن العباءات السوداء، لا تظهر غير عين واحدة ماجنة تتفحص أجساد فتيات الموكب الخارجات من بيت المتعة لا يعبأن إن بانت أجزاء من أجسادهن.

تلاشى حماس الناس، نسوا السلطة والانتخابات، يتسابقون لرؤية هذا الموكب الذي بقى عمره حبيس تلك الدار.حاول بعض غلاة السياسيين إعادة الجمهور إلى الشارع، سقطوا تحت هذا القطيع الهائج. رددت الفتيات إيقاعات لأغاني معروفة قمن بتبديل كلماتها بأخرى

تسخر من السلطة. صفق لهن الجمهور، أسمعوهن كلمات الإطراء الخالية من المجون.

الخوف الذي يبقيهن سجينات الدار يتساوى إن كان المفتاح بيد القـــواد أم الســـجان. غنين للجمهور، غنين عن أوجاعهن التي ما زالـــت جـــرحاً يـــتجدد نـــزفه كل ليلة على ملاءات الأسرة، عن أرواحهـــن التـــي لـــم تتعاف، عن قلوبهن المتصحرة يزيدها الماء عطشاً.

اتكأت على الجدار أسمع حوار بعض المسنين:

- لمـــاذا تتظاهر هؤلاء النسوة؟ لن تتغير مهنتهن إن انقلبت الأوضاع!

- ربما ينشدن مزيداً من الحرية... ممارستها في الشارع!

- فضحن بيت المتعة السري كما تفضح المعتقلات السرية... نضال لا يجري تدوينه.

- نحـــن ضحايا سلطة وهن ضحايا مجتمع... كلا الطرفين لا يؤدي عمله بإتقان، لا السلطة ولا المجتمع.

برز إسماعيل يقاطعهم :

- ربما كلهن خبيرات... يكلمن الرجال بلغات عديدة ساحرة، لكن ليس من بينهن واحدة تجد رجلاً.

في مراكز اقتراع المدينة احتشد ممثلو المرشحين يفوقون أفراد الشـــرطة، متنمرين، يوقفون محاولات التلاعب، لا يسمحون بنقل الصـــناديق بعيداً عن الأعين. رمى أحدهم بجسمه على الصندوق مانعا ضابط الشرطة من أخذه. تأخر فرز الأصوات، رضخ القضاة فـــي الـــنهاية لإصرار الجمهور بفتح الصناديق علناً خلافاً لأوامر رؤسائهم بفرزها داخل غرف مغلقة. لحظات يصحح فيها التاريخ مســـاره، تتوالد الأنفس من جديد، تتبدل الإيقاعات، تبتعد الشرور، يتسابق القمر و الشمس بإرسال نورهما يضيء داخل البيوت، يمنح الدفء لأجساد مقرورة، تنفض عنها برد الظلام الكثيف، تخرج إلى

الشـــارع لا تعـــود طواعية خوفاً من انقطاع النور. فتياً كان خيال الـــناس، مهـــراً تلـــوح له المراعي لا يكبحه لجام، يجري أحمق الخطوات، يترصده مكر الصياد المتمرس باقتناص الخيول البرية، عبق المراعي يثير فحولته، ينسيه حذره.

يعـــود الـــتاريخ ثـــوراً أعمى فقد طريقه، تخدعه رائحة العلف المخزون في صوامع الحبوب، يتحطم قرناه على جدران الغرانيت الصـــلدة، تغـــادر الخيالات، رأسه يقودونه إلى مدار الناعور حيث يظل جائعاً إلى أن ينفق.

فـــي المدينة تبدلت وجوه الفائزين من النواب كتبدل المساءات المضيئة التي أشعلت حماس الناس، فاز الذين يطعموننا السندويش، سقط أصحاب الولائم، حردوا في بيوتهم مثل جعفر يلعن بطنه التي أعاقته عن نداء الضجيج.

أولـــى البرقـــيات الواردة من العاصمة عزلت المحافظ ومدراء الأمـــن والشرطة. رفعت أصفاد الناس في تلك الليلة، عاد مبعوثو الإقطاعيين إلى قراهم يحملون قصصاً مختلفة لما جرى.

خـــرج الـــناس مـــن بـــيوتهم، افترشوا الشوارع، يوقفون سير المركـــبات، يطعمون المارة، يسقونهم الشربت، يوزعون الحلوى، يتبادلون الفرح. يجوب جعفر الشارع طولا يحمل جردل الشربت، يـــوزع الشـــراب والسندويش بالجملة. راقبته طويلاً لم أره يأكل شـــيئا، تلـــذذ تلك الليلة التي لا يشبه مذاقها الليالي الأخرى بتقديم الطعـــام للناس ونسي نفسه وهو الذي يسلب أخوته طعامهم. كثيراً مـــا أتأمل الفارق بينه وبين إسماعيل، يبادر لمعونة الناس طوعاً، يحمل أثقالهم دون الحاجة لسؤاله، دائم الابتسامة، يطلق المرح من حولـــه، فـــي الســـفر يقضي الليل واقفاً معطياً مكانه لامرأة، قلما يتشـــاجر، يجد متعة في خدمة الناس. إسماعيل الذي يحمل أوجاع

الفقراء منعزل عنهم، لا يفهمونه حين يتكلم، له شحوب السراديب، تألف روحه سريتها، لا تفتح إلا بسماعها الطرق، أرهقه ثقل البضائع التي لم يحملها بعد، تضيق بها نفسه، فيما ظلت كل الأماكن ميدانا يطرقها جعفر، يتناوبني بريق إسماعيل المختفي تحت أهداب الظنون وشهامة جعفر المحمولة على كتفيه مع أن كليهما يتساويان بذات القلب الطيب.

لمحت عن بعد إسماعيل واقفاً مع كريم، هل هي مصادفة في ليلة التعارف هذه ؟ دس كريم لفافة بيد إسماعيل نقلها سريعاً إلى جيب بنطاله الخلفي، يتحسس وجود الأزرار، غادره كريم، ناديته، أسرع الخطى. بان الارتباك على إسماعيل سألته:

- أين التقيت كريم ؟ لم يحدث أن عرفتكما ببعض.

صمت كقديس يتهيأ للكذب، أجاب:

- صادفته بين الناس هنا لأول مرة.

رأبته يعطيك شيئاً.

أجاب بصعوبة:

- أعاد لي محفظتي التي فقدتها في الزحام.

صرخت به:

- إن كان أميناً كما ذكرت لماذا هرب مني كاللصوص.

في وسط الشارع فتح البيت الغامض الذي لم يعد كذلك أبوابه نهاراً، أطعم الناس ساكنيه، غادره زبائنه الموسرون الذين قضوا ليلتهم يحتسون الخمر صامتين.

سافرت إلى القرية، أعلمونا أن المدارس ستفتح بعد أسبوع، صخب الانتخابات أنهكنا كسباقات المسافات الطويلة، يختلط تعب العداء بصياح الجمهور. رحت أنشد الهدوء في القرية التي بدأ فيها موسم الحصاد، أحب الأوقات إلينا، ثمر التعب والانتظار والجوع.

وجــدت بيتــناً مغلقاً، لا يوجد في القرية غير العجائز، ذهبت إلى الــزروع حيــث يــتجمع الأهالي للعمل طوال النهار مع نسائهم وأطفالهم. في الليل يغنون على أنغام الدفوف، خلفهم تجلس النساء يرميهــن الشــباب بــنظرات كالشهب لا تخطئ الهدف، في نهاية الحصـــاد يــبدأ موسم الأفراح الذي ينتهي بزواج عرائس العشق الصامت، يعقبها شهور الحسرة الصيفية، بطالة الفلاحين الطويلة.

جلبت معي راديو أهدانيه جعفر، قصدت أسلم على الرجال قبل مــروري على البيت كما هي عادات الريف التي لا تسامح العائد من السفر إن قصد بيته أولا، خاضعاً للنساء فاقداً لرجولته. جلست معهم أحمل الراديو، أشعر بالزهو، أشم رائحة السنابل عطراً خلط بخضـــاب الفــرات وبكـــارة الأرض ونـــور الشمس. أحد أعوان الإقطاعـــي من كبار السن يستدعيه سيده لمجلسه الخاص في الليل قــرب بيـــته، يستمع معه إلى الراديو الذي لا يملك أحد في القرية مثله. في صباح اليوم التالي يسهب هذا الشخص في سرد ما سمعه مـــن الراديو الليلة الماضية على مسامع الفلاحين، يصدقونه، حيث أهـــل القـــرى لا يكذبـــون كـــبار السن. يسحرنا بأخباره، يرويها كحكايـــات ألـــف لـــيلة وليلة. لم نشك آنذاك أنه أو أجهزة الراديو يكذبـــون. وجدته مع الفلاحين يحتسون الشاي، قبلت يد والدي أولا ثم سلمت عليهم جميعاً، أثار وجود الراديو معي فضول الجالسين. بعضـــهم لـــم يـــره من قبل، طلبوا سماعه، أدرته لهم ينظرون لي بإعجـــاب، يدهشون لرؤية هذا الميت يتكلم، بحثت لهم عن أغنية، رددت سليمة مراد:

- هـــذا مـــو إنصـــاف منك... غيبتك هلكد تطول... الناس لو تسألني عنك... شرد أجاوبهم شكول.

تركت النساء جمع السنابل، اقتربن يسمعن الغناء، زجرهن الرجال، عدن يختبئن خلف السنابل ينصتن لعزف الآلات الجديدة التي لم يكن من بينها الدفوف.

حانت أخبار السادسة عصراً، أدرت الراديو بخبث على إذاعة لندن أختبر معاون الإقطاعي، إذ راودتني الشكوك منذ ذهابي إلى المدرسة وتعلمي للغة العربية الفصحى أن هذا الشخص يفبرك الكلام. بعد نشرة الأخبار أذيع تقرير خاص عن الانتخابات التي جرت في بلدنا. أسهب المراسل في نقل الوقائع الجانبية التي أخلت بهيبة السلطة إثر فوز عدد من المعارضين. انبرى الشخص يشرح لهم ما سمعوه ينقله من العربية الفصحى إلى لغتهم الشعبية:

- إذاعة لندن تقول إن أنصار الباشا فازوا بجميع المقاعد النيابية وإن معارضيه من الأفندية اللوطيين يقبعون الآن في السجون.

اعترضت قائلاً:

- لماذا يقبعون في السجون؟

- عقاباً لهم على فسقهم وفجورهم.

- ما الصلة بين ترشيحهم للانتخابات والفجور؟

رد غاضباً:

- أنت تفهم أكثر مني يا ولد؟

- يا عم، ذكر المذيع فوز بعض المعارضين وأن الباشا ينوي الاستقالة.

نهض غاضباً يهم بمغادرة المجلس، استعطفوه للبقاء، طردوني، ضربني والدي كفاً يسحبني إلى البيت، لم يصدقني أحد منهم، سرت مع أبي يلاحقني صوت الشخص:

- قلت لكم زماناً إن المدارس تعلمهم الكذب وتأخذ منهم الفضائل التي أدبتم أولادكم بها.

دمعت عيناي، قلت لوالدي بارتعاش:

- أتظن مثلهم أنني أكذب؟

- كلا... سيكون عقابك شديداً لو كذبت.

- إذن ماذا؟

- عاش هذا الطفيلي على الخديعة، بعضنا يعرف دخيلته وبعضنا يعتبره عالماً، ستعرف فيما بعد أن هناك ظلالاً خفيفة تفصل بين العالم والدجال، لكننا نتوارث احترام كبير السن.

- هل سيعفو الله عن إبليس لكبر سنه؟!

ضحك والدي، وضع يده على كتفي:

- عموماً، لم تصل جرائمه لمثيلاتها عند الشيطان.

ضمني والدي إليه، قال بحنان:

- أصدقك في كل شيء... أنسيت لماذا أرسلتك للمدارس؟ إنك عيني التي أرى بها.

انتهى موسم الحصاد بفجيعة تلك السنة بعد أن أهدت الأرض والسماء والفرات أكوام الغلال، أشبعت الطيور والهوام والناس. فتحت نوافذ الحب، خرج عصفوران يحلقان، قلباهما يرفسان، تمنعهما من الهبوط، يطيران إلى الأمام لا يعرفان ميناء آمناً.

توسل سرحان الفلاح الشاب ابن الأرملة للإقطاعي:

- أبوس نعالك... اخطب لي بنت حمود... لقد رفض وجاهة السادة... أنت ملاذي الوحيد... أبو الجميع.

نهره الإقطاعي:

- ابن الأرملة يتزوج بنت الوكيل.

ركع على قدميه:

- والـــدي قتل حيث أرسلته... افعلها وفاء لدماء أبي... أمي لا تزال تخدم في بيتك... عشت مع عيالك أخاً لهم.

غضب الإقطاعي:

- بل خادماً لهم.

تمسك بقدميه:

- افعلهـــا جـــزاء خدمتي... سأظل عبداً مطيعاً... أينما تشير ستكون قبلتي.

ركلـــه على صدره، سقط عقاله الذي يضعه شرفاً على رأسه، سحبه أعوان الإقطاعي، رموه حاسر الرأس يشتمونه:

- متى تزوج العبد من بنات السادة؟

سرحان وكريم كلاهما تنفس رائحة الدم منذ مولدهما، يرضعان ثديـــاً بالحليـــب و آخـــر بـــالدم، يذكرانهما بوالديهما اللذين قتلا وينـــتظران أخذ ثأرهما، ترعرعا على مهد الرجولة، يغفوان على اهـــتزاز حكايات الشجاعة تناغي بها الأمهات، سوى أن أم كريم أكثر جلداً، أرادته خارج القرية لينجو من مصير أبيه الذي يترصده الثأر المجهول.

أم سرحان ظنت أن ولدها سينال ثمن أبيه، أفاقت متأخرة فدماء زوجهـــا لا تخـــتلف عن دماء الثيران المنحورة أيام المآتم، تختفي بغسلها في الماء.

رجـــع سرحان إلى بيته شاحب الوجه يرى الظلام في عينيه، يسلك رأسه و قدماه طريقين مختلفين، يلملم حواسه، تشظت روحه بعـــيداً عن جسده الذي أصبح كالخرائب تسكنها الظنون، عيناه لا ترمشـــان، مفتوحـــتان كمـــن فقد بصره، كلمته أمه لم يرد عليها كررت:

- ما بك يا نور عيني؟ ليس جديداً أن يصفعك الإقطاعي. لقد صفع من هو أكبر منك.

انخلع قلب أم سرحان ترى ولدها جسداً متيبساً فارقته الحواس. تناهبتها الهواجس، أخذت تبخره، تحرق له الحرمل، تبسمل بسورة الفلق، لطمت خديها، صرخت في وجهه:

- ولدي... ولدي.

احتضنها باكياً، ظل ينتحب طويلا، قبّل رأسها، يديها، قدميها:

- سامحيني يا أمي... أعطيتني كل عمرك... عصرت شبابك... تطعمينني بماء وجهك... سأرحل كما فعل كريم في الظلام. لن أدعك ترافقينني إلى حدود القرية كما فعلت أم كريم. سأحمل ساقي رهوان، لن يدركني أحد، سأجلس نجاة على كتفي جائزتي التي أفوز بها عند خط النهاية. أرجوك يا أمي عبثاً تحاولين إعاقتي. لقد فر قلبي كطائرة ورقية في سماء عاصفة يبتعد عن القرية سوى أن خيطها تمسكه نجاة، إن قطعه والدها الوكيل ضعت في الفضاء السحيق.

أصغت أمه فرحة رغم مرارة ما يقول، ولدها أصبح رجلاً يطلب الزواج، سألته:

- أين تحدثت معها؟ كيف لم أشاهدك؟

ابتسم لها:

- لم أحدثها قط.

- ما الذي أعلمك أنها تحبك؟

- رفضت كل من خطبها، كلهم أصدقائي، أعلموني أنها تلقت عقاباً قاسياً من والدها

- ألديك شيء آخر؟

- أنا الفتى الوحيد الذي إن صادفتني في الطريق ترفع رأسها وترنو إلي.

- إذن هـــي تحـــبك فعلاً، لكني أشك أن هذا يكفي لكي تجلل عائلتها بالعار وتهرب معك.

- سيكون طلبي هذا أول محادثة معها وآخرها إن رفضت، لا أفكـــر الآن فـــي هذا يا أمي، أنت التي تعصرين عقلي سأجرعك الهـــوان ألوانـــا بأكثر مما شربته أم كريم الذي أصبح بلسماً لها، أخاف أن تقتلك جرعة زائدة.

طوقته أمه، قبلته، وعلى أذنه تتمتم:

- الهوان... زالت مرارته من زمان... اعتدت مذاقه.

عـــند غروب الشمس تملأ الفتيات جرار الماء، مر سرحان في طـــريق نجاة، رنت له بعينيها. وقف قليلاً يحدق في وجهها، تزداد حمرته، وجهه الشاحب أنبأها:

- أتغادر وتتركني؟

- بـــل تأتين معي، سأنتظرك بعد ساعة قرب البئر، لا تجلبي شيئاً.

خلفها مسرعاً. أمسكت الجرة بصعوبة، أول حديث مع سرحان يطلب منها الفرار معه، ماذا عن أبيها، أخوتها، أمها التي ستنهشها النســـوة إن ظلت حية بعد الضرب الذي ستناله من زوجها، سوف يلبسن عاره على هامة زوجته، كبشاً يجلدونه مرة و يأكلون لحمه أخرى مع أنها أشد منه معارضة لزواج ابنتها من سرحان اليتيم، سيبقى أخوتها زمناً طويلاً لا يرفعون رؤوسهم، لا يتشاجرون مع أحـــد إن أهانهم، ثم يرحلون بعيداً عن القرية يحملون عارهم لدفنه فـــي بقعة مجهولة، لن يأذن الإقطاعي لوالدها بالرحيل ليجعل من فرارها سبباً للمزيد من الخدمة والإذلال، تورم رأسها، أوجعه طرق

أبيها وأخوتها فيما اشتعل قلبها بحرائق سرحان. انزوت في الظلمة صامتة تسمع وجيب أحشائها، تشوى على موقد سرحان ولا تبقى محصورة داخل هذا القبر.

سارعت لأمها ترتجف:

- إذا اخـــترت خدمتكم طول عمري هل تقبلون أن أبقى دون زواج؟ لا أريد أن أتزوج... لا تغصبوني.

ردت أمها تسخر من تفكيرها:

- سيزوجك والدك هذا العام. خمسة خطّاب. سوف يقبل أي واحد منهم ليس من بينهم سرحان.

تأخـــرت نجـــاة، تاهت الظنون بسرحان، عيناه ترصدان بيتها، تومضـــان كعيني طائر ليلي دمعت من شدت التحديق. رآها سواداً يعـــدو، ظلالا في الماء تقترب لرميها بحجر، جاءته روحاً حرة لا تتحمل الأصفاد.

لـــم يدركـــوا غيابها إلا وقت الظهيرة، ظنوها خلف الحاصدين تجمـــع السنابل، بحثوا عنها في القرية حتى المساء. في هذا الوقت ابتعد سرحان ونجاة يحملهما قطار الليل السريع الذي بدا بطيئاً هذه اللـــيلة، مـــن نافذتـــه يدخل ترابه الممزوج برائحة الفولاذ، يلعن سرحان في سره أهالي المحطات الذين يعيقون سيره:

- أســـرع أيهـــا القطار، سيلحق بك المسافرون... أنت هودج عرسي هذه الليلة... أسير في حمايتك... لا تسمح لهم بخطف امرأتي ... أنزوي في عربتك قنبلة موقوتة... أدمر عرباتك... خطوط الحديد ... إن اقـــترب أحد منها... أحفظها داخل أحشائي... عليهم أن يشقوا بطنـــي... يخرجونها لؤلؤة من بطن سمكة... لكني لن أكون ببلاهة الأسماك.

افـــتقدوا ســـرحان أيضاً، اقتيدت والدته للإقطاعي، ضربها أحد أعوانه، استنكر الشيوخ عمله، نهره الإقطاعي:

- جبان.. أتضرب امرأة.

استنطقها الإقطاعي:

- سيقتلونه إن ظفروا به، أين يذهب؟ احقني دم ولدك، أخبرينا عن مكانه، تربية أرملة.

حلفـــت له بكل الأولياء أنها لا تعلم، لم يخبرها عن نواياه لأنها ســـتمنعه، غـــير مصدقة أن يخطف أحد بنت قبيلته، يقطع كلامها النحيب المتواصل، تتبرأ من ولدها.

أمـــر الإقطاعـــي بـــان تصادر حصة سرحان من المحصول وتعطى لوالد نجاة. توسلت أم سرحان:

- ماذا آكل؟

- تخدمين في بيتي وتأكلين أجرك.

تعـــالى الصراخ في بيت نجاة، ركض رجال القرية يسحبون أم نجاة مدماة. استدعى الإقطاعي كل رجال القرية حتى شبابها ذوي الخامسة عشرة، فرّقهم إلى مجاميع من أربعة أشخاص، أعطى من لا يملك بندقية، أمرهم:

- لا تنـــتظروا الصباح، ستجدونهما في الليل، فتشوا القرى، اذهبوا إلى الصحراء، اطلبوهما في كل مكان، سأتكفل المدينة.

عـــاد الفرســـان بعد عدة أيام خائبين، إذ تغلبت عجلات القطار الصغيرة على خيلاء الجياد.

تغير ماء الفرات، يلقون الملح به، مذاقه أصاب الأرض بعسر الهضـــم، تتقـــيؤه ســـبخة. تقلصت مساحات الأراضي الزراعية، يـــزرعونها عاماً ويتركونها آخر. الفلاحون يلعنون الحكومة التي شـــقت قـــنوات البزل لمشاريعها تصب في الفرات، أصابوه بداء

يتضـــاعف كل عام. أهملت بعدها الحكومة مشاريعها الزراعية، تحول موظفوها إلى الورش الصناعية المسقوفة، وجدوها أكثر أنساً وإثـــارة مـــن شمس الحقول الحارقة. ابتعدت المدينة تقفز، يزداد طولهـــا تمـــثالاً وهبه أبرع النحاتين، تتزين بالورود التي ابتاعها البترول الجديد قبل أن يتحول إلى شراء الرصاص.

أعـــود إلى القرية، أجد بيوتها خرائب يسكنها متسولون، أتكلم نصف لغة، رفضني كلا المكانين، لاحظ إسماعيل أوجاعي:

- أنت تدخل في المكان الذي خرجت منه أنا.

- أنـــت طائر في قفص حررته السياسة، أنا لست سجيناً، أنا غريب.

- غريب! وسط كل هؤلاء الذين يحبونك.

- عندكم أجد نفسي قروياً وهناك أتكلم لغتكم.

- أنـــت مناصـــر لـــنا، لماذا لا تنغمس مثلي في السياسة و تـــداوي نفسك؟ كنت في بيت أهلي سجيناً، أحسست أني طليق في السجن.

- كيف ذلك؟

- جســـدي لا يضيق مكانه بالحبس، روحي التي لا تسعها كل أماكن الدنيا إذا ضاقت بي.

- ماذا أعطتك السياسة؟

- لذة التربص والخوف.

- أفي الخوف لذة؟.

- له طعم الشجاعة وعندما يزول له لذة النصر.

- ألم تفكر في الهزيمة ؟.

فوجىء بسؤالي، صمت قليلاً:

- لا، لــم أفكــر بها، رفاقي يحدثوننا عن الآمال التي تنتهي حتماً بالانتصار.

فيما بعد تحققت نبوءة أصحابه المبشرين لكنهم أضاعوا الآمال، أعــادوا روح إسماعيل مقيدة إلى جسده أولاً ثم إلى داخل السجن الــذي لم يشعر أنه طليق فيه هذه المرة، يعيش سقم سيدنا إبراهيم وينــتظره مصــير المســيح. لــم يقطف إسماعيل ثمرة التربص والخوف لكنها أوصلته إلى طريق الأنبياء.

دخل إسماعيل غرفتي التي أتقاسمها مع ثلاثة طلاب آخرين في سكن الطلبة، كنت أتهيأ للنوم، أخذني خارج الغرفة:

- تعال معي الآن.
- كيف دخلت السكن؟ بابه مغلق منذ ثلاث ساعات.
- ألم تعلم أنني أنتظم في العمل السري منذ سنوات.
- أعلم ذلك، لكنني لا أعلم أنهم يعلمونكم اللصوصية.
- اللصوصية عمل مريح إذا قيس بالمخاطر التي نواجهها.
- متى أعود؟

خــذ كتبك معك، لن تنام الليلة، نذهب من هناك إلى المدرسة صباحاً.

إنها ليست ليلة العاشر من محرم.

ربما تكون أكثر دموية.

رفضت الذهاب قائلاً:

- أفصح عن نواياك وإلا ترحل من دوني.
- كريم أرسلني، عندي في البيت.
- كنت تكذب، ألبسك العمل السري ثياب الأبالسة.
- غير صحيح، ألبسني دروع المحاربين أقاتل بها الأبالسة.

تسللنا عبر النوافذ نتسلق سور السكن. وجدت كريم الذي لم أره منذ أن غادر القرية قد قست ملامحه، فارقتها سماحة وجه الفلاح الضحوك. احتضنني، بادرته بالقول:

- أظن أنك قد تركت أخلاقنا على مشارف القرية ليلة فرارك.

- لم أتركها، أحياناً أضعها جانباً وإلا هلكت.

- علموك هذا في العسكرية؟

- لا، في السياسة.

- عجيب، إنه أسلوب مناسب لإقناعي.

أشرق الصباح، يلقي في عيوننا ضياء جديداً، حزمة شعاع جمعته المجرات من ضياء عيوننا الشاخصة لها دائماً تنتظر أن يستقيم محور فلكها المائل.

أصابتني العدوى، أمسك خيط النهاية بيدي، أقطّعه، لم يعد سميكاً كما برمه وجدله الباشا، يقرضه رفاقي كالجرذان، يعدونه لتكبيل الباشا متناسين أن قطع الحبال الصغيرة لا يمكن أن توثق ثوراً. غيظي لم يهدأ على كريم طوال الجلسة، مر وقت طويل لم يرسل لي رسالة. دكان الحاج عبد الواحد يستقبل يومياً عشرات الرسائل لأهالي القرى، جنود، طلبة، هاربون، عمال، قلبه خزانة حديد تتجمع فيها أصوات الناس المبحوحة، وجيب قلوبهم، توسلاتهم، بكاؤهم المكتوم، خزانة لا تدخر النقود، ليس فيها غير أوراق الحزن يقرأها وجهه البشوش قصائد أعراس.

بدا المتحدث متحفظاً قليلاً، سمعته يوبخ كريم الذي ذكر أنه يعرفني، لكن إسماعيل هو من دعاني للحضور. استأذنت في الانصراف، رفض ذلك، كان يعرف الحاضرين عداي. تحدث عن الظروف الجديدة التي أنشأتها الانتخابات، نهوض الناس الفجائي

يطاردون الثيران في الشوارع مخلفين المصارعين يجرون خلفهم. كرر قائلاً:

- لابد أن نسبق الناس، نضبط الشارع.

ظل هذا الإيجاز الأول ملتصقاً في أذني كلما رأيت الثيران تبتعد وسيوف المصارعين تنغرس في الناس. استمر يؤكد على التنظيم:

- هل تنتصر بلاد دون جيش؟

امتعض لإضافتي:

- كم هي المرات التي حاربت فيها الجيوش على حدود البلاد؟

أمرني ألا أتكلم دون إذنه، تابع:

- أولى لبنات التنظيم نرسيها في الغرف السرية، طابوقها ليس من الآجر إنما من الحديد الذي لا يخترقه الرصاص. التنظيم جيشكم نضع شعاره (لا تراجع) على جباهنا.

أخذ يثير نخوتنا، يذكرنا بأسلافنا الذين دحروا المغول مع أننا لا نتذكر غير هزائمنا منهم، يمنينا بالجلوس على إرثهم، بتقاسم غنائمهم. وقبل نهاية الجلسة أذن لنا بسؤاله، تكلم قبلي الحاضرون، أثنوا على براعته في الشرح، وصفه أحدهم بالطبيب الذي يحمل الدواء الناجع لأمراض العصر. سألته:

- لماذا نتحدث عن الحديد في الغرف السرية؟

احتج الحاضرون جميعاً، انبرى لي أحدهم:

- عبد القادر..

أسكته المسؤول محذراً:

- لا تذكر اسمه الحقيقي... دعونا نعطه اسماً حركياً... ثائر...

- يبدو أن ثائر ممن ينتمون للطبقات الطفيلية التي تعيش على هامش الأحداث.

أوقفته محتجاً:

- أنا ابن فلاح، ما زلت طالباً.

تدخل إسماعيل يخفف من اشتباكنا:

- لاهذا ولا ذاك. ثائر يقرأ كتب الوجوديين..

قاطعه المسؤول:

- هذه الكتب تبشر بالفردية... سوف تسمم أفكارك... لكي ننتصر لا بد من الجماعة... اتركها.

لهجة المسؤول تنبئ أنه من مدينة كبيرة، أجبته:

- لا أرى فيها عيباً، مبضع جراح ماهر يشق أورام الجسد، يتركها مفتوحة، ينتقل إلى الذات، يلامسها بأحزان لذيذة كما في المواكب الحسينية.

غضب الرجل:

- أنت تحلم، بل تهذي، آن للحلم أن يستيقظ لذات مستغرقة في النوم خدرها عقار الوجوديين.

- لكنهم مثلكم يحاربون الطغاة.

- يحاربون من أجل ذاتهم لا من أجل المجتمع، اتركوا الذات لكي نكون جماعة.

منهيا الجلسة، قبل أن يغادر سألته:

- في المكتبات لا توجد كتب ثقافية أفضل من التي اعترضت عليها.

- سأبعث لك مع كريم بمجموعة كتب أريد أن تعرضها ملخصة في جلسات متباعدة مع ذكر النتائج التي تتواءم ونضالاتنا، اقرأها في بيت إسماعيل، لا تأخذها إلى سكن الطلبة، سوف

تحـــررك هذه الكتب من الوجودية، إنها ممنوعة، عقابها قاس جداً، يطردونك من الدراسة إن علموا بها.

اقشـــعرّ بدنــــي خوفاً... الدراسة أثمن من روحي... المكان الذي أرسلني والدي لأفتح به عينيه... لا يهم، الجماعة أغلى من أهالينا. بعد أن سرت سنين في دروبها عرفت أن الجماعة يقودها فرد.

انفردت بكريم أكتم غيظي، بادرني مبتسماً:

- إنــــه قـــانون الجماعـــة الذي فصلني عنك، أسير عليه منذ ســـنوات، أمـــي بنت الريف، فرس الحقول تسكن الآن في مخابئ ســـرية معتمة، تخرج قليلاً كي ترى الشمس، كفت عن سؤالها لي بالزواج قائلة:

- الأم تتحمل هكذا عيش! أشك أن تفعل الزوجة. إنها لا تفهم ما يجري حولها، أرسلوها بمهام حزبية دون أن تدرك ما تقوم به، رغـــم خوفـــنا لم تطلب مني الانسحاب من الجماعة، تراهم بمثابة عشـــيرة أنتمـــي إليها، لا يجوز التخلي وإلا فقدت شرفي مما أثار اســـتغراب رفاقي الذين يتعرضون لضغوط عوائلهم العمالية بترك العمل السياسي، قاطعت كريم:

- اذكر لي أولا سبب هروبك المتكرر مني ثم قل ما تريد.

- أتنقل متخفياً.

- هل هربت من العسكرية؟

- مـــن الشـــعبة السياسية لدائرة الأمن المدني و من الشرطة العســـكرية، لـــو علمـــت الجماعـــة باعترافـــي هذا لك ستعاقبني انضـــباطياً، ممـــنوع ذكر ذلك، أنت نصفي النقي الذي تركته في القرية، أراك لم تتغير كثيراً، رغم تعليمك فلا تزال قروياً. لا تخبر أي أحـــد بلقائي بك، حتى ياسين وفرحان، إن علمت أجهزة الأمن سيعرضـــونك للتعذيب المريع، بما أنك لم ترني غير هذه الليلة ولا

تعرف تفاصيل نشاطي الحزبي فربما تموت بطلاً بسبب صمودك.
على ذكر فرحان سمعت أنه أصيب بطلق ناري، أين مكان جرحه؟

– كسرت يده، لم تعد صالحة، لكن عطب قلبه أشد كما لو أن الرصاصة أصابته.

واصل كريم حديثه:

– أنا نفسي الآن وسيلة إيضاح لدرس جلستك الأولى.

– الجماعة والفرد.

– ربما أجد مثلك من يتفهم مأزقي، لكن كيف لي أن أشرح هروبي من الحاج عبد الواحد صاحب الدكان الذي أدين له بجزء من حياتي وحياة أمي؟ ناداني ليلة الضجيج كما فعلت أنت، لو كان الأمر يخصني وحدي لاحتضنته وقبلت رأسه غير عابئ بالمخاطر، علي أن أكون حلقة مربوطة جيداً بسلسلة الجماعة التي تلتف حول عنق الباشا، استطاع أن يلتقط حلقة كبيرة طاردنا بها.

– خانكم أحد رفاقكم.

– قبضوا عليه بسبب تراخي حذره. إنه يفتك بنا الآن بأكثر مما فتكت آلات التعذيب. تصور أنه اعترف على أمي، مدون في صحيفتها السرية لدى الشعبة السياسية أنها أخطر من يتنكر من السياسيين وأوسعهم دهاء، ينتابني الحزن كلما تخيلت الحاج عبد الواحد صاحب الدكان يحدث نفسه: أهذا جزاء الإحسان؟ ربما يتردد في فعل الخير مع غيري بعد أن جحدته. يكدرني أيضاً أن والدتي استلفت منه قبل التحاقها بي ستة دنانير لم نسددها له. طلبت من الجماعة إرسالها له بالبريد أو بيد شخص مجهول لكنهم رفضوا خوفاً عليه، متعللين بفطرته، ربما تقوده الإشادة بي إلى سجون الشعبة السياسية، دعه يخسر الدنانير الستة إلى حين، فهذا أهون من خسرانه حياته وماله. جادلتهم: إنها ليست الدنانير

الستة،إنها كلمة شرف. ردوا علي: سوف يسامحك لاحقاً، قل لوالدتك أن تدعو له لزيادة رزقه، إنها الوحيدة التي تصلي بيننا. أعيش طريداً مع أمي لكني غير خائف مثلما كنت طليقاً أيام القرية، أحس بوجودي فرداً في جيش يحميني، يقاتلون أمامي وخلفي عكس ما كنته في الجيش النظامي يتركني زملائي هاربين في المناورات. الجماعة أكثر من ساعد، أكثر من قلب يخفق في صدرك، تستضيفني البيوت ابناً عزيزاً، عتبات بعضها من الطين وأخرى من الرخام تصافحني باشتياق الحبيب العائد، لا يتذمرون من طول إقامتي المجانية، أجد كل هذا العالم البهي تحت الأرض في البيوت السرية، ما إن تحط قدماي فوق الأرض حتى تبدأ سلسلة المطاردات كالطائر الذي يعميه النور ويبصره الظلام. أصعد في الليل إلى سطوح المنازل أبحث عن ضياء النجم القطبي، أمشي على درب التبانة، ألتقي بك وبياسين و فرحان نجمع التبن في شوالات كبيرة خفيفة الوزن لاتستقر على ظهور الحمير، تقلبها نسمة ريح خفيفة، صارت السماء مكان موعدي الذي ألتقي فيه بكم، تعرج روحي إلى حيث كنا نراقب دوران النجوم، نعد منازل الرعد والأمطار. في ليلة النوروز، أضع ثلاث باقات من الحشائش لكم قرباناً لدورة الأفلاك، عدا أنني لم أعد أنتظر التغيير من تبدل أفلاك المجرات، إنما من تراب هذه الأرض التي توقف الفرات عن تسميدها بالغرين تطلب الآن دماءنا سماداً. تضايقني أضواء المصابيح كالقيح صفراء تلتصق على قماش السماء، تسد علي طريق النجوم، ابتعت مقلاعاً صغيراً أرميها به، أفتح كوّة أطل منها عليكم. أين ما ذهبت أحمل في وجداني القرية، ناسها، ترابها، حيواناتها، سواقيها. في الأيام الأولى لعملي السياسي كدت أن أتضارب بالأيدي داخل الحلقات التنظيمية بسبب الفلاحين الذين

يحملون راياتهم ويهزؤون منهم في آن واحد، في كل الأماكن الأشد فقــراً التــي رأيــتها لــم أر ظلماً وجوعاً مثلما يقع على جموع الفلاحيــن، أحــيانا أنتصــر لذاتي، أفكر في ترك التنظيم، أتراجع بسبب هؤلاء الضحايا المنسيين، لحومهم على قارعة الطريق تؤخذ بالمجــان. والدتــي تثير إعجابي وحنقي، لقد كرهت القرية، ناسها وترابها وهي التي أفنت عمرها بينهم، تدعو لهم بالهلاك، أثور في وجهها ترد:

- هــل يوجــد بيــنهم واحد مثل الحاج عبد الواحد صاحب الدكان؟

أطأطــئ رأســي خجــلاً من الحاج عبد الواحد... محسناً يأخذ كبريائي.

قلبــي طائــر لا ينفصــل عن سربه حتى لو صادفته وأطعمته الطيور الأخرى العطوفة، يظل يواصل طيرانه، يعود لموطنه بعد طــول غــربة، لا يستبدله بكل طعام الحقول الخضراء المضيافة ومياهها الدافئة، أقول لأمي:

- أهلي بقوا في القرية التي لابد أن أعود إليها يوماً، أنت فقط الفرد الوحيد الذي رافقني.

تغضب بشدة :

- من أطعمك أو آواك من بيوت القرية؟ أنشأتك من ذلّي.

تصم آذانها لقولي:

- جمــيعهم مــثل حالــنا يا أمي، جمهرة من الجياع تقضم عظامها.

أتوقــف عــن الحديــث، تذكرني بليالي الشقاء الطويلة الباردة تقضــيها تطحــن علــى الــرحى، دوران قرص الرحى كبندول مغناطيس يسحبها للنوم، تغلق عينيها، تشهق مستيقظة، فجوعنا أشد

ثقـــلا من نعاس الرحى، تعض على شفتيها، تضرب برأسها مقبض الرحى، يغادر الليل عاشقاً أحبته، رفضت دعوته إلى فراشه الوثير، تناجـــيه فـــي أغاني الأنين الخافته، تطحن بعض روحها مع حبات القمح المنسحقة.

فـــي الصـــباح تأخذ الطحين إلى أهله، يعطونها منه ملء اليد، تعمـــل مـــنها أرغفة تكفي ليوم واحد. نهارها ينقضي منكبة على خيوط الغزل، تفردها لنسج السجاجيد، ألوان المصبغة لا تتشابه في كثافـــتها، تـــزوغ عيـــناها بحثاً عن خيوط اللون الواحد مثقلة بألم الســـهاد. قبل الغروب بقليل تغفو متكورة كمن ينحني على مقبض رحى أو يفتش عن خيوط مختفية.

أوقظها جائعاً، أتعجلها، تجيبني:

- لست أسرع من النار.

فرّقت بيننا المدينة، أمي سعيدة بحالة الترف التي تعيشها، يأتيها الخبز جاهزاً مع أنواع الطعام و أحياناً الفاكهة التي لا عهد لها بها في القرية، تنام بيننا السنون المنصرمة، أنا أحن إلى الرغيف الحار الذي تخلف في القرية، أجده أكثر لذة من كل الموائد وأمي ترفض ذلك الرغيف المغموس بالإذلال.

شـــغلتنا مـــراجعة الـــدروس استعداداً للامتحانات عن الاهتمام بالسياسة، تم توزيع الشهادات عصراً، مدرستنا تقع في أول المدينة علـــى شـــارعها الرئيسي، تنحدر البيوت أسفلها، نجحنا، إسماعيل وجعفـــر خطفا شهادتيهما، يجريان إلى بيتيهما، جعفر البدين سبق إسماعيل مؤكدا حكاية السلحفاة والأرنب للذين لم يصدقوها.

مشـــيت ببطء أنوي الوصول إلى مكان تجمع السيارات الذاهبة إلـــى القرى، الناس تجلس أمام بيوتها، افترشوا الرصيف واضعين

أواني الشاي والكيك والشربت يوزعونها على الناجحين، الراسبون يسلكون الطرق الفرعية. استوقفني شخص لا أعرفه، سألني:

- تشجع يا بني، إن شاء الله ستنجح العام القادم.

- يا عم أنا ناجح، هاك شهادتي.

احتضنني الرجل، قبلني مثل ابن له، صاح على امرأته:

- إنه الأول... ناجح الأول.

زغــردت امرأته، أحضرت لي الكيك والشربت. أجلسني قربه يمسك بشهادتي يريها للجيران والمارة. أعطاني قطعاً نقدية ابتعت فيها خضراوات وفاكهة لعائلتي.

اشــتقت لأهلــي لــم أزرهم في عطلة نهاية الأسبوع مؤخراً. أخبرت والدي بنجاحي قال:

- هذا خبر طيب.

- نجحت الأول.

لم يزد على ما قاله ففي أيام التعب المضني يأسف لإرسالي إلى المدارس.

الأيام الأولى بعد انتهاء الدراسة ممتعة لي في الريف تتصادف مع انتهاء موسم الحبوب، بيوت الناس ممتلئة، يفرقون بعضها على حفلات الزواج والقرابين لأولياء الله، ينشغل الفلاحون بيومهم فقط. لــيس عــندهم غد ولا ماض، بعد أسابيع تنفذ خباياهم، تفر قلوبهم فارغة كفؤاد أم موسى سوى أن موسى لم يأخذه اليم، لا يزال بين يدي أمه التي لا تستطيع إرضاعه.

تســتمر أيــام الــبطالة الطويلة نصف عام، يعصرون يوماً ويغــاثون آخر، تلك من أسرار الله التي لم يدركها البشر أن يبقى هؤلاء الناس أحياء. توقف موسم الذرة الصيفي فالفرات عليل، لا يقــوى علــى ري أراضــي القمــح في الشتاء ومزارع الذرة في

الصيف، يعمل بنصف دوام، فقدت طيور القمري فيئها بين عرانيس الــذرة المتدلية كالضروع، هاجرت لبساتين النخيل البعيدة يمتص مــنقارها رحــيق التمر. بغيابها تضاعف جوع الفلاحين، يفتقدون سماع هديلها الحزين كأنما تنعي نفسها قبل الذبح.

تتخلل أيام الجوع القاسي مساءات سارة حيث يكون هواء القرية عذباً في ليالي الصيف، يقصده بعض موظفي الحكومة الكبار هرباً مــن نفس المدينة الخانق، يحلون ضيوفاً لدى الإقطاعي، يأتون بعد غــروب الشمس بلا موعد، كما هم ضيوف القرية دائماً لهم مكان في كل بيت وفي أي ساعة. يرسل الإقطاعي اثنين من رجاله على ظهــور الخيل يجلبان الذبائح من المراعي التي تبعد قليلاً، يستمر طهو الطعام إلى منتصف الليل، يوجع الجوع الفلاحين المنتظرين الذين ألفوا أكل طعامهم عند الغروب، الماء البارد يزيد من استيقاظ أمعائهم، أفواه جائعة تحسبه نذيراً يملؤها، يمر عليها كسراب تتلفت خلفه، تتحرك أمعاء الضيوف الذين لا يتحرجون من الإعلان عن جوعهــم والذيــن عــادة يكونون نهمين، الأمر الذي لا يفعله أهل القرى إن نسيهم المضيفون.

أرســل الإقطاعــي الرسل تلو الرسل يحث الطهاة من نسائه، ينذرهــن بالضــرب و الطــلاق، ســكبن بقايا الكيروسين، جلبن الأخشــاب المدخــرة للشتاء لإنضاج اللحم الذي فقد علفه الصيفي الأخضــر مكتفــيا بحــبات الشعير القليلة المخلوطة بأكوام التبن، يصرخ أحد أعوان الإقطاعي:

- انهضوا ننقل الطعام.

يهــب الجالســون عدواً، أولاد الفلاحين يلعبون قرب المجلس منتظرين الطعام، يتركون أحدهم عيناً يصرخ هو الآخر:

- شالوا الصحن.

فـــتات صـــحون الضيوف يتسابق عليها الكبار تاركين أولادهم يتصارعون على العظام كالكلاب.

يـــبدأ يومـــنا الصيفي بالاستيقاظ مبكرين، يتقاطر الرجال على مســـارات تشـــبه طـــرق الـــنمل، يحملون هواجسهم إلى مضيف الإقطاعي.

الفصل الثاني

في يوم من أيام تموز الشديدة الحرارة التقينا عدداً من الفلاحين عائدين من مضيف الإقطاعي، أخبرونا أن صاحب المضيف معتكف في داره والمضيف خال، القهوجي لم يعد الشاي والقهوة كعادته، أرسل له الإقطاعي أحد إخوته، بدا عصبياً، يمنعه من إعداد المضيف الذي لم يغلق في وجه الناس منذ إنشائه، يلوذون به في خصوماتهم، يجدونه بيتا يؤدب أولاده حد الظلم، ثابروا على التوافد عليه يتضرعون له بقدسية المزارات وخوف المحاكم، ما الذي جعل الإقطاعي يغلقه هذا اليوم؟ لم يسبق أن فعلها من قبل سواء في سفره أو موت أحد من عائلته.

القهوجي يقول إنه وجدهم ينصتون إلى الراديو مطأطئي الرؤوس، وجوههم ممتقعة، طردوه وهو الذي تربى منذ صغره في بيتهم، أعوان الإقطاعي أكثر حيرة:

- ربما مات الباشا.

– لو حدث ذلك لجمعنا نطلق النار و ندبك.

– لسارع إلى العاصمة يذرف الدموع.

في ذلك اليوم توقف دمع الإقطاعي في عينيه يحجب بصره، يمسك بيد إخوته، بان جبن المتجبرين عميقاً، يرى كل جمجمة فصلها تحرس مدخلا له للعالم الآخر، تذكر الراقصة بديعة، شفتاها الحمراوان مفتوحتان تقتربان منه تومئ إلى يهوذا:

– لقد تخلصوا من ابن الله بقبلة.

يسألهم:

– هل حل الظلام ؟

– إنها الساعة العاشرة صباحاً.

حملت له والدته الفطور:

– أظنك جائعاً الآن ؟

شتمها، أوصد الباب خلفها. جاء جمع من أعوانه يتقدمهم الوكيل، خرج لهم أحد إخوته مصوباً بندقية نحوهم، أمرهم بالانصراف، تراجعوا مذهولين ثم طرد إخوته، أغلق باب غرفته يستمع وحيداً للراديو الذي ظل ممسكاً بالإزميل على أذنه يدقه بأثقل المطارق، عروقه النافرة شقوق تنتشر داخل رأسه، لا يسمع غير طنين الأرواح، لم يذهب ضحاياه إلى العالم الآخر، أجسادهم قربه نائمة وأرواحهم تكلمه الآن، لا يستطيع تمييزهم لكثرتهم عدا بديعة، غرامه الوحيد ترقص أمامه رقصة الموت، جسدها أفعى تتلوى، تبتسم له، يرى نابها الأسفل المغلف برقائق الذهب مخروماً يسيل اللعاب منه.

الـــراديو... صوت الحشر يوقظ الموتى لقتل جلاد يهم قبل يوم الحساب، استكان حملاً صغيراً يرى الذئاب تمزق أمه، تأكلها، تحيط به، ستلتقمه متى ما جاءت.

همَّ بكسر الراديو، أوقفه نداء الحشر الذي يوقظ مزيداً من أجيال الموتى يستبدلون بمكانهم جثثاً لا تسعها قبورهم الضيقة.

(لا زال الباشا طليقاً) نذر نصف قطيعه يفدي به إخوته وعياله.

وشى الفرات الذي ثار رغم الصيهود بالباشا، أعاده إلى الضفة الأخـــرى ينـــتظر حـــتفه، ســـمع الإقطاعي طرقاً على بابه، شتم الطارق، جاء صوت أمه:

- أحمل قنديلاً، الدنيا ظلام.

يلوح له ضوء الراديو الخافت نجمة في سواد السماء، تضطرب المـــرأة، عزرائيل يصطحب معه عدداً من ضحاياه، أدخل القنديل، ينطفـــئ ضياؤه في عينيه، يستحم في عرقه، ينتفض جسده بردان تتناوب عليه الفصول، توقفه عارياً على صفيح ساخن ثم تلقيه بين أكـــوام الثلوج يطفئ حره وبرده بجرار الماء، ما لهذا الماء يغلق زوره، يغـــص فـــي ازدراده كأنما الفرات أرسله ليكتم أنفاسه. في أواخـــر الليل صعد إلى سطح داره، أغلقت ظلمة الكون من حوله طريق النجوم، ينظر إلى نور الراديو الأحمر الخافت يهتدي به إلى طريق الجحيم.

في ظهر ذلك اليوم علمنا بعض تفاصيل ما جرى من العائدين الذين ذهبوا للتسوق من المدينة، وجدوا الأسواق مقفلة عدا المقاهي المكتظة بالناس، أغلبهم واقف يستمع لصوت الراديو. كادت بعض

المشاجرات تؤدي إلى التضارب بالأيدي لولا تدخل صاحب المقهى الذي أقفل الراديو:

- اخرسوا جميعاً وإلا أبقيت الراديو مغلقاً.

صمتوا ثم عادوا يصرخون، يخرجون النار المدفونة زمناً طويلاً، يشعلها صوت الراديو، يصنع منهم حمماً نارية تسيل على الشوارع، توقف مرور المركبات. الحكومة هجرها رجالها يتحولون إلى كائنات، يعجبون لهذه الأجساد الضئيلة الخامدة في سبات طويل كيف أفاقت فجأة تحمل قوة البراكين وخطرها.

سألنا العائدين عن وجود كل هذه البضائع الكثيرة معهم إن كانت الأسواق مقفلة.أخبرونا أنها هبات مجانية من بيوت الناس:

- ألم تكن مسروقة من مخازن الحكومة ؟

- المخازن لم يلمسها أحد، مقفلة بلا حراسة.

صوت الراديو يوعظ اللصوص ليس بالتوبة إنما بالعقاب:

- لماذا لم تعودوا مبكرين؟

- أردنا الرجوع، أخذنا الخوف لكن السائق تركنا يجري ينضم إلى الشارع يهذي بكلام لا نفهمه، ترفعه الناس على أكتافها، ملابسه المتسخة تستقر على ياقات القمصان البيضاء، نزلنا من السيارة، نعود راجلين، التقانا جمع يدبك، صفقوا لنا، حملونا على أعناقهم رفعوا (عقالنا) راية، خجلنا للحظات ثم رمينا (اليشماغ) أيضاً.

- يسخرون منكم؟ أليس كذلك ؟

- غير صحيح، قالوا لنا إننا أخوة لا فرق بيننا، الراديو أعطانا المساواة.

- عجيب! من الذي كان يسخر منا غير أهل المدينة؟

تلفت المتحدث وجلاً، قال بصوت خافت.

- داسوا على صور الباشا، يشتمون الإقطاعيين علناً، انقلبت الدنيا.

فتح محدثنا حمولته، فرّق بعضها:

- خذوا، جاءنا الخير ببلاش.

تخاطفنا الحاجيات غير مصدقين أن يعطي أحد شيئاً جلبه من المدينة التي لا تتعامل إلا بالنقود. وجه محدثنا الأسمر الملوح بالشمس يعيد أشعتها بيضاء، يسطع فرحاً، استقبل بترحاب في المدينة لم يحصل عليه الإقطاعي أيام مجده. أخرج كيساً من الحلوى الجافة نثرها على رؤوس الحاضرين. سأله أحدهم:

- يرحم أبوك، أنت لا تفهم ما يقوله الراديو، ربما تردد مقلباً استغفلك به أهل المدينة، اسكت وإلا بطش بك الإقطاعي، راديو الحكومة يشتم أحدهم.

- ليس راديو الحكومة، توقعت تكذيبكم لي، وجدت الحاج عبد الواحد صاحب الدكان في المقهى هو الذي يسمع ويخبرني، يصفق مع الحضور، رأيته يرقص، ضحك من استغرابي:

- اليوم كل شيء حلال حتى الرقص لحجاج بيت الله.

أخذنا إلى بيته مع أصحابي، أكرمنا الجيران بالهدايا التي أحملها أمامكم، أحضر لنا باصاً دفع أجرته، حملنا تحياته لكم:

- سارعوا بالبشرى لإخوانكم، ادعوهم غدا للمجيء إلى المدينة.

تسرب النبأ إلى أعوان الإقطاعي قبل وصوله إلى الفلاحين، استأجر أحدهم تاكسي عائداً، ذهب إلى بيت الإقطاعي الذي ظل موصداً حتى عن الأعوان هذه المرة، أخذهم الخوف، يلوم بعضهم بعضاً، يبحثون عن القليل من القوة، عبيداً سلبها منهم السيد. سهر الجميع تلك الليلة، الفلاحون ينتظرون غدهم الموعود على يد الحاج عبد الواحد صاحب الدكان، يستلقون بعد وقوفهم الدائم على أنعم الفراش. الإقطاعي وأعوانه يتناوبون الوقوف والجلوس، توخزهم الرماح.

تطوع أصحاب الباصات ينقلون الناس من القرى مجاناً. يعطرون سياراتهم التي خلت هذه المرة من فضلات الأغنام والدجاج، تتسابق نفوس الفلاحين مع أجسادهم إلى ساحة السراي في المدينة، أوقعهم خطر الفرح في الجداول الضيقة، يعمدهم ماء الفرات كأطفال حديثي الولادة خرجوا إلى الدنيا يتوضؤون فرحين لخروجهم من بطون أمهاتهم المظلمة. ليتهم لم يكبروا بعد ذلك إذ فقدوا طهارتهم وأغاظوا الفرات، كف ماؤه الممزوج بخطاياهم عن التعميد، وحين أدرك أنهم لن يتوقفوا عن تدنيسه صبغهم بالدماء، لو علموا أنهم في النهاية بخروجهم هذا سيفقدون ضرع الفرات... الأم التي أرضعتهم منذ أيام آدم، لما ذهبوا يتسابقون، لكن لجذل القامة إغراء، وقفت بأعلى طولها تستقيم عن انحنائها دهوراً تحت مداس الإقطاعي.

التصقوا بالباصات، في الداخل، على الجوانب والسطوح يستبدلون ألحان أغانيهم الحزينة التي تفرض الصمت والحسرة بأخرى قصيرة راقصة يرافقها وقع الأيدي. حتى الناي نسخ لوعته الأبدية، نبذ بكاء الرعاة، استسلم لنفخ أهواء أصحابه يرتل نشيد المزامير، يمس شغاف قلوبهم. تتلوى السيارة راقصة يقودها إيقاع

جعل قلبها الفولاذي يلين تحمل قلوب الفلاحين البكر المقطوفة من حصـــاد هذه السنة، تنبعث منها رائحة المزارع عطراً يلتصق على جـــدران السيارة، سائقها العبوس دائما يصفق معهم، يترك مقودها تـــتهادى فـــي المنعطفات هودج أعراس جماعية رأت أن طريق عرسها طويل، تستحث الناقة التي أبت أن توصلهم سريعاً دون أن تمتع نظرها بهذا الحسن الباهر.

يتكاثر ركاب الباصات كلما مروا على قرية، جلسوا على مقدمة السيارة يحتفلون بالسائق كقديس يحمل لهم الجنة، أعطوا ما حملوه لـــه، ليس قرباناً ولا ثمناً لبضاعة، إنما عربون لاصطفائه لهم في ذلك اليوم غير عابئ بلوائح المرور التي كانت تضطرهم سابقاً أن يتركوا سطح الباص قبل مدخل المدينة بقليل ليكملوا طريقهم سيراً على الأقدام، آه... ما أحلى عدم وجود الحكومة، أصبح الناس أكثر رأفـــة. من أين استمدت حيلتها؟ أيعقل أن يكون غبي بهذا الدهاء، يوقـــد الفتـــن ويبنـــي السجون ويترك الناس جوعى؟ قائد فرضته الأقـــدار يقودنـــا إلـــى الحروب منزوعي السلاح، لا يتزحزح عن كرســـيه الـــذي دهنه بالمبيدات لكي يقتل دابة الأرض التي أكلت عصا سليمان.

نرى الحكومة اليوم جسداً خرجت منه روحه، يجره الناس في الشوارع، يتقطع أشلاء صغيرة يلقونها في القمامة، رائحتها النتنة تـــزكم الأنـــوف، يزيلونها برائحة الأماني الزكية، يسكر عطرها كخمر مجاني قبل أن يكبر إثمه.

اقـــترب الباص من مدخل المدينة، شاهدوا الأهالي متجمهرين يلوحـــون لهـــم، بادلوهم التحية عن بعد، أحذ السائق يزمر ويعمل ألحاناً، يرافقونه بالتصفيق كما في الأعراس، كاد البعض أن يسقط مـــن أعلى السيارة، يطلبون الوثوب لمعانقة مستقبليهم، تلمع المدينة

في عيونهم اليوم بضياءات بهية، ليست من مصابيحها المتقيحة بل مـــن سطوع وجوه أهاليها، خلفهم تظهر بيوتهم كديكورات مسرح ينـــتظر بدء العروض، يختلط فيه النظارة بالممثلين. تناثرت عليهم الحلـــوى عـــند مدخـــل المدينة ينظرون لهم كأنهم آية خرجت من الكهوف فيما هم يبحثون عن أسباطهم في وجوه الناس.

يضج ليل الإقطاعي، يغترف سواد هواجسه من ولوج الظلام، تقرحـــت عيناه من طول زوغانهما، ألفاهما كقلبه المدمى سوى أن قلـــبه يعـــدو بعـــنف وهما واقفتان، نفذت بطاريات الراديو، أعاد استبدالها بأخرى جديدة، تقارير الإذاعات تقرأ على مسامعه أحكام إعدام متتالية، أسر له أحد إخوانه:

– سيقتلك شراب سم الراديو، اقفله، لنبتهل إلى الله ألا يبطشوا بنا. أعواننا كثر و سلاحنا أفضل مما لديهم.

– لـــيس الفلاحون من يقض مضجعي. أخشى المدينة التي تملك السجون.

ســـكنت الإقطاعـــي أرواح تنسخ ما تبقى من عقله، تتعجل له القصـــاص، يـــتعرى أمامها، تلبسه أثواب الخزي الموشى بأنامل بديعة المخضبة.

لـــم يعد الفلاحون الذين ذهبوا إلى المدينة صباح اليوم، ساورته الشـــكوك، أيقـــن أن أفـــندية المدينة ينقلون بغضهم له كالوباء إلى صدور الفلاحين الذين سيعرضون عنه زمناً لا يطول. ربما يسمع طنين بعوضهم لرؤية أنوار المدينة ثم يتصالح معهم إذ إن الفقراء يصدقون دائما بنات آوى في التوبة، لكن الذين سحلوا الباشا، ذئب الســـهوب والجبال، قبضوا قبله على كل بنات آوى وهو ليس إلا أنثى صغيرة لابن عرس لا تملك البقاء إلا بالحيلة التي هي أمضى

مـــن كـــل بنادق أخوته وأعوانه بعد أن توقفت مدافع الباشا تطلق التحيات للأمراء الجدد.

أخـــذت الحيلة تمد له الجسور والقناطر، أعادت له بصره، كفت عيـــناه عن الزوغان، أقفل الراديو. فجأة وجد نفسه في ليلة قمرها مكتمل يضيء ظلام ذاكرته.

غـــداً عليه أن ينهي العزاء في اليوم الثالث بوليمة يفرشها لهم كمـــائدة بنـــي إسرائيل تقودهم إلى الضلال، يعبدونها من دون الله ليتيهوا بعدها في الصحاري. كلم نفسه:

– الأرض وسيلتي وغايتي.

تتحاور أفكاره:

– بهـــا أصـــبحت نائبا في البرلمان، دفنت جرائمي بباطنها، بذهابهـــا لـــن أجد حتى قبراً... الماء... ذهب المصريين المسروق احـــتال علـــيه السـامري فـــي غفلة من سيدنا موسى، سأكون أنا السامري ومضخات الري التي أملكها هي الذهب الذي دفعت ثمنه للمصـــريين، ربمـــا يأخذ أفندية المدينة الأرض مني لكن عطشها ســـوف يعـــيدها لـــي، حياتها تسير تحت الماء، أسلبه غصباً عن الفـــرات، عـــدوي الأشد خطورة من جموع الأميين، يرسل الطمي يسد به فوهات المضخات، أفتحها مدافع مصوبة إلى صدره يهدر على مدار اليوم، تتدفق دماؤه مستسلمة. لا يكف عن الحيلة، يسخر منـــي، تغـــيض مياهه مخلفاً فتحات المضخات تطحن الهواء، أمد سلماً بينه وبينها يرخي درجاته قبل السقوط، لست مهتماً بأصدقائه الأميين، ثيران هائجة أعماها العطش سرعان ما تقع في الحفر التي ســـأموهها جيداً. لو فهموا نطق الفرات لكان هلاكي، إنهم أبداً لن يفهموا ككل الأبناء الذين ملأوا قلوب آبائهم بالغيظ.

أراهن على حماقة الأبناء، أقايض الأرض منهم بسراب المياه.

سـراي الحكومة ما زال مغلقاً، أمامه في الساحة احتشد الناس، أهل المدينة جميعا بنسائهم وشيوخهم مع القادمين الجدد من الريف لا يـنقطع تصفيقهم وغناؤهم يختلط صوت الفلاح الريفي الرفيع العالي النبرة مع غناء المدينة الحماسي المتقطع.

اتسـعت الساحة لكل الناس، أصبح لهم متسع في كل الشوارع والساحات.

كنـت راكـباً فـي باص الفلاحين، عند نزولنا أعياني وقوفهم بانتظام، أوضحت لهم فائدة السير كتلة واحدة:

- لا نفقد أحداً في الزحام ونعلن عن حضورنا.

كتبت بعض الشعارات، تذكرت أن لا أحد يقرأ. لقنتهم بعضها، وجدوا صعوبة في اللفظ، غيرت من مفرداتها.

مـرّ عليـنا بعضـهم يوزعـون مسرعين شعارات طلبوا منا تـرديدها، وجدتهـا لا تتشابه في المضامين بل نصوص بعضها مضاد للآخر. أخذتني الحيرة، لمحت إسماعيل يجري يوزع مثلها، ناديته أعطاني واحدة:

- أراك بعد المظاهرة.

انتقيـت بعضـا من الشعارات المختلفة، مزقت التي لا يفهمها الفلاحـون، لـم أشأ أن أحذف كلمة (متحدين) نطقتها حرفاً حرفاً أمامهم عشرات المرات يرددونها (ملتحدين) أغضبوني:

- أنـتم الآن ذوو شـأن، تقفون أمام سراي الحكومة بدلا من الإقطاعي، لا تكونوا مهزلة.

تحتـنا الشـمس كالمـرجل تصهر إسفلت الشارع، يقليهم القار الملتصق بأقدام الفلاحين الحفاة، لم يعودوا يصوبون رؤوسهم إلى أعلى حيث يتناوب الخطباء. يتلمسون مواطئ أقدامهم بين النيران. لـم أعـد أسـمع كلام الخطباء يقفزون إلى المنصة أربعة في آن

واحد، تتشابه أصواتهم بالصراخ لكنها تفترق في الدروب، أخذتهم إلى الفرات الذي تنتهي عنده الساحة، يستمع لنا، أزال القار، عرض وساطته يدعونا:

- مائـــي كحليب أمهاتكم، أنتم جميعا أولادي، أعمدكم، أغسل أدرانكم، سأمتنع فقط عن غسل دمائكم.

لقد أخذ آدم و زوجته منذ ذلك اليوم يلدان التوائم، يطلقانهم على الساحة، تبقى جثثهم في العراء إذ إن الغراب في هذه المرة يحرض القاتل.

أراد الفــرات أن يهــبهم ملكـــاً لم يتمتع به أحد منذ أيام سيدنا سليمان، لكنهم أبوا إلا أن يضيعوا هذا الميراث الجميل. لم يغترفوا مـــنه ابـــتغاء تطهير أنفسهم من الشهوات، تاهوا بأسوأ مما تاه بنو إسرائيل الذين عادوا إلى ديارهم بعد أربعين عاماً. استمر ضياعنا لا يفضي إلى نهاية، لم نتزود طوال رحلتنا الطويلة، نبتاع طعامنا بـــالأجل، نبـــث شـــكوى السبايا إلى الرياح علّها تتوقف عن كظم غيظها.

عدت مع أصحابي، ألتقي إسماعيل، رأيت جعفر يتصبب عرقاً، لا يرد على تقريع إسماعيل له:

- حملـــت علـــى كـــتفك واحداً، أكبرنا وطنيتك، كيف تحمل غريمه؟ مطية أم بشر؟

اعترضت إسماعيل:

- هل تريده أن يلقي بالخطيب أرضاً بعد بضع كلمات، لماذا لا نسمع الجميع؟ دعهم يبتهلون إلى الناس.

- لا ندعهم يسممون أفكار الجماهير.

إسماعيل عنيد في إيمانه مع أنه يحمل نفساً متسامحة تتمثل في نكـــرانه المطلق لذاته لحساب الجماعة الذين حملهم مختلفين على عنقه بأكثر مما حمل جعفر على ظهره.

استضافنا إسماعيل في بيته، خدمنا جعفر يحمل أواني الطعام، يفرقها، فرض على الجميع:

- لا يترك أحد المائدة إلا حين أفرغ من الأكل.

علّق إسماعيل:

- ستكون والدتي مسرورة إذ تجد الصحون مغسولة تماماً.

لـــم يخـــل الغداء من طرافة، أحدثت الملاعق والموز مشكلة لم يستطع الفلاحون تدبرها.

أشفقت على أصحابي الفلاحين يسألونني لماذا يتودد لهم الجميع مـــن الأفندية؟ يعدون بالإيجاب كل من يطلب منهم المآزرة التي لا يعلمون شيئاً عن فحواها، مالّذي يعطونه وهم الفقراء لهؤلاء القوم الذين يملكون السيارات والبيوت الفسيحة ؟ عاشوا أتباعاً لمن يملك الأرض تغازلهم سرّاً كمحظيات القصور بعيداً عن عيون السادة، تبقي أنوثتها حبيسة دورهم، موقداً يشعلونه متى أرادوا.

اختلط عليهم الضجيج، يأتيهم الثري:

- نملـــك العقـــول و تملكون الجاروف، نزاوج بينهما لتمتلئ صوامع الحبوب، خلق الله الناس درجات، اسألوا إمام المسجد.

يعقبه موظف الدولة:

- سيروا وراء (الزعيم). هو لا يخذل مناصريه، جاء يمحق الأغنياء و يغني الفقراء.

يتلقفهم الذي بعده:

- لا كرامة لكم إلا بوحدة الأمة العربية الفورية، بعدها نبحث عن الحرية والعيش الكريم.

يقاطعهم آخر:

- أولا نمسك الحرية ثم نشترك بالعيش بعدها نتوحد.

تتصارع الأصوات حولهم:

- الحياد نضال ضد الاستعمار.

- الحياد خدعة سافلة.

يسألونني:

- من منهم يعطينا الأرض ؟!.

أصابهم الطرش جميعاً عن نداء الأرض، تستغيث بهم من طول اغتصـــابها، امتلكوا صراع أخوة يوسف الذين يريدون أن يأخذوا مكانه في قلب أبيهم دون أن ينظروا إلى بهاء روحه.

لم يلق أخوتنا أخاهم في الجب سرّاً بل قتلوه على قرع الطبول ثـــم ظفـــر بهم يوسف وأعدمهم جميعاً. ظلت الأرض تتنسم عبير عـــرقهم المســـكوب على ترابها طيباً تنتظر أن تحمل الرياح أنباء عودتهـــم بعد أن أفضى صراع الأولياء الجدد بعودة الأرض إلى الإقطاعي. أخبرتهم:

- ربما تحصلون على الأرض من أحد هؤلاء المريدين.

- أيّهم؟

- جميعهم.

- لماذا يختلفون؟!

- دروبهم فقط.

- لنا درب واحد يؤدي إلى الأرض، يمشي بمحاذاة الجدول، لماذا لا يسلكونه ؟!

كـــان حـــس الأميـــين أفضـــل من كتبي، تذكرت أحد أعوان الإقطاعـــي يحذر من المدارس، لم يسلك أي أحد منهم دربه الذي بشّر به، التقوا في الساحة أمام سراي الحكومة يطعن أحدهم الآخر

بخنجره ثم ينقلبون مولّي الأدبار ليجدوا الحكومة قد سدّت الدروب على طريق الهرب.عاد الفلاحون لي مرة أخرى محتجين:

- إن كانوا جميعاً ذوي نوايا طيبة كما قلت، فلم يحذروننا من بعضهم؟

- كلّ يبث دينه.

- لـــم نسمع تبشيرهم، يحكون كل وقتهم عن مساوئ الأديان الأخرى وظلال كهانها مع أن بعضهم أولموا لنا، أكلنا زادهم، كيف نجحدهم ؟!

- الزاد هنا لا يطبخ للجوعى.

- إذا صح قولك فلا ننتظر من أحد منهم أن يعطينا الأرض.

- خيرهم كثير،تظنونهم مثلكم جوعى.

- عـــندما تشـــبع من القدور أعد غطاءها، لو سكبتها وعدت مرة أخرى جوعان فلن تطعمك.

ضقت بهم ذرعاً:

- أهذا وقت الكلام عن الطعام؟

كنت أحلق في سماء ليس بها تضاريس تملؤها الأقمار والنجوم والأحلام، أرنو إلى الأرض لا أجد فيها غير محراث وساقية وحبة قمح.

فـــتح ســـكن الطلبة المغلق عادة في العطلة الصيفية، عدنا نحن الطلـــبة ذوي الاهتمامات نعتزم استئناف نشاطنا العلني، رحب بنا ملاحـــظ الســـكن، جهـــز لنا الطعام خلاف لوائح الوزارة، أسكننا كضيوف ذوي منزلة عالية، يتودد إلينا:

- حميـــتكم في السابق كأولادي، أنقذتكم من الاعتقال مرات، كنت أعلم أين تخفون النشرات السرية، تخرمون الوسائد، تدسونها

داخل القطن، تظاهرت بالبلادة رغم أن رجال الأمن في سجلاتهم يصفون السكن كأخطر الأوكار.

- من أدراك بسجلات الأمن؟!

بهت الملاحظ الذي يعتبرنا عجولا أرسلها أهالينا تتعلم الرغاء. أنقذ هذا السؤال العفوي لأحدنا رقبة الملاحظ، أدرك أن هذه السجلات ستكون دليلا يفصل رأسه لو وقعت بأيدي الجماعة، سارع يدفع مرتبه لرجل الأرشيف يسحب منه تقاريره الأسبوعية.

أغدق علينا الموائد يجلبها من بيته أصنافاً لم نرها من قبل. مخادع لا تعدمه الوسيلة، ما إن مرّت عدة شهور حتى عاد يرهبنا من جديد، يؤلب أحدنا على الآخر، ينتظم في إرسال تقاريره الأسبوعية للشعبة السياسية التي أسموها مديرية الأمن وجعلوها ذات شعب عديدة ليس فقط للسياسة إنما لكل أحوال الناس.

بدأ الجفاء يفرق بين الناس، طلبة، عمالاً، كسبة، موظفين، فلاحين، وحدهم الأثرياء و رجال الدين لم يصبهم الشقاق، كفوا عن تنافسهم، استشعروا الخطر القادم.

ظهر العمل الذي كان يختبئ تحت الأرض كوباء يصيب الجيران، الأصدقاء، لا يسلم منه حتى الأخوة في البيت الواحد، وباء رهن الأثرياء كل أموالهم عليه، ينشرونه في البيوت والأزقة. اعترضوا الرياح الشرقية المحملة بالأمطار يصدونها خشية أن يشفي الناس هطولها. صلّت جموع رجال الدين يبتغون ابتعاد الغمام.

زارني إسماعيل جذلاً، على وجهه تركت الشمس بعض ضياءاتها ينير المكان بنور الأمل:

- ستكون غرفتك مكاناً لاجتماعاتنا، انضم لنا عدد كبير.

- ماذا بشأن الملاحظ ؟

- هو الذي عرض علي ذلك.

نظرت لوجهه مستفهماً، أغفل تساؤلي و أكمل:

- ضممت جعفر، استرشد بحججي.
- يلزمك نصف الوقت لتثقيفه.
- مهمتنا تثقيف الطليعة التي تقود البلاد.
- هل تتخلون عن القيادة لتلاميذكم؟
- الذيـــن يتحملون شظف العيش من الفقراء وحدهم قادرون على تحمل المواجهة.
- أراهـــم عازفين عن المواجهة، تاركينكم تواجهون التنكيل، ألا تحاربون ببنادق لا تملكون عتادها؟
- نبرز لهم البندقية وسيكونون عتادها.
- أما حسبتم أنهم ربما باعوا العتاد لمن يطعمهم؟
- لو عرفوا الحقيقة لاشتروا الغد بالرغيف.
- متى يحدث هذا؟
- نقسمهم بيننا، لي العمال ولك أصحابك الفلاحون.
- ســـأبقى طالـــبا حتى أنهي الجامعة، أرسلني والدي عيوناً مفتوحة لن أغمضها قبل الأوان.

أجاب إسماعيل كمن وجد حلاً:

- زال الظلام، عاد والدك يبصر.
- إذن دعه يشغل مكاني المقترح مع الفلاحين.

صمت إسماعيل، عاد يقول:

- الحكومـــة لا تعارض، مم أنت خائف؟ لا أحد يعتقلك، لماذا تبتعد عن التنظيم؟
- لســـت خائفـــاً، أتذكـــر حين تسلقت سور السكن معك ليلاً لأحضـــر اجتماعكم السري؟ أبارك لكم الفوز لكنني أقسمت لوالدي

الــذي أرسلني للدراسة في زمن العسر ألا أعود للقرية إلا ومعي شهادة البكالوريوس في اختبار فحص النظر!

أولم الإقطاعي وليمة كبيرة، ذبح فيها عشرات الخرفان، استبدل بكل واحد منها عشرة رؤوس من الفلاحين يذبحون لاحقاً فداء لهذه الأكباش.

أرســل أولاده يدعونهم من بيوتهم كما كان يفعل للوجهاء وهم الذيــن كــانوا يسارعون من قبل على صوت (هاون) القهوة ينذر بوصــول ضــيف لينالوا شرف الخدمة ويأكلوا ما تبقى من الفتات بين الإهانات والزجر.

المضيف مفروش بألوان مختلفة من السجاد والمراتب والوسائد الحريــرية المطرزة برسومات النساء بأفخم مما فرشه للباشا سابقاً في إحدى زياراته. استقبلهم على باب المضيف واقفاً، قبلهم واحداً بعــد الآخر وهو الذي لا يسمح لهم إلا بتقبيل يده و قدميه، يسألهم عــن عوائلهــم فرداً فرداً بالأخص أمهاتهم، يوصيهم بهن خيراً، يعرض سيارته إذا ما مرض أحدهم لنقله إلى طبيب المدينة، يتكفل بعلاجه، طلب من القهوجي أن يجلس مع الفلاحين قائلاً:

- أنــتم اليوم ضيوفي، واجبي أن أخدمكم بنفسي وأولادي، ليس هناك كبير في خدمة الضيف هكذا ربّانا آباؤنا وأجدادنا.

عيــناه تتنقلان في الوجوه، أفكارهم مطبوعة على الجبين، يبالغ فــي إرضاء وإكرام من ساورته الشكوك، يداري حرج من لوثت قدمــاه الفراش بالتراب، يطلب شاياً للذي يرنو بعينيه إلى (قوري) الشاي، يصب لهم القهوة بيديه، يقفون مستنكرين:

- أعوذ بالله أنت أميرنا تسكب لنا القهوة.

لـــم يعلموا أنه يسقيهم العقار الذي سوف يسلبهم قوتهم حيث أن نواياه لا يكتبها على جبينه مثلهم، يبقي جبينه دائماً أملس لا يستقر عليه العرق. حزر بفراسته التي لا تخطئ:

- أكـــيد جوعانين، تعرفون أن طعام ضيوفي يتأخر في كل مـــرة إلا هذه المرة، طبخته لكم من سواد الليل، نضج منذ الفجر، لكننـــي أحببـــت أن يصلي بنا الشيخ طاهر خرّيج الحوزات الدينية (جماعـــة) قـــبل الغداء ثم نستمع إلى وعظه وإرشاده، تعلمون أن المـــريض يذهب إلى الطبيب، نحن كلنا مرضى لا نفقه من أمور ديننا، أرسلت له سيارتي سيصل في أي لحظة.

أكمل ضاحكاً:

- سوف ترون اليوم طبيبا يلبس عمامة.

تـــرجل الشيخ طاهر، بدينا تعلو رقبته الغليظة من الخلف على العمامة، يبسمل في مشيه.

هـــرع الإقطاعي يستقبله على باب المضيف أمام الجميع يأمر أولاده من بعده بتقبيل يد الشيخ. أحاط به الفلاحون يقبلون يده. تنبه الإقطاعي لنظرات الشيخ، صاح بهم:

- دعوه يدخل للمضيف، الشمس حارقة في الخارج.

طلـــب الشـــيخ إبريق الماء يتوضأ، لاحظ الإقطاعي وحده أن الشـــيخ طاهـــر لا يتوضأ بل يغتسل من ملامسته لأيدي الفلاحين الخشنة المعفرة بتراب الأرض.

اســـتوى رجـــل الدين على الوثير من الفراش يمد يده الناعمة المكتـــنزة للتقبـــيل. حال وصوله امتدت الصحون الكبيرة مملوءة بالـــرز العنـــبر واللحـــم. الأدام خلـــيط من الروب والسمن. أراد الإقطاعـــي أن يكمـــل استحواذه عليهم بتقديم حلاوة الشعرية التي طالما ظلت أبصارهم معلقة بها سابقاً، تنتقل من صحونها الصغيرة

إلـــى يد ضيف المدينة ثم إلى فمه دون أن يتركوا لهم خيطاً واحداً من الشعرية.

قام يفصل اللحم بيديه يضعه أمام الذين قرأ على جباههم الحذر. أمـــام الشـــيخ طاهر وضع صحناً منفصلاً يأكله وحده عليه جدي صغير أتى عليه الشيخ بكامله أمام دهشة مضيفيه.

قـــرأ الشـــيخ طاهـــر الفاتحـــة على أرواح الموتى من عائلة الإقطاعـــي داعـــياً الله أن يديم هذا البيت لخدمة الدين والناس وأن ينزل بركاته على صاحبه. بعد الطعام انفرجت أساريره، أومأ إلى الجالســين أن يقــتربوا مــنه، تأمل صورة الفتاة المرسومة على الوســادة ثم قلبها، اتخذ هيئة الأحبار بلباسه الأسود يتطيب بعطر الشــهداء الموصــى له خصيصاً من أسواق العطور الرخيصة... أغواهــم بوســائل الشيطان، بالهمس حيناً وبالصراخ ثانية، وضع نفوســهم فــي تابوت ضيق يوقد تحته المراجل، يكادون أن يتقيأوا طعام الإقطاعي ثم يفتح التابوت على حدائق يانعة مزدانة بالفتيات الــناعمات كالــريش الملون ليس كنسائهم الفاقدات الليونة كخشب جاف...

لقد لامس هذا الحبر الأريب قاع الفلاحين الموروث أساطير:

– لكي تحصلوا على هذا الحصاد أوصيكم بالزراعة، أشرف المهــن التي كرمها الله حتى الزكاة جعلها تكال بالحبوب، أرسلني الخالق لهدايتكم، أضع نواياكم الطيبة حيث يجب أن تكون في خدمة الــرب، احذروا شياطين المدينة المنحرفين عن طريق الله يملأون مــع نســائهم دور الســينما بدلاً من المساجد، لا تعلمون ما تخفيه صــدورهم المفــتحة الأزرار، إنهــم يهيئونها لاحتضان نسائكم، يطالــبون بــأن تلقي المرأة سترها وتخرج عارية لتصبح مشاعاً يتعاقــب عليها السكارى، هل تقبل ذلك غيرتكم؟ شرفكم الإسلامي

والعربـــي إذ يقـــول تبارك وتعالى: (وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) أي لا تخرج المرأة من باب بيتها.

ثم استدرك سريعاً:

- إلا فـــي أعمـــال الزراعة، أدعوكم لتروا الأصباغ الملونة تطلـــي وجوه نسائهم يعرضونهن كالعاهرات فتنة للرجال، يحللون مواقعة الأمهات... أعوذ بالله... بهائم.

التقط أنفاسه التي راحت تتسارع:

- تصـــفق نسائهم في الشوارع: (بس هآلشهر ماكو مهر) حـــتى المومـــس تأخذ أجراً، عباد الله أوصيكم بتقوى الله، أتعلمون معنى الاشتراكية؟ يذهب فيها عرقكم، برد الليالي المظلمة، عيونكم التي يدمعها الغبار، هامات رؤوسكم المحروقة بشمس الصيف، كل ثمـــاركم إلى الدولة، لن يملك أحدكم شيئاً غير أسمال يلبسونها لكم زيّـــاً موحّـــداً، يقلعـــون دشاديشكم المريحة ينزعون شرفكم الذي تقســـمون به ليتركوكم حاسري الرؤوس بلا (عقال)، يستبدلون به البـــنطلون الـــذي يظهـــر العجيزة مكورة لدى سجودنا للصلاة، ســـتأكلون الحشـــائش كأغنامكم، يريدونكم قطيعا يسوقونه متى ما رغـــبوا، بـــالله عليكم ما ذا أبقى لنا هؤلاء الكفرة الفجرة، لكن الله ســـبحانه يلطـــف بعباده، يرسل لهم الرسل والأولياء ينقذونهم من البهـــتان، يخرجونهم من الظلمات إلى النور، يهيئ لهم من أنفسهم رجـــالاً صـــالحين كصـــاحب هـــذه الدار الذي جمعنا على الخير والمحـــبة وهداية الله،اسألوني كيف نحصّن قريتنا من هذا الغزو.. بالخوف من الله نبني حولنا سورا، سأشرحه لكم... لقد حرم الله على المسلم ثلاثة، دم ومال وعرض أخيه في الدين، الأرض المغصوبة محـــرّم عليها حتى الصلاة، ينوي أبالسة الإصلاح الزراعي أخذها مـــن هذا الرجل الصالح لتحرثوها لهم كالعبيد لقاء لقمة جافة من

طعام السجون، ثم هذا الفرات عدوكم الطاغي الذي أغرق أطفالكم وأهلك حرثكم، من لجمه بالسدود وروّض جموحه غير هذا الرجل الصــالح؟ أركب مكائن الري على ظهره تهمزه كلما أراد التباطؤ، يحيــي به الأرض التي هي كالنفوس، و قد قال الله سبحانه: (ومن أحــيا نفساً فكأنما أحيا الناس أجمعين) صدق الله العظيم. بهذا ختم الشيخ طاهر كلامه وهو يمسح عرقه.

هــب الإقطاعي يثني على عمق معرفة الشيخ بأمور الله. قلب الشيخ الوسادة يتأمل صدر الفتاة المرسوم عليها، كانت هذه الوسادة هدية بديعة الراقصة استبدل بها الإقطاعي اليوم ورع الشيخ طاهر الذي أحكم حصار القرية له كما كان هو يفعل أيام مجده الماضي.

أكملــت عناصر الدراما من الشيخ طاهر والإقطاعي عروض مســرحهم بامتــياز، رغم أنهم لا يملكون نسخة واحدة من القرآن الكريم. نالت استحسان المشاهدين، تثاءب الشيخ يطلب عودته إلى بيته في المدينة. حان موعده لنوم الظهيرة.

عدت مدحوراً مع والدي و صديقي فرحان و ياسين، أتكلم معهم بعصــبية حتى أن صوتي علت نبرته على والدي الذي لم يؤنبني هــذه المــرة.أرى الشــكوك في وجوههم غير مصدقين أن الشيخ طاهر لا يبحث عن الله، إنّما يبحث عن نقود الشيطان. لقد تزودت مــن الجلســات السرية في سكن الطلبة و في بيت إسماعيل ومن عــبارات الرمز التي يسمعنيها الأساتذة في المحاضرات ببصيرة جعلتنــي أفصل ما بين الألوان المختلفة التي يصبغها المحتالون، ألهث في كلامي:

– أظنكم صدّقتم أن الإقطاعي. فجأة أصبح راعي الله، يزور قبر الراقصة بديعة ضحية شهواته المحرمة بأكثر مما زار العتبات المقدسة طوال حياته، لا تنظروا لجلد الأفعى المنزوع، احذروا نابها

الذي لا تزال تحتفظ به، هل رأيتموه قبل هذا اليوم يؤدي الصلاة؟ فـــي أوقات الآذان كنا نسمع صوت الطبل (الدرنكه) يختلط بغناء الغجريات اللواتي يقمن عنده شهور الصيف، هل أطلق لحيته الآن حـــزناً علـــى موت الباشا أم عمامة ابن آوى يخدع بها ضحاياه؟ شيخنا طاهر...

قاطعني والدي:

- لا تتكلم بسوء على رجال الدين.

نظرت في عيني والدي أصل إلى قرارة روحه، تتنازعه قدسية رجل الدين وافتراءاته. أكملت:

- يـــا والدي... أرسلتني للدراسة عينا تتفتح سأعترف لك الآن بعـــد أن زال الخطـــر أننـــي لم أخبرك بسر... كنت أحضر بعض الجلسات الممنوعة التي يعاقب عليها القانون سابقاً، جلسات سياسية دون أن أنـــتظم إلى جماعة لعلمي أنك ستمنعني عنها، أضافت لي عـــيوناً أخـــرى أوسع من الدرابيل تريني صور الأهداف البعيدة، الإقطاعـــي وتابعـــه الشـــيخ يـــراكم من حيث لا ترونه لكن كيده ضـــعيف، نســـيج عنكبوت يحجب أبصاركم، يعميكم، لو حرك أحد منكم إصبعه ستنقطع حبال الشيطان التي يراد تكتيفكم بها، ما الذي أتـــى بالشـــيخ طاهـــر الآن؟ يطلب هدايتكم، أين كان من قبل؟ هل توقفـــتم عن أداء الصلاة؟! يحرضكم على الفرات ثدي أمكم، يخفي آيـــات الله، لم يتكلم عن الذي قتل نفساً بغير حق فكأنما قتل الناس أجمعيـــن، أحـــيا النفس فقط بخنزيرة مضخات الماء، احتكموا إلى القـــرآن الـــذي فـــرّق بين الصالحين والطغاة، ليس لهم عنده غير الخزي والعذاب، لقد وعدكم الله أن يمن عليكم ويجعلكم وارثين فلا تســـتبدلوا وعده بالغرور الذي سمعتموه اليوم في المضيف، إذ إن الـــرب يـــرفض حتى التوبة الصادقة إن جاءت متأخرة، الأرض

وليس الله من أنزل الورع والتقوى على قلوب الإقطاعي وواعظه الشـيخ طاهـر، إنها مائدتكم التي أرسلها الله لكم من السماء، لن تجوعـوا بعدهـا أبـداً، يريدون أن يسلبوها منكم باسم الرب، إن أضـلّوكم هـذه المرة فلن تجدوا حتى قبراً لكم على أرضها، أبناء الشيخ طاهر من زوجاته الثلاث يدرسون معي، أمواله ينفقها على شـراء البـنطلونات لهـم وأصباغ المكياج لبناته واكتناز الذهب لـزوجاته، لقـد صـدق الشيخ في حديث واحد حين وصف مهنة الـزراعة بأشرف المهن يخادعكم لانتزاع شرفكم الحقيقي و ليس (العقال) الذي تلقونه أرضاً كي تريحوا رؤوسكم من ثقله.

عـدت إلى المدينة، يحتفلون بافتتاح جسر حديث يربط ضفّتي الفـرات، يسع لمرور سيارتين بدلا من واحدة على الجسر العائم القديـم. يـترجل ركـاب الباص في أول الجسر ثم يمشون وراء الباص الفارغ من ركابه عدا حمولته من البضائع في اتجاه واحد، بعد وصولهم يعلن شرطي المرور في الجهة المقابلة بصافرتة بدء السير في الاتجاه المعاكس.

مـرة واحدة رأى أحد السائقين أن مناسيب ماء الفرات تغيض إلى قاعه، يعوم الجسر في الأعلى كقنطرة على سلسلة آبار، لم يشأ أن يـدع طالبات الثانوية الذاهبات في سفرة مدرسية إلى آثار أور السـومرية يسـرن علـى الأقدام بين نظرات المارة، قاد سيارته بحمولته من الطالبات يصفقن له:

- حجَي أو عرّيس إدريولنه.

توسط الجسر العائم منتشياً بغنائهن وتصفيقهن، سيارته تستجيب لضـرب أقـدام الطالـبات كوقع استعراضات الجنود، فجأة يفور الفرات عالياً، يغمر (الدوبة) العائمة، ينحرف الباص منزلقاً إلى قاع الـنهر كاتمـا صـرخات الفتيات. خرجن منه عرائس من الجثث

يروين قصة عشقهن القصير بعيونهن المفتوحة التي يملأها الرعب والنار.

مدينتنا لم يعرف بنّاؤها، أرجوحة من الماء، في أوائل نيسان يلتف حولها الفرات، يحيلها جزيرة عاشقة تركب ماءها جناديل فينسيا، حتى بعد أن بترت الآلة أذرع الفرات ظل منسوبه أعلى من دور المدينة التي تعوم فوقه.

في شرق المدينة تتزاحم منازل الصابئة علي ضفافه، يدخلونه إلى بيوتهم، يأنسون به كرسول يحمل بين كفّيه هدايا يحيى بن زكريا إلى أطفالهم المولودين حديثاً. نسمع نبض التاريخ حيّاً على مقربة منها مستلقياً ينظر بعيون السومريين التي أبقتها الحراب مفتوحة، تتبادل المدينة مع أسلافها في أور الحياة و الموت، ورثت عنهم الإصرار على الصراع داخل جدرانها. أحاطت نفسها من الغرب والشرق بأشجار النخيل، تتبادل الحديث مع السكان، تطلب منهم أن يجمعوا ثمر أثدائها المتورمة بالرطب بمجرد ملامسة جذعها، لكن خضرتها لم تمنع الغبار الآتي من سهول البطائح المحيطة بها، غبار كالذي تخلفه المعارك الدامية يحمل رائحة الدم، على جانبها الجنوبي تمتد الصحاري لا يطرقها غير جمال البدو الرّحل والقطارات، يعثرون عليها واحة في جفاف الصحراء، على شمال المدينة تقع سهول القمح خضرة على امتداد البصر شتاء وصفرة قاسية، تخدش النظر صيفاً كأن الحياة عندما تندثر لا تترك أثراً من لونها. إن الناظر إلى مدينتنا يراها تارة مدينة صحراوية وأخرى حاضرة تبنى من جديد على مسّطح مائي، لكن في كلا الحالتين لم يكن لها اتّساع البوادي، ولا شارك ماؤها في إطفاء الحرائق. شوارعها مستقيمة رسمتها عقول أهاليها التي لا توجد فيها منعطفات، ظلت شوارعها خشنة رغم الإكساء المتواصل،

تســتعير ملمسها من نفوس أهاليها الغاضبين دائماً، إذ منذ إنشائها وضــعت الحكومة أمام كل بيت وشارع رجل أمن مبعوثا للموت ينفخ عليهم أنفاس الشيطان.

احـتفلوا فوق الجسر يحملهم إلى أمانيهم الجديدة، كان لهم أكثر الأماكن شاعرية في ذلك اليوم ينظرون إلى صواميل الحديد كأنها زهــور تنبــت علــى صفحة الفولاذ، بيت آمن يحملهم إلى ضفة الفرات الأخرى، هزأ من طغيان النهر، غفى على هدهدة أمواجه، هديــة بعــثها الزمن الجديد تمسح عبور الماضي الأليم حين كان الجسر العائم يصارع الأعاصير كمن يلم العاصفة بفستان.

علــى ظهــر الجســر التقيت كريم وإسماعيل وجعفر ونصف طــلاب فصــلنا الدراسي يتحدثون عن الجديد كأنهم ولدوا معه، يصــفون آباءنا الكبار بالأموات الذين رحلوا مع العهد البائد رغم بقاء جثثهم معنا. استنكرت مفردات لغتهم في البداية إجلالاً للكبار ثم انضممت بحماس لهم لكون آبائنا حواجز أمامنا في الحاضر.

فاجأني كريم باصطحابه سرحان الفارّ بحبيبته، ذلك الفرار الذي كــان أشجع من الانتصار في المعارك. احتضنته بغرابة من عاد مــن الآخرة، بكى على كتفي ينتفض جسده، أتمتم بكلمات متفرقة، أطيب خاطره، همست له:

- لم ترتكب جرماً في نظري، الحمد لله على سلامتك، انتهى الخــوف فقــد قلب العهد الجديد المفاهيم، ستكون بطلاً لمواجهتك ظروف الموت السابقة.

انتحيــت بسرحان نستند على درابزين الجسر، من حولنا الناس تغنــي وتهتف، تنعش الرياح وجوههم، تغسلها طيباً بانغماسها بماء الفرات. أستمع لسرحان:

– بكيــت فرح الفرج، شديداً يضرب جسمي، يلاحق أنفاسي، يباغــت عقلــي الصــغير تمامـــاً، كما خبرت الحزن أيام الخوف الطويلـــة، ألمسك الآن كي أصدق أنني أتجول علناً في الشوارع، أعــود لقريتي، بمرآك الآن أتكحل بها رغم أنّها أهدرت دمي ظلماً وطاردتنـــي زمـــنا، لكـــنها بقيت في وجداني أعز وأعذب من كل الأماكن التي منحتني الأمان.

– لماذا لم تشاهدها قبل مرآي بكريم ابن قريتنا؟!

– فعـــل لــي كريم بأكثر مما يفعل الأخ لأخيه، أخذني معه أعيش و زوجتي في البيوت السرية، نحن القرويان اللذان هرباً لا ننشــد من الحكومة و المجتمع إلا أن يقبلوا بنا كزوجين، أصبحنا رغماً عنّا مناضلين هدفنا تغيير الحكومة وقلب المجتمع، أي مصير غريــب كـــان ينـــتظر هروبـــنا، لـــم يكف إلى الآن من مفاجأتي بالمفارقـــات، أولهـــا منحني الشجاعة التي خلّفتها على بئر القرية حيث استطعت يومها أن أجمع كل ما أملكه منها وما أستعيره من الغـــير كي أفاتح نجاة في الهرب. نجح كريم في جمع كل شجاعة رفاقه وأعطاها لي مع أن بعضهم أبدى من الجبن ما لا يليق بابن آدم، قبل هربي ذهبت كسيراً إلى الحاج عبد الواحد صاحب الدكان أطلـــب منه المساعدة لعله يجد لي أحد كبار الموظفين من الذين لا يعدمـــون الوســـائل كـــي يقنع الإقطاعي بزواجي لقاء إعطائه كل ريعـــي من الزراعة لهذا العام، بضمانة الحاج عبد الواحد صاحب الدكـــان، كنت متيقناً أنني لو خسرت المحصول وربحت نجاة فإن رئتـــي ستتغذى على ريحها، أصغى لي ذلك الرجل الطيب الذي لم يفعل أحد من قريتنا مثلما فعل لنا جميعاً، كان يرى بؤسنا من خلال كمـــية التســـوّق من دكانه، يزيد في الميزان كي يدخل على قلوبنا السرور، في البداية آلمني ردّه:

- رشاوى الإقطاعي لهم أضعاف ريعك القليل.

- أنت رجائي المتبقي يا حاج.

تأمل الخيبة على وجهي ثم تبسم:

- عد بعد أسبوع سأتدبر أمرك.

أدهشني هذا الرجل الوديع بتنظيمه البارع في الهروب إذ نقلني في يوم و ليلة إلى أقصى الأماكن التي لم أسمع الإقطاعي وضيوفه الكبار الذين دأبوا على التباهي بزيارتهم للمدن البعيدة يذكرونها، وجدت في مفاجآت هروبي كريم ينتظرني على رصيف المحطة يحمل تذاكر السفر مع صرّة تحوي ملابس المدينة، طلب منّا تغيير زينا القروي وحلق لحيتي إمعاناً في التمويه، فعلنا ذلك، بقيت رجلي طوال تجوالنا رجل فلاح باردة دائماً تأنف من دفء الأحذية، نجاة القروية تعلم أنني اخترت هواها على عشقي للأرض، تركت اتساع الحقول، سماءها التي تعانقنا بالغيوم، أنزوي كالخفافيش لا أخرج إلا ليلاً، أبدت في الأيام الأولى لانكساري شجاعة أعانتني لألتحم:

- لنرفع الحمل معا، سيكون أخف على كلينا وإذا لم نستطع سوف أقفز معك إلى القبر.

بعد أن ابتعدت عن الخطر عاد ضمير القرية يذكرني بفداحة جرمي:

- طليت بالسواد شرفنا.

تمر أيامي ليالي مظلمة ليس لها صباحات رغم وعد الله بقربها. أبو جهاد الذي لم أعرف اسمه إلى الآن يتردد علي وعلى كريم. جادلني يوماً:

- الشرف هو أنك لم تتخل عن المرأة التي اخترتها واختارتك، الخسّة أن يساوم عليها الإقطاعي و أبوها، بقرة تذهب

لمن يدفعٍ أكثر، أنت مريض يا سرحان بداء الجهل، دعني أجعلك تبرأ سريعاً.

التفت إلى أصحابه قائلاً:

– علّموه القراءة والكتابة.

تعلّمت القراءة والكتابة، قبلها لم أكن حيّاً رغم وجودي، صدق حدسه كطبيب اجتماعي ماهر، ردّ لي شرفي وشجاعتي لكنه ضاعف شوقي للأرض، يد الأرض أول من أطعمني، كيف لي أن أجحدها؟ عليها نبت حبّي، أمسك نجاة وردة عطرة جذورها لا تزال مدفونة في أرض القرية. رغم أن أم كريم عملت لي عرساً، أحضرت من رقص دون حياء لكن أحلم بعرس أتصدر فيه الديوان، أسمع غناء الغجريّات:

– أجلبنك يا ليل اتنعش تجليبه... هجع...

يزيد من لهفتي للقاء نجاة العروس، أستعجل الوقت كي يزفّوني لها، سيكون ذلك أعظم يوم ليتيم لم يعرف العيد.

صديقي كريم يحثني على نسيان القرية يقول:

– الأرض أصبحت كالفحم الحجري بعد اكتشاف البترول، اعمل في الورش الحرفية المنتشرة تملأ جيبك وعقلك.

آلمني عقوقه، يظن أن العفن الذي لفظته الأرض سيبني لهم دوراً وينشئ حدائق، كل ظنّي أنه سيجعلهم يتقاتلون كالديكة على الزبالة، وجد كريم في المطرقة سلاحاً يثابر على رنينه.

لم تألف يدي مقبضها الثقيل يقسو في ضربه، أرى منجلي يعانق السنابل قبل قطفها، خفيفاً في حمله تضعه الأرض شريطاً أصفر على أعواد الذرة ينتظر عودتي. لقد أضناني الحنين يكشط كل يوم من خزين صبري.

يحزنني أن يختلف أحيانا سلاحي وسلاح كريم مع أننا نخدم في جيش واحد. تدخلت:

- لا ضـــير فــيما تمسك أيديكم شرط ألا تشتبك، تمايز حتى سلاح الأنبياء، أحدهم حارب فرعون بالسحر و الآخر فتنه بجماله، لكن لم أفهم لماذا ترى القرية في لقائي ولا تراها في كريم؟

- ظـــلّ كـــريم فلاحـــاً زمـــناً يئن جريحاً للقرية ثم استبدل خضـــرتها بملابس العمال الزرقاء، لكنك يا عبد القادر كما أكّد لي إسماعيل ما زلت تلبس ملابس الفلاح الخشنة تحت ياقات قمصانك المنشّاة.

منذ أن أعطاني كريم البنطلون والقميص في محطة القطار وأنا أتخفّى داخلهما كالمومياء المتكتفة برداء القبر.

- سرحان، لقد استجيب لنا نحن الثلاثة أن نسلك كما أراد لنا أهلونـــا، كـــريم منذ أن قتل والده أرادت أمه ألا يكون فلاحاً وأنا أرادنـــي والدي أن أحيا في المدينة وعيناي مفتوحتان على القرية، أمّـــا أنـــت فلعلك نسيت أن أمك أرادتك فلاحاً حتى أنها لم تغادر القرية إلى الآن،.وإلا أرسلها لك الحاج عبد الواحد صاحب الدكان مـــنذ زمـــان. لم تأخذ معك غير نجاة، عطر القرية تشم بها على البعد.

قطـــع صوت أصم حديثي مع سرحان، اهتز الدرابزين بعنف، أفقـــنا مذعوريـــن على هرولة وحدات من الجيش بإيقاع عسكري تشارك في حفل افتتاح الجسر. أحدثت هرولتهم ذبذبات تتوازى مع انحـــناءات الجسر تجعله ينط كالكرة. انزلقت مع سرحان نتسابق هاربيـــن مـــع الجمهـــور تاركين الجسر فارغاً تعبره أقدام الجيش الضخمة، تقرع آذان الفرات المصغي إلى غناء الناس.

ذهبنا إلى بيت إسماعيل مع كريم وسرحان للغداء، أخبرتنا أم إسماعيل أن زميلنا في الدراسة رشيد الساكن قرب بيت إسماعيل دعانا جميعا للغداء مع ضيوف آخرين.

هدوء رشيد الكامن استحال إلى صخب وصراخ، لم يصبه وحده إنّما أصاب عموم الناس بعد أن سمح العهد الجديد بالكلام والتفكير بصوت عال، تطور الصراخ إلى تشابك بالأيدي بالسكاكين، بالبنادق، بالمدافع، ثم بطائرات الأسلحة الكيماوية، فمنذ أن مرّ الجيش على الجسر بأحذيته الثقيلة لم يرفعها بعد ذلك عن صدور الناس.

استقبلنا رشيد فرحاً بانضمامنا لدعوته، والده ميسور، وجدنا جعفر يقوم بدور المضيّف، أغلب الحضور زملاء دراسة، بعض المدعوين ليسوا من مدينتنا التي نعرفها ثدياً ثدياً. بعد الغداء الفاخر انسحب والد رشيد مع أصحابه من كبار السن، قدّم رشيد ضيفه المحتفى به باسم أبو عروبة قائلاً:

– ربما لا تعرفونه بسبب سكنه العاصمة إنما هو ابن مدينتنا، عاد لها بعد فراق.

تحدث ضيفنا عن المؤامرات التي يدبرها أعداء الوطن في الداخل و أصدقاؤهم من الخارج الذين يهدفون لانحراف العهد الجديد عن امتداده العربي... لا عز لنا إلا بالوحدة العربية تجمع شعبنا العربي الواحد.

قاطعه إسماعيل:

– شعوبنا العربية وليس الشعب العربي.

ردّ الضيف بغضب:

– شعب عربي واحد و ليخسأ الشعوبيون.

تدخلت مازحاً:

- دعونـــا نقيم الوحدة العربية أوّلا إن كانت بشعب واحد أو بشعوب عديدة.

تواصـــل الحديث حاداً، يتباعدون أكثر كلما طال الحوار. انحاز جعفر ورشيد لصف محدثنا الضيف يقابلهم بالضد إسماعيل وكريم. لم أشأ أن يتقاتل زملائي، استأذنت مع سرحان بامتعاض. صمتوا جميعاً، وقفوا يتفرقون كأنهم ينتظرون الإشارة لبدء الانسحاب من ساحة المعركة.

قصـــدت وسرحان المقهى، يجلس غير مصدق أنه يحتل نفس الكرســـي الذي سبق أن جلس عليه الإقطاعي. انضم لنا الحاج عبد الواحـــد صـــاحب الدكـــان يكـــثر من السعي في دوائر الحكومة مصـــطحباً رعيـــته من الفلاحين. امتلأ المقهى بهم حين شاهدوه يجلس، عانق بعضهم سرحان يبكون فرحهم، فاجأهم وجوده. أنّبه (صليبي) البدوي:

- كنـــت أنـــتظرك تأتينـــي مع امرأتك للصحراء، استنفرت أخوتـــي، جعلتهم يقسمون أنك لو أتيتنا (دخيل) سنمزق برصاصنا أكـــباد مطارديك حتى لو كان الإقطاعي نفسه، بقينا ليالي نترقبك، أظـــنك استســـلمت مـــرة أخـــرى لغواية امرأتك، لا تتحمل عيش الصحراء الجاف، معذور فلقد استنجد نبي بربه ليصرف عنه كيد النساء.

ردّ الحاج عبد الواحد صاحب الدكان ضاحكاً:

- أيـــن وجـــدت هـــذا النبـــي؟ عندما أدليت بدلوك في بئر الصحراء... أظنك بعثه بلفائف تبغ.

علـــم الإقطاعي من عيونه المنتشرة في المدينة بوجود سرحان الفـــلاح الذي خرج من القرية خائفاً. عاد يعرف الكثير مما يدور علـــى سطح الأرض وباطنها، اقتبس نوراً يضيء عينيه، يرى في

القـــرية أرضه الموعودة لا يستطيع كل الفراعنة منع دخوله، عاد لينتشل أمه الخادمة في بيت الإقطاعي منهياً سبيهاً، فطن الإقطاعي بخبث حدسه إلى أن سرحان زاهد في العمل بالورش الحرفيّة التي ســخرها القــدر كي تحول دون اندفاعهم نحو أرضه، خلايا نحل يهــرش من حولها دون أن يذوق منها عسلاً، وأن سرحان سوف يكون له شأن في التنظيمات الفلاحية المزمع إقامتها.

عــرض وســاطته بين سرحان ووالد زوجته، جاء بنفسه إلى المدينة، يزورها أول مرة منذ ذهاب العهد البائد، احتضن سرحان:

– لــولا معــزّتك عندي لما أتيت إلى المدينة... أمك في بيتي فرد من العائلة، فسدت المدينة، تسخر من الوجهاء ورجال الدين، الريف وحده الآن حامي حمى الفضيلة، تعال معي نمر على الشيخ طاهــر العبد الصالح، نفاجئ به عمك أبو نجاة ليعرف أن رفضه الســابق لــك، سيكلفه ذبح عجل للمتطفلين مع جدي صغير ناعم اللحم للشيخ طاهر.

وصل الموكب إلى بيت أبو نجاة الذي لم يفاجأ بالحضور إذ تم تدبــير ذلك في الليلة السابقة مستلماً العجل والجدي من الإقطاعي. أجلســوا ســرحان علــى أحســن الفــراش ما بين الشيخ طاهر والإقطاعي، صبّ والد نجاة القهوة، سبقه الإقطاعي:

– اعــط القهــوة أولا لضيفنا وعريسنا سرحان، ضيفنا ليوم واحد فهو من أهل القرية، تكلم يا شيخنا.

أشار للشيخ طاهر، بسمل الشيخ ثم ابتدأ:

– يــا أبــا نجــاة، أنت رجل كريم وعطوف تعلم أن الزواج نصـــف الديــن من كسب نصف دينه في هذا الزمن الإلحادي فقد دخل الجنّة.

تتحنح الإقطاعي، حذّر الشيخ طاهر بنظرة يذكره بخروجه عن النص. سعل الشيخ عاد يبسمل، تابع:

- يـــا أبا نجاة لقد أوصى الله سبحانه بإكرام الضيف حتى أن نبـــي الله لوط عرض بناته على الفاسقين يمارسون معهن الفحشاء كـــي لا يخـــزوه في ضيوفه، ولدنا سرحان اليوم ضيفك وهو ليس بفاســـق، تزوّج ابنتك في الحلال على سنّة الله ورسوله ولم يمارس معها الفحشاء، فلا تدع عصبية الجاهلية تقودك إلى الضلال.

هزّ الإقطاعي رأسه استحساناً. واصل الشيخ طاهر حديثه:

- المهر هذا حقك، شرّعه الدين، اطلبه بالمعقول.

قاطعه الإقطاعي يأخذ دوره:

- المهر أنا أدفعه هدية فرحنا بعودة سرحان العزيز، لا يهم كـــم يـــريد والـــد نجاة، ليطلب مهر المقداد والميّاسة، نقيم العرس بضيافتي غداً الجمعة.

طلب سرحان بخجل من الإقطاعي وهو يشاهد كل هذه الحفاوة له كوجيه مبجّل أن يمهله للجمعة القادمة ليتمكن من إحضار نجاة من مخبئها البعيد مردداً عبارات الشكر والثناء، كل هذا ووالد نجاة صامت ينظر صوب الإقطاعي.

حـــان وقت انصراف الشيخ طاهر بعد الغداء كي ينام الظهيرة فـــي المديـــنة مصـــطحباً سرحان معه. استأذن سرحان طالباً من الإقطاعـــي أن يـــأخذ أمه معه، يعودون بعدها سوية، تزف زوجته التـــي عـــادت عروساً من جديد بإرادة الإقطاعي ومباركة الشيخ طاهر ورضى أبيها. رحّب الإقطاعي:

- سبقني استعجالك، تعال أوّلا سلّم على عائلة عمك أنا الذي رعيت أمك بغيابك ثم غادرْ معها مصحوباً بألف سلامة.

قبّل سرحان رأس والدة الإقطاعي البدينة، تنظر له النساء باستغراب كراع قاده البحث عن عنزته الضّالة إلى كنز مخبأ بين الكهوف.

جلس الشيخ طاهر في الأمام، خلفه في السيارة جلس سرحان وأمه تلبس ثوباً زاهياً، تضع الكحل على عينيها، يفوح منها عطر رخيص، أنكر ابنها ظهورها بهذا اللباس الذي لم يألفه من قبل، غمزته ضاغطة على يديه، تبحلق به فاغرة فاها، دموعها التي أحدثت مسارات في تجاعيد وجهها تهطل بصمت كآخر ما تبقى من عصارة روحها. سال الكحل المطلي سريعاً بأصابع زوجة الإقطاعي على وجه أم سرحان يحيله أكثر سواداً، أشارت لابنها أن يصمت بحضور الشيخ طاهر.

أنزلوهما في المدينة، رفضت أم سرحان أن تبوح لابنها عمّا كابدته في غيابه وهما واقفان في الشارع، خائفة تتلفت، ضاق صدر ابنها:

- ممن أنت خائفة يا أمي؟ تبدل كل شيء، ألا تعلمين؟ نحن في عهد جمهوري زاهر أعطانا الحرية.

ظلت قيود العبودية تكبل عقل أم سرحان زمناً طويلاً بعد التغيير، إذ إن حرية العبد صعبة كعبوديته. ذهبا إلى بيت إسماعيل، أغلق عليهما باب الغرفة، انهارت تبكي تحت أقدامه، أنهضها من على الأرض:

- ارفعي رأسك يا أمي لن تطأطئيه بعد الآن إلا لله، هل عاملوك بقسوة؟

علا نحيبها بعد أن نضبت الدموع:

- أخبروني يوم فرارك أنهم قتلوك، توسلت لهم كي يرشدوني إلى قبرك، قالوا إنهم تركوك في العراء تأكلك الضباع والطيور،

ضربوني حين رفعت صوتي بالبكاء، ظللت أبكيك سراً، أتسلل إلى البــئر ألطــم وأصــرخ داخله، أضيف إلى مائه العذب بعضاً من دموعـــي المالحـــة، نمت مع الأبقار في الزرائب، أعطوني غطاء فقــط، عاملونـــي ككلـــب أجـــرب، أبتعد عنهم مسافة، حتى أنهم يطعمونني من نفس الفضلات التي يرمونها للكلاب، كانت الأبقار خـــير مضيّف لي، كريمة، عطوفة، أفضل من صاحبها، أشخب من حليبها سراً في كل الأوقات، تسد جوعي وفي الليالي الباردة تبرك حولـــي تمنحني الدفء والأمان، مضت أشهر معتقدة أنهم قتلوك، شتمت أم نجاة عند البئر لكنها ضحكت، أسرت لي:

- إنهم لا يزالون يبحثون عنهما.

ازداد خوفـــي ورعبي، تحاصرني الكوابيس في المنام واليقظة، أراهـــم يقتلونك في كل يوم وكأنك بقيت حياً لتموت آلاف المرات كما قال لي الشيخ طاهر:

- ابنك مارق سيلقى مصير الكافرين في جهنم، تتكرر حياته وموته جزاء عظيم جرمه.

توقف هذا الهوان يوم أمس، اختلى الإقطاعي بوالدته وزوجاته ثم دعوني لهم، انتابني أشد الخوف، أردت أن أهرب... لا شك أنهم سيبطشـــون بي بعد خلوتهم... ربما تداولوا طريقة موتي، بعثوا لي ليخنقونني، تقطعني نسائهم بالسكاكين، يرمونني لكلابهم التي طالما تلقفتني عضاً بسبب مظهري المزري حتى وأنا أرمي لها الطعام، انزويـــت مع الأبقار في الزريبة أنتظر موتي، خرج الإقطاعي مع أمه يبحثان عني ينادي:

- أم ســـرحان، ادخـــرت أجور عملك، أحفظها خوفاً من أن تنفقـــيها عبثاً، أنت الآن أغنى من أمي، خذي هذه الملابس الجديدة الملونـــة، اخلعـــي ملابـــس الســـواد، عندما أخبرك الآن بالبشارة

سترقصـــين عارية، اسنديها يا أمي لئلا تقع فرحاً... حبيبك سرحان غداً يكون ضيفي... نصالحه مع عمه أبو نجاة... هكذا الأصول.

تركنـــي لزوجاته أستحم وسطهن كطير هزيل ينتفن ريشه، منذ أن أخبرنني يوم أمس وأنا أعيش بينهن كمن لبّيت طلباته قبل سوقه إلى الإعدام، تسد ريقي غصة الترقب. اليوم كسرن إصبع عطر، ســكبنه كله على شعري وملابسي، لم تألف رائحته أنفي التي يسد روث الأبقار خياشيمه. في الأيام الأولى لهروبك كدت أن أموت، أتصـــورهم يضـــربونك قــبل الإجهاز عليك، ينزل الضرب على كـــبدي، بعد أن علمت بابتعادك تحملت ضربهم، أصبح يمس جلدي فقط.

تذكر سرحان وهو يصغي لوالدته كلام أبي جهاد في الجلسات السرية:

- لا تثقوا بالتقوى الفجائية التي أصابت الرأسماليين، يعبدون أموالهـــم دون الله، يسخرونكم لخدمتها، يتنصلون من وعودهم حتى لو حلفوا بأغلظ الأيمان، رهانهم دائماً على غفلتكم، لن يرحموكم إن آل الأمر لهم مرة أخرى، عرفوا الآن الكثير من الثغرات التي نفذنا منها، ليس غير أجسادكم يغلقون بها فجوات السور. كونوا يقظين، لا تتركوا الساحة لهم، إيّاكم والتهور فانه يقود إلى المهالك، بمعنى كـــل شـــيء له أوان، راقبوا الثمر ينضج ثم اقطفوه، إن تسرعتم بقطفه فلن تقدروا على مضغه، ربما يقف في بلعومكم يسد الطريق وإن تأخرتم عن جنيه بعد نضجه فلسوف يتعفن.

صـــمت ســـرحان صمت البراكين تحت الماء يمنعها ثقله من الصـــعود، يقلّـــب أمـــره بين أن يلعن أبا العهد البائد وأذنابه الذين تركهم أحياء كرأس الأفعى يسترد جسده بعد حين. لم يحدث قبلها أن استرد ذنب رأسه المقطوع وجسده المدفون وعاد ينتقم حتى لو

كـــان ذنب ثعلب، و بين أن يتحاور معهم بالتي هي أحسن لعل الله يهديهـــم، لكـــن متى تأتي الهداية، لا طاقة له على الانتظار لكي لا يصـــبح مثل الذين قادهم حسن عملهم إلى مكوثهم في الكهف أكثر من ثلاثمائة عام.

اســـتمع ســـرحان وآمن بما أخذه عن رفاقه السياسيين، لا يقيم الصلاة في أوقاتها أحياناً لكنه ظل مؤمناً بربه، اهتدى بعد تفكير أن الله أجاز قليلاً من الحيلة والخداع مع المراوغين، عليه أن يسايرهم حـــتى عودتـــه إلـــى القـــرية وزواجه مرة أخرى بنجاة وإلا قلب الإقطاعـــي الأمور يؤازره بذلك الشيخ طاهر الذي سوف يصرخ بوالد نجاة وأبناء عمومته:

- ارجموا الزاني والزانية.

يحلل لهم استعمال الخناجر والرصاص بدلا من الحجارة. زال صـــمت سرحان يبتسم لوالدته، تكور بجسده طفلاً في حضن أمه، يشـــم رائحة حليبها، يسمع كلامها عن القرية كأغاني المهد تهدهد روحه الغضة.

عـــاد أبـــو جهاد يسمو في نظر سرحان أباً ومعلماً وأخاً. كان الآبـــاء في القرية يتوسلون للشيخ طاهر أن يرسل لهم أحد الملالي كـــي يعلمهم قراءة القرآن، ينظر بطرف عينه إلى الإقطاعي، يلتقط هزة رأسه بالنفي، يجيبهم:

- لا يوجد ملا عاطل عن العمل يأتي إلى قريتكم.

هـــا هو سرحان الآن يقرأ القرآن بواسطة أبي جهاد المسيحي الذي علمه القراءة.

ركبـــت أم ســـرحان القطـــار لأول مرة تجلس كطير برّي في قفص، تكثر من النظر إلى الجالسين، استغربت عدم حدوث شجار

بيـــن الأفندية ومعتمري العقال واليشماغ كما كان يروي لها زوّار العتبات المقدسة من أهل قريتنا، استفسرت من ولدها رد ضاحكاً:

- كان هذا في العهد البائد.

عاشـــت أم ســـرحان يومين في بيت ولدها السرّي الذي لم يعد ســـرّياً كأنهـــا ماتت وانتقلت إلى الجنة، تخدمها نجاة... ما أحلى أن يـــتلذذ الخـــادم بطعامه الجاهز. في اليوم الثاني لوصولها مارست دور الحمـــاة التاريخـــي وكنّـــتها الجديدة، تأمرها بتغيير ملابسها القصيرة الضيقة، ترد الكنّه أنها لا تلبس هكذا إلا أمام زوجها في البيت.

لـــم يشـــأ سرحان أن يغضب والدته بعد عنائها الطويل الخالية أيامه من الفرح، تصر الأم:

- نسيتم الحياء في المدينة، ترتدي زوجتك هكذا ملابس.

أمر زوجته بتغييرها، أسرّت له الزوجه:

- لـــيس عندي ما يرضي أمك غير الملابس التي هربت بها معك إلى المحطة.

أراد سرحان أن يبهج والدته، عرج بهما في طريق العودة إلى أضرحة الأئمة، حلم أمه القديم، تراءت المنائر الذهبية لمرقد الإمام علـــي بـــن أبي طالب عن بعد، شموس تكتسب اشتعالها من توهج الرجل الراقد على ثراها.

طافوا حول الضريح، نذرت أم سرحان الامام إن حملت زوجة ابـــنها، تلقّفهـــم أحد السدنة يسألهم تسليمه أموال النذور، أعطته أم سرحان بعضاً من النقود التي وهبها لها الإقطاعي. يمازحها ابنها:

- هل هي حلال هذه النقود؟!

تجيبه متضايقة:

- لا أعرف من أين أتى بها، أعرف فقط أنني دفعت في كل فلس من عرقي وشقائي.

يتدافع الناس داخلين وخارجين يسلمون على الإمام ويودعونه، يـــرد عليهم التحية لا يفرّق بين وجيه وفقير، يدخلهم جماعات إلى مجلســـه الوحـــيد الذي يتساوى فيه الأحياء والأموات، تسلّم عليه الجثـــث فـــي توابيـــتها، تصافحه، بعد دفنها إلى جانبه في مقبرة الغري.

بهرتهم الزخارف على الأسقف، المرايا الجانبية تعكس دوران المـــراوح و الوجـــوه، عطر ماء الورد والبخور الممزوج برائحة عرق الناس المكتظين، يتشممونه كرائحة ولي من الأموات، يتزايد التدافع وأحيانا السباب قرب شباك الإمام، يمسكه البعض بكلتا يديه لا يـــريد تـــركه، كأنـــه يمســـك بثوب الإمام الزاهد الجالس على الحصير، وليس على من ألبسوه حلّة الذهب في عصرنا. طلبت أم ســـرحان من ولدها البحث عن قبر والده، أخبروها في حينه أنهم أرسلوه يدفن هنا، كل ما تعرفه أن دفّان موتى قريتنا يسمى سعيد، ذهـــبوا يبحثون عن سعيد الوحيد الذي يدخل الموتى لقلبه السرور. سألهم عن اسم الميت أجابته:

- صيهود أبو سر حان.

- ما اسم والده؟

- هملان.

فكر قليلاً:

- لـــم أركم تزورونه كل عام بذكرى وفاته، ولا في زيارات الأولـــياء يؤمّها الناس عدة مرات في السنة، نسيتم ذكرى المرحوم والصدقات على روحه.

سـلّمته أم سـرحان بعضاً من نقود الإقطاعي، انشرح الدفان يسألها:

- في أي عام كانت وفاته؟
- في سنة لوعة
- وما هي لوعة؟
- سنة القحط و الجوع والفقر.
- متى كانت هذه السنة ؟

لـم يمـر عـام علـى سعيد عرف فيه الجوع إذ إن الأموات يطعمونه بأفخر الموائد. قاطع سرحان أمه:

- أواخر عام الفيضان.
- نعم، عرفت الآن، إنه عام 1954، هل مات غرقاً؟
- كلا، مات قتلاً.

قـادهم سعيد إلى قبر مجهول، تلقى صاحبه بكاءهم وصلواتهم ودعاءهم.

ذهـبوا يصلون الظهر في مسجد الكوفة حيث شهدت الأرض تحولات مثيره على يد آدم ونوح الراقدين على قبلة المسجد.

غـادروا إلـى كربلاء مدينة الحزن الأبدي، استقبلتهم مناراتها على البعد شمساً حمراء تكتسب توقّدها من دماء الرجل الراقد على ثـراها الـذي عـانى الكرب والبلاء قبل مقتله، تجاورها يدا أخيه المقطوعـتان يـرفعهما إلـى السماء تدعوان الإله شاهداً على ما أصـابهم، ظلتا تحملان الراية الخضراء منارة يراها الزوار على البعد تصطبغ بدماء الحسين، لقد كان ثمن رأس يحيى بن زكريا أن تـرقص سـالومي عاريـة أمام زوج أمها، فماذا كان ثمن رأس الحسـين؟! أن تظل أرض العراق تنوح أبد الدهر... كربلاء أبدية... على ساحتها يختلط العويل والدماء.

دخلت أم سرحان ضريح الإمام العباس خائفة ترتعد، تلتصق في ذهـنها الأسـاطير عن (رأسه الحار) الذي يحرق كل من يرتكب أدنى هفوة في مقامه متناسية أنه كان أكثر الضحايا تعرّضا للمشقة حيث قطّعوا جسده وصلة بعد أخرى.

لـم تـنفع معهـا تطمينات ولدها أنه سيشفع لها عند ربه كأحد المعذبيـن الذين خبروا الظلم. ما هدأ خوفها إلا عندما خرجت من الضـريح ودخلـت مقـام الإمام الحسين المقابل له، رمز القبور وعمـيدها فـي الدنيا، هالهم ما وجدوه من براعم الذهب المنثورة على القبر إذ إن الدماء لا تنبت الذهب إنّما الذهب كان دائماً يريق الدماء.

كما فعل الإقطاعي سابقا يدعو أفندية المدينة من ذوي الكروش ليتباهى أمام الفلاحين بنفوذه، أراد سرحان أن يحضر حفلة عرسه أفـندية من المدينة نحاف يلبسون البنطلون، يتكلمون نفس مفردات السـمان السابقين التي كان فهمها يستعصي على الفلاحين، يظنون أنها مفردات المعرفة والثقافة العميقة مع أن بعضها نكات بذيئة.

عـرج سرحان على بيت إسماعيل، التقى كريم أيضاً الذي عاد مـع والدتـه يقيمان في المدينة، رفضت والدته العودة إلى القرية، وافقها ولدها إذ لا يوجد مكان فيها يزوره ببدلته الزرقاء العمالية. تداول سرحان معهما بأمر حفلة عرسه، أجاباه مازحين:

- هل تتزوج امرأة أخرى؟!

- هربـت بأمـر الإقطاعي وأعود عريساً بأمره أيضاً، إنها تضـادّات العهديـن القديم والجديد، يريدها رشوة للمؤلفة قلوبهم، سأتظاهر بقبولها لكني أدبر أمراً أنتم بعض أبطاله. أكبر المكاسب التـي سوف أحصل عليها من تقوى إبليس هي عودتي إلى القرية ونسـيان والد نجاة وأبناء عمومته للثأر، وعد الإقطاعي أن تكون

نفقـــات الحفل على حسابه، جلبت له حلّة نفيسة مع عباءة كهدية، كذلـــك للشـــيخ طاهر الذي أعتزم الطلب من الراقصة الغجرية أن تهز له وسطها من الخلف ثم تقترب منه على أنغام (الهجع) تغمز لـــه بطـــرف عيـــنها. مهر نجاة أدفعه بالكامل. لن أدع الإقطاعي يتصـــدق علـــي بـــه، سأقبل منه طعام العشاء إذ ليس عندي من يستطيع تدبير الطبخ، أنت يا كريم أريدك أن تخدم في عرسي ببدلة العمـــال الـــزرقاء، تغيظه مرتين، بوجودك وبالبدلة، تجعل من لحم ثـــوره عسير الهضم ليلتها عليه. اجمعوا لي كل أصدقاء إسماعيل مـــن ذوي الـــياقات البيضاء، لا تنسوا الحاج عبد الواحد صاحب الدكـــان نحتفـــي به كأكبر الوجهاء مقاماً، ابعثوا لأبي جهاد المعلم الأول لـــي، لكن شددوا القول عليه ألا يذكر بأنه مسيحي. امتعض إسماعيل:

- ألا تخجل؟ الأولى أن تذكره بتبجيل.

اعتذر سرحان:

- لـــو كـــان بيدي لاعتنقت دينه ثم إنه لا دين له، كلانا على دين السياسة الواحد.

أضاف سرحان يبرر موقفه:

- لجلـــي عقول الفلاحين المتراكم عليها سواد الدهور، عليك أن تحرك يدك بنعومة لكيلا توخزهم.

- يبدو أن أبا جهاد عندنا غيره عندكم وإن تشابهت التسمية.

- اعتاد الفلاح أن يمشي على أرض منبسطة، لا يعرف القفز على الدرجات.

لم يقتنع إسماعيل، يعاند:

- مسيحي، مسلم، صابئي، اكنسوا مخلفات العهد البائد.

تدخل كريم:

- مـــا يقصده سرحان عدم التسرع في كل شيء، إن خالف أبو جهاد الشيخ طاهر في الحديث ثم علم أنه مسيحي فسوف يترك المجلـــس معلنا عدم مجالسته للكفرة، يعطي أول الخيط للإقطاعي الـــذي ينسجه عنكبوتاً، يلفه حولنا، ثم لا يرانا، الفلاحون لا زالوا ينظرون بعيونهم ذات الحدقة والبؤبؤ تشتبك عليهم الألوان، قلوبهم سوف تبقى مدفونة زمناً في الظلمة تهتدي لأول بصيص نور تراه، إيّـــاك يا إسماعيل أن تجعل النور ينهمر عليهم دفعة واحدة، سوف يعميهم ذلك ليضلوا طريقهم ويسقطوا جميعاً في حفرة الإقطاعي، صبرهم قليل لا ينتظرون الغد، يتمسكون بالماضي رغم بلواهم. إن شـــئت أن تتحدث معهم اذكر المساواة بين الفقراء والأغنياء على هـــدي علـــي بـــن أبي طالب وأبي ذر الغفاري، ليس على طرائق ماركس وانجلس مباشرة.

- لكن ماركس وانجلس وعفلق أكثر حداثة.

ضحك سرحان:

- لا زال الســـيف ســـلاحهم المفضـــل يلـــيق بالخيول التي يمـــتطونها. ربمـــا يستبدلونها حين تجلب لهم اشتراكيتك الكهرباء والسيارات.

أضاءت أنوار (اللوكسات) المشعة كقمر ساطع المضيف، تلقي بنورها على وجوه الغجريات السمراء، تضيف لها بياضاً يختلط مع أصباغ المكياج، يجعلهن أكثر جمالاً.

يشـــترط الغجـــر دائماً أن يغادروا حفلات الأعراس قبل طلوع الفجـــر، يتسترون بالظلام خوفاً أن يفضح الصبح وجوه الغجريات القبيحة بعد أن يغسل عرق التعب بدموعه الأصباغ، يحيلها السهر المنهك سواداً.

تصـــدر الإقطاعي والشيخ طاهر المجلس منذ العصر، ضيوف ســـرحان جاءوا من المدينة بعد الغروب بسيارات كثيره فاقت ما كان يأتي به الإقطاعي أيام مجده.

تلاقت نظرات الإقطاعي والشيخ طاهر، رطناً فيما بينهما (بلغة الريحان) ثم مال عليه:

ـــ خدعنا... ظنناه حماراً...

تحولت حفاوة الفلاحين من الشيخ طاهر والإقطاعي إلى زوار المديـــنة، يلبسون البدل والقمصان، زي التعليم والثقافة. يعجب بها الفلاحون دون أن يحلموا بارتدائها إذ أنهم لا يستطيعون السير فيها وهم حاسرو الرؤوس تتكور مؤخراتهم في ضيق البنطلون.

توزع أفندية المدينة على المجلس كل واحد يلتف حوله عدد من الفلاحيـــن. وضع كل أفندي عشقه في قلوب بعض الفلاحين، تلك الليلة أصبحت فيما بعد داء" أوصلهم إلى الهلاك.

رشيد اصطحب معه أخاه سعيد لكنهما افترقا في عشقهما، جلسا مـــع ياسين وعدد من الفلاحين، فرحان اختلى به شاب ملتح بعيداً عن الغجريات يحذره من الانغماس في مفاسد الدنيا، يبحلق فرحان وأذنـــاه يغلقهما صوت الغجرية الطروب، قطع الشاب حديثه عائداً للمجلس، أغضبه سؤال فرحان:

– لماذا لا تلبس عمامة؟ أنت أول أفندي يوعظ.

كانـــت تلـــك الليلة ليلة الغزو الأول للتيارات السياسية تكسب أســـرى، رهائـــن، يرســـلونهم إلى الخطوط الأمامية لتلقي كثافة النيران. وقع كل هؤلاء الأسرى في هوى سجّانيهم، لم ييأسوا رغم قســـاوة قلوب محبّيهم الذين فازوا منهم بقبلة أوصلتهم إلى الموت كقبلة يهوذا.

تفـرق الفلاحون يجلسون بعيداً، أبقوا الإقطاعي والشيخ طاهر وحيديـن دون حفـاوة، يتوزع ذهن الشيخ بين غضب الإقطاعي وتمـايل الغجريات، يكشفن له بمكر بعض ما خفي من أجسادهن، لحما يتوق الشيخ طاهر لأكله نيّئاً.

اشتد حزن الإقطاعي يسمع الغجرية تردد أغنيته المفضلة التي كانت بديعة الراقصة تغنيها له في ملاهي العاصمة يوم كان يتحلّق حوله جمع من المريدين ينثر فوقهم النقود، يتجاهلونه الآن، يدفعٍ لهـم كفّارة الاستماع إلى أغاني الغجريات بأمواله، يذبح لهم ثوراً قربانا يقيه شرور العهد الجديد... سرحان ابن خادمته يجلس وجيهاً محاطـا بأصحاب الياقات البيضاء، يتوزعون في أقصى المجلس قـرب الأحذيـة والـنعول، يستندون على أكتاف الفلاحين خلاف أصـحابه السابقين ذوي الكروش الذين يجلسون بعيداً على تخوت يجلبها خصيصا لهم من المدينة، لا يسمع الفلاحون حديثهم.

اسـتمرت لـيلة اللهو والعمل إلى ما بعد منتصف الليل. غادر الشـيخ طاهر بعد أن أكل جدياً، رافقه الإقطاعي بحجة توديعه ثم ذهب هو الآخر إلى بيته ينقذ ماء وجهه.

رقد على سطح الدار يسمع درابك الغجر طبولاً تقرع لإعدامه، أصوات الغجريات تفزعه إيذانا بتنفيذه. مع أول ضياء عاد الهدوء يقطعـه ثغـاء الأغنام الجائعة تنتظر رعاتها الكسالى من السهر. الغائب الوحيد كانت أم كريم رفضت كل توسلاتهم، تشاجرت معها أم سـرحان، كادت أن تشتبك معها بالأيدي حتى أنها لم تصغ إلى الحاج عبد الواحد صاحب الدكان الذي جلس ليلتها بجانب سرحان يكتسب احترام القدّيس بدلاً من الشيخ طاهر.

فـتح العهد الجديد نوافذ وأبوابا كانت موصدة بأشد مما هي في السـجون، تـبدل الهـواء والشـمس والبيوت، خرج منها الناس

يصـــرخون، يتصـــارعون بيـــنهم شيعا بدلاً من أن ينعموا بمائدة السـماء التي نزلت عليهم فجأة، هبة لم يتوقعوها، لا يستقرون في مكان واحد كحجر متدحرج، يتهمون بعضهم هاتفين:

- طلعت الشمس على الحرامية.

مع أنهم جميعاً ضحايا اللصوص الذين لا تغرب لهم شمس في كـــل العصـــور، ثـــم إن هذا التعبير يتمثل به الناس رغم خطئه، فالحرامية لا يسرقون في الليالي التي تكتمل بدورها، القمر هو من يوقف الحرامية عن عملهم المشين.

بقيـــت مدينتـــنا رغم محاولات الإصلاح عبارة عن تجمع من بـــنايات مهترئة ذات دور واحد ومجاري طافية وأرصفة متكسرة وشوارع محفورة يغمرها الطين الناتج من ترسبات الغبار الكثيف في مواسم الأمطار، قيست حيويتها كمدينة مميزة بارتفاع الصخب والعنف السياسي فيها وليس باتساع البيع والشراء وحركة التجارة، لا تـــؤدي عبادتها بالصمت والقنوت وإنما تؤديها بالنواح والتمرد، لكـــنها اتسعت على الضفة اليمنى للفرات بسبب مشاريع الإسكان التـــي عمت أرجاء البلد بفضل الزعيم الجديد الذي أوجدها مساكن شـــعبية أسكنت العديد من العوائل الفقيرة، هذا الزعيم أثار اهتمام الـــناس أكثر من اهتمامهم بأرضهم وأهاليهم، انقسموا أغلبية تؤيده وأقلـــية تعاديـــه، لكنه ككل الحكام الفرديين الأغبياء قلب كل شيء بأفعالـــه، تضـــاءلت الأغلبية وازدادت الأقلية إلى أن عرضته في الـــتلفزيون مشـــنوقاً يتدلى رأسه رغم نواياه التي بدا بعضها طيباً ونظافة يده المشهودة.

تصـــارعوا على الأوهام يعطون الموت لبعضهم ويبقون الحياة لأنفسهم إلى أن تمكن منهم الموت جميعاً، لم يبق لهم حتى نخيلهم

التـــي تسّـــاقط رطباً، بعدها غربت الشمس تجمع ضياءاتها تترك الناس شواهد على قبور.

لـــم يدم العشق الجميل، نفثته سهام كيوبيد بأجنحة طيور الحب، صغيرة زاهية الريش، جميلة الشكل لكنها لا تعيش طويلا، تتبخر ذكــراها ســـريعاً خلاف سهام إله الحرب، تترك ثاراتها تتولد، لا تتمحـــي مـــن ذاكرة العنف. كم هي المرات القليلة التي يسعد فيها الحب الذي يملأ القلب سماحة؟

كـــل المحبين الصادقين طلبوا الثأر من أبناء عمومتهم، تركوا لأخواتهم أرامل، لم يروضوا أنفسهم بالصبر، ركبوا خيول الغرور الجموحة ترمح بهم بلا لجام.

المديـــنة تلم ناسها أجسام ديناميت تكاد تنفجر، إسماعيل لا يرد التحية على رشيد إذا ما تصادفا قرب بيتيهما، جعفر يضع صورة جمال عبد الناصر في ديوانيته، يظنه وريث الملك فاروق دون أن يعلـــم أنـــه صعيدي له وجه وقلب سرحان وكريم القرويين، حتى ســـعيد تخاصـــم مـــع أخيه رشيد، إذ أنه أصبح لكل خيط وعصا وشـــارع طرفان، أحدهما أيمن الآخر أيسر، تتبادل الأيادي القبض على كلا الطرفين كي يجلد به الطرف الآخر دون أن يكون الموت ثمـــن الخطيـــئة، فكثيراً ما كان طريق الشرف هو الذي يؤدي إلى الموت.

أرادت أم كريم أن تقصي ماضيها، سعيدة هي في المكان الذي يطعمها دون شقاء، رغيف الخبز كانت تصنعه منذ البذرة الأولى، تســـاعد الإلـــه في سقيه وإنباته وحصاده ودرسه وتذريته وفصل حبيباته عن تراب الأرض ثم طحنه وعجنه وجمع الحطب وإشعال التـــنور وخـــبزه، كل هذا العناء ولى بفضل فرن الخبز المجاور لســـكنها، يســـأل الماريـــن في الشارع عن اختلاف دائرة قرص

الرغـيف بين تنور القرية وفرن المدينة كمن يطلب النصيحة من الرحالة المسافرين.

احتل زعيم العهد الجديد مساحة واسعة في قلوب الناس، معظم المواليد الجدد سجلوها باسمه، مشغولون بالتأمل في بساطة ملبسه، بلقاءاته العفوية معهم، بانحداره من الطبقات الشعبية البسيطة الأمر الـذي أثـار حفـيظة الأثـرياء والساسـة يسخرون من أصوله المتواضـعة، يسـلطون نـيرانهم على والدته لمنشئها الديني غير المنتمـي لمذهب الطبقة الحاكمة. وصل إلى رأس السلطة بألمعيته كضابط نظامي محنك يعامل جنوده بآدمية لا تتوافر في غيره من الضباط الذين يسوقون الجنود كالبهائم. عاش حياة ناسك في غرفة واحـدة في مبنى وزارة الدفاع، لم يتزوج أو يتخذ عشيقة رغم أن (الصابونجية) لا تبعد كثيرا عن مقر إقامته، تبرع بمرتبه للفقراء، رأس مجلـس الـوزراء طوال فترة حكمه البالغة خمس سنوات، يجلـبون غداءه في (صفر طاس) مكون من رغيف خبز وحساء، أمـا عشاؤه فكباب من ساحة (الميدان) يجبر وزراءه على تناوله حيـن تمتد جلسات المجلس إلى الليل، لكن الدنيا بمسيرتها الطويلة تـترك أسـئلة ليس لها جواب، لم يكسب هذا الرجل الوطني عند نهايـته غير لقب (دكتاتور) أغرب صنف من أمثاله، لم يحدث أن كـره الأثرياء والوجهاء دكتاتوراً، حتى زملاؤه الذين جاءوا معه بالعهد الجديد من الضباط وأحبته الطبقات الشعبية، أول حاكمٍ فرد يهمل تقارير المخابرات الملقاة على مكتبه، لم يجعل له وسيطاً بينه وبيـن الـناس، بعـد مقتله تنبه الحكام إلى غفلته، وضعوا حراب المخابـرات تفصـلهم عن الناس ثم أطلقوا رصاص كاتم الصوت للذي يريد الفتنة! لكن الفارق أنهم لن يجدوا إذا حانت منيتهم أحداً

يمـــوت دونهـــم، حتى أن المئات من الناس من الذين لا يعرفونه جادوا بأرواحهم دونه، يضعون أجسادهم تفصل بينه وبين الحراب.

حصـــر الزعيم الجماعات التي تدعي انتماءها للطبقات الشعبية فـــي مساحة ضيقة، يحشرها في الزاوية أحياناً، فهم يريدون السير مـــع الجماهـــير وهذه تهتف بحياة الزعيم الأوحد، لذا أصبح لزاماً علـــيها أن تشـــاركهم هذا الهتاف، وبما أن الزعيم يسير على غير هـــدى فـــي الشـــوارع والمنعطفات والحواري، لذلك أضاعهم في الأزقة المسدودة قبل أن يجد طريقه مغلقاً.

مرة أخرى تترك الدنيا بمسيرتها الطويلة أسئلة ليس لها جواب:

– لمـــاذا يترك العشاق حبيباتهم الجميلات الواعدات ويلهثون وراء العاهرات ليقتلوا في مشاجرات السكارى أواخر الليل ؟؟!!

إســـماعيل وجـــاره رشـــيد كلاهما زملاء دراسة لي يتبادلان الـــنظرات الشرســـة، دعوتهما لغرفتي التي استأجرتها قريبة من بيتـــيهما، أصر كل واحد ألا يحضر لدعوتي إذا جاء الآخر، أردت استفزازهما:

– أنا لم أنتم لأي تنظيم، سأختار أحدكما إن تحاورتما كأخوة.

ردا بصوت واحد:

– لسنا أخوة.

– حسنا، كسياسيين.

تبادلا الصراخ، أحدهما يزعق:

– الزعيم يريد فصل البلد عن أمته، إنه شعوبي.

يقابله الآخر:

– رائد القومية العربية طامع في بلح وبترول البلد.

لقد حدث أن كان الصراع بين الزعيمين، زعيمنا الأوحد ورائد القومـــية العربـــية الـــذي ترك جروحاً مفتوحة إلى الآن بمستوى

صـــراخ وتفاهة النقاش الدائر بين إسماعيل ورشيد، والذي أقنعني ألا أنتمـــي إلـــى أي جانب، لكن من الذي يستطيع في ذلك العرس الجميل ألا يرقص على طبل؟

كانوا لا يريدون إلا الأحاديث التي ينتظرون و يحبون سماعها، يهملــون مـــا عداهـــا حتى لو كانت حقائق دامغة، يملكون أفواهاً مفتوحة وآذانا نصف مغلقة، تغنوا بالاستشهاد كحلم يتمنونه جاعلين مـــن الحســـين مسيح العصور صليباً يحملونه، صرخوا في وجوه إخوانهم:

– هيهات منّا الذلّة.

فـــأذلوا وطـــنهم وأنفسهم جميعاً. لم يحملوا سمات الحسين ولا كانـــت الأرض التـــي يقاتلون فوقها كربلاء رغم أنهم لقوا مصير الحسين.

يوقـــف الزمن أحياناً عجلته الدائرة إلى الأمام، يعود بها سائراً بالمهازل إلى الخلف، يستعير من حماقات دويلات قشتالة معاركهم التـــي لـــم تنتـــه واحـــدة منها بانتصار، لا يرنو بعينه صوب أور الملاصـــقة لـــنا والثابـــتة في وجه الزمن، يتجنب المرور بالقلاع المائـــية التـــي بناها الهروب من الهزائم، وقمم الجبال التي بناها الـــرب سكناً للهاربين، فما بين فينسيا المحمولة على الماء بسيقان أهاليها الخشبية الهاربين من البربر وجبال كردستان التي تحتضن الهاربيـــن، تمتد سهول شاسعة من الألم. مارسوا طقوس القرابين، يحملون المشاعل فرحين، يرقصون، يغنون، يشربون حتى الثمالة، لـــيس بيـــنهم أحد يرتجف غير الضحية وكأنها لم تخضع لتعسف البشر.

أصبح الضباط فتيان الأحلام الوردية عند الفتيات، فروسية ليس لهـــا زهو الخيول، تمتطي دبابة، ليس مهماً أن يأتي الفارس راكباً

حصـــان الخـــيالات الأبـــيض، دعه يأت على أي راحلة شرط أن يحمـــل علـــى كتفيه نجمة، لكن مصادفات السعادة هذه مرت على طرقات الحزن، تلونها كلوحة نفذت أصباغها، حتى الجندي العادي له مقام، يرتدي الحلّة العسكرية الكاكي أحلى الألوان، يسمع كلمات الإطراء:

- أبو خليل شدّة ورد.

لـــم يتصور الناس أن هذا القماش الكاكي سوف يكون الأكفان التـــي تلـــف أجسادهم، أرادوا للجيش رديفا شعبيا يتزين بالقماش الكاكي يسحر قلوب الفتيات.

انـــتظم إســـماعيل وكـــريم بالمليشيات الشعبية يمدان يد العون لـــبعض فـــئات المحرومين، يوقفان التطاول عليهم بلا مقابل سوى المتعة التي يجلبها العمل التطوعي.

علـــى رأس هـــذه المليشـــيات نصبوا عبد الخالق، فتوة يحمل عضلات بدلا من رأسه، سألت إسماعيل:

- عبد الخالق الفاشل في دراسته ما غيره؟!

أجابني تأخذه العزة بالإثم:

- إنه مقدام لا يعرف الخوف.

- مـــتى كان التطاول شجاعة؟ هل ستفعل لو أمرك بضرب أحـــد؟ أنـــتم تديرون حرباً أم تساعدون الناس على احترام قوانين الحياة التي لا يفهمها رجال الشرطة؟

لم يتراجع إسماعيل عن دفاعه، ليس لشخص عبد الخالق الذي يمقـــته، بـــل لجهة صاحب القرار، يطيعونها أوامر إلهية، إغفالها بمثابة الكفر، وجود عبد الخالق بينهم كمرتد غفر الله له، يكفر عن ذنوبه بخدمة المجتمع كمن يدخل تيساً في حظيرة طليان.

هكــذا أضـــاعت حماقـــات عبد الخالق عمل إسماعيل وكريم التطوعي الشريف. يحلق إسماعيل بجناحي نواياه الطيبة:

– أصحابي هدفهم خدمة الناس، لا يقبضون فلساً عن عملهم المضني، ربما يدفعون من أرواحهم إن حكم الثمن.

أشرت له بالهبوط:

– لا أشك في نواياكم لكن ما لها القرارات الجيدة تنفذ بشكل ســيئ؟ لمـــاذا يكــون عبد الخالق بدلا منك؟! عضلاته بدل عقلك المســتنير، بذاءته بدل حيائك، إن لم تتداركوا الإصلاح سريعاً فان من المؤكد دفعكم الثمن من أرواحكم.

آلمنـــي أن أرى الأخوة يتبادلون الضرب، وأبوهم عاجز ليس فقــط عن المصالحة إنما عن فض الاشتباك بينهم، حملان عاشوا داخل حظيرة مغلقة زمناً طويلاً، تناطحوا يهيمون فرادى في قفار الصحارى تتلقفهم الذئاب الجائعة تاركين حظيرتهم المفتوحة تحتلها الغربان.

دعوت إسماعيل ورشيد وجعفر، أحضرت لهم بعض السندويج، أخذوا يمضغونه بلا شهية، ذكرتهم:

– كــم كـــان طعــم هذا السندويش لذيذاً ليلة آخر انتخابات برلمانية في العهد البائد، تلتهمونه سوياً أشهى من موائد الباشوات، يــوم كـــنا روحاً واحدة وذراعاً واحدة استعصى ليّها على وكلاء الباشـــا، هـــا أنـــتم تلوون بعضكم اليوم! غدا ستكسرون أذرعتكم جمــيعاً. لـــن تجدوا من يجبّرها لكم... هناك متّسع لكم جميعا في ائتلاف...

ردّوا بصوت واحد مختلف في لهجاته:

– ائتلاف مع من؟

– مع ماركس اليهودي!!

- مع عفلق الماسوني المسيحي!!
- مع عبد الناصر الفرعوني!!
- كلا.. كلا.. كلا..

قاطعتهم غاضباً:

- متى أصبح أبو جهاد وأبو عروبة وأبو عامر يهوداً وماسونيين وفراعنة؟ ألم يكونوا وطنيين تحملوا مشاق التعذيب والسجون، وسالت دماؤهم في مجرى واحد؟

تراشقوا الاتهامات، كل منهم يدعي عدم علمه بنوايا الآخر يوم كانوا هدفاً مشتركاً في العهد البائد. مرة أخرى أقاطعهم غاضباً:

- تعلمون جيداً، برامجكم مدونة في نشراتكم السرية السابقة... الاستئثار هو ما يحرككم الآن، أخوة يتصارعون بضراوة على إرث أبيهم الميت.

رد أحدهم:

- بل مغانم حروب لا تتوزع بالتساوي.
- أخطأ كلانا، ليست إرث والد ميت تتم تسويته على شرع الله و لا غنائم حروب، إنها ضريبة دماء ثمنها باهظ، إن كان للدماء ثمن! من يحق له أكل أموال الشهداء؟ ادعوا رؤساءكم اليهود والماسونيين والفراعنة لينفوا عنهم التهم.

كم كنت غشيماً ساعتها إذ آمنت بأن هؤلاء السادة الكبار يستطيعون الجلوس سوية كما كانوا يفعلون أيام العهد البائد لينهوا عراك الأخوة ويحفظوا أموال الشهداء، لم أعلم أنهم قد فتحوا دكاكينهم التي تفرعت بعد ذلك في كل الحواري، يباع بعضها بالمزاد، يحرضون أتباعهم للنيل من أخوتهم، يخلعون صفات الأبطال على القساة منهم.

تشابك الصراخ ولم أعد أسمع سوى:

- رجس.. أشمئز.. عاجزين.. غرور.. باغين.. مكائد.. فتنة.. سرّاق.. إكراه.. انفصام.. طاغوت.. فارغ.. خطأ.. انتقام.. هزائم..

أزهرت بذور الأحقاد تروى بواسطة التجار والإقطاعيين ورجال الدين وغباء أصحابي، يجلبون ماءها من المستنقعات الآسنة بدلا من ماء الفرات الصافي الذي ظل يحيّي العشاق الواقفين على درابزين الجسر، يحلق بهم سفينة تحملها الغيوم.

لم يمت العهد البائد، عاد أكثر ضراوة وخبثاً، يجمع مواليه، لعق جراح الطعنات التي أصابته بلسان كلب. روائح أزهار الحقد تلقي بعطورها، تحملها الرياح، يجري وراءها العاشق، يقظاً، أعمى، تصيب العازفين عن التطيب بها من المبصرين بسبات عميق ينقلهم إلى الآخرة، لكن تحت هذا الحقد المتنامي يكمن حب للزهور ظلت بذرته داخل الروح يسقيها أقرب شريان إلى القلب.

اتهمني إسماعيل ورشيد و جعفر كل منهم بالوقوف مع الآخر، نلت سخطهم جميعاً إذ إن من يكون مستقلاً يملك أكبر قدر من الاحتقار.

تتابع الظلم بعد ظلم، يقتلون بعضهم كالقطط السائبة تؤدي إلى تكاثر الفئران التي تختفي في جحورها تحتنا، تظهر متى شاءت، وإذا ما استعملنا المبيدات سنشيّد مقبرة داخل منازلنا. بين الحين والآخر تفتح فجوة، يطل منها نور، بعدها يتلاشى كقنديل نضب زيته أبداً ولن يهدي الهائمين.

تقاطر الفلاحون على المدينة مستجيبين لدعوات الراديو، يحثونهم على مراجعة دائرة الإصلاح الزراعي، يهيمون داخل منعطفات الروتين، أمّيون ينشدون صكوك الغفران من يد محتالين.

تشكلت جمعياتهم أجنّة اقتضت ولادتها حولين من الحمل، أخّرتها تعاويذ الشيخ طاهر وعقار الدكاكين المملوكة للإقطاعيين،

نقابـــات العمـــال تشـــكلت سريعاً على هدير الخطابات وتصفيق الأيادي، أبرزها نقابات النفط والسكك الحديد والموانئ وغيرها من مـــرافق الحكومـــة، موظفـــون صـــغار لدى الدولة ليس لهم سمة الاســـتغلال مـــن أربـــاب العمـــل، أصبح رؤساء نقاباتهم يملكون امتـــيازات تفوق كبار الموظفين. قوانين العمل الجديدة في القطاع العـــام أنصـــفت بشكل عام بعضاً من حقوقهم، أرادها الزعيم سبباً لمـــزيد مـــن التصفيق وليس نتيجة لنضالات نقابات العمال. نقابة عمـــال البناء الهامشية وجدت نفسها وسيطاً بين العمال والمقاولين الذين تدرجوا من عمال إلى فورمنية ثم مقاولين صغار يستأجرون أصحابهم باليومية، لا أدري لماذا لم تسمَّ تنظيمات الفلاحين المهنية بـــنقابات إنمـــا أسموها الجمعيات الفلاحية حيث يوجد الاستغلال المباشـــر من قبل الإقطاعيين. لا يحسن فلاحوها التصفيق بالأيدي بـــل (بالهوسات) التي لم تتعود آذان الثوريين من المدن سماعها. تأخـــرت ولادة أجنّتها، جاءت شوهاء تشكو من العلل، أدخلوها دار المسنين لحين وفاتها.

تتابعـــت زيـــارات الشـــيخ طاهـــر إلى القرية، تقابلها بالاتجاه المعـــاكس زيـــارات ســـرحان إلى دائرة الإصلاح الزراعي في المدينة.

فـــي المـــرات القليلة التي أزور بها عائلتي في القرية يأخذني والـــدي معه إلى المضيف، قاعة المحاضرات الوحيدة في القرية. برع الإقطاعي في إدارة جلساتها، يهتف لدى دخول الشيخ طاهر:

- اللهم صل على محمد وآل محمد.

يبجله كولي من أولياء الله، يسرّ لي والدي:

- فـــي العهـــد الماضي كان يترك الشيخ طاهر أياماً ينتظر وحده في المضيف وهو غارق مع الغجريات في الغرف الخلفية.

لــم أعد أخشى التصدي لأكاذيب الشيخ طاهر، يشجعني والدي سرّاً، بدا الشيخ أكثر ضخامة، يظهر عليه سخاء الإقطاعي.

ارتجــل حديــثه بالبســملة يعلو صوته بها ثم يخفت، يعيد ذلك مرات:

- قلــت للحــاج (يقصــد الإقطاعي الذي لم يحج) أن هؤلاء المؤمنيــن لا يمكــن أن ينساقوا لإلحاد الإصلاح الزراعي، يبدلون دنياهم الفانية التي قال عنها الإمام علي بن أبي طالب: إليك.. إليك.. عنّــي. بآخرتهم التي سوف يأكلون من ثمارها ما لم يزرعوه في دنــياهم، يتســاقط عليهم بين أحضان حور العين. الأرض لمالكها يتوارثها أبناؤه.

قاطعته بحدة:

- الأرض لمن يزرعها، هذه الأرض (أميرية) تملكها الدولة وليست ملكاً لأحد يا شيخ.

كنــت ألــبس القميص والبنطلون عن عمد، وذلك يخيف الشيخ الذي يسكن المدينة، تابعت:

- أيادي الفلاحين هي التي تحييها، لماذا تريد سلبها منهم بعد أن أعطاهــا الله لهــم؟ أرضــنا فتحــت بالسيف في أوائل الدعوة الإســلامية، قوانين الشريعة تقول لا يحق لأحد أن يرثها غير الذي يحييها.

أرى الزهو والفخر يبدوان على محيّا والدي وهو يرى ارتباك الشيخ طاهر، تارة يرفع عمامته ثم يعيد تعديلها مرات. كنت أتكلم بســرعة لا ألــتقط أنفاســي خوفاً من أن أتوقف حيث يبدأ الشيخ الواسع الحيلة المنمق الكلام تقليب الأكاذيب بعشرات الوجوه.

- لعلّك تعلم يا حضرة الشيخ أن المدينة المنورة هي فقط من كــل بقــاع الأرض يحــق لمن يملك فيها قطعة أرض أن يورثها

لأبــنائه، لأنها آمنت طواعية أرضاً وناساً وآوت رسول الله، حتى مكــة المكــرمة تم دخولها بالصلح الذي تدعمه السيوف، لا يحق لمالك أن يورث أبناءه أرضاً زراعية يحييها غيره بعرقه وإن دخل دار أبي سفيان الذي لم يعد بيته آمناً.

حملــت نفس سلاح الشيخ طاهر في مبارزته، مفردات بسيطة تــتداخل فيها لغة المدينة التي تلوي اللسان رغم أن الراديو انتشر ومنه تعلموا بعض الكلمات.

آمــنوا بالراديو كوحي يهبط عليهم من السماء ينقله الزعيم، نبيّاً يلــبس المسوح وإن كان صدره مزيّناً بالنياشين. الإقطاعي بدوره تنبه إلى سلاح الراديو الصوتي يؤازره الشيخ طاهر، يسرّ لهم:

– افتحوا الراديو على إذاعة صوت العرب ستجدون أن نبيكم الزعيم ما هو إلا مسيلمة هذا العصر.

يضيف عليه الشيخ طاهر:

– انــتهى وقت الأنبياء و الأولياء منذ محمد وآل البيت، لكن وقــت مســيلمة مستمر إلى يوم الدين، وفّق الله الداعية أحمد سعيد الذي فضح ملاحدة العصر.

صــمت الشــيخ طاهر قليلاً يجمع معرفته، تكلم بصوت خشن موجها كلامه لي بما يشبه التهديد بالتكفير:

– تكلم الأفندي الصغير عبد القادر نتاج المدارس، التي أخذته بعــيداً عن تربية والده الصالحة على سنن الأنبياء، يداعب آذانكم علــى الضــلال، أذكــركم بقصــة سيدنا موسى مع الخضر العبد الصــالح، خرق سفينة وقتل نفساً ثم أقام جداراً يبنيه لأناس أبوا أن يطعموهمــا، إن الناظر بعين والسامع بأذن لا يقبل بذلك، لكن الله أوحــى إلــى عبده الصالح وجعل ذلك من الأسرار التي تستعصي أحــيانا علــى الأنبياء، لم يستطع نبي الله سليمان أن يأتي بعرش

بلقيس، أتى به الذي عنده علم من الكتاب قبل أن يرتد إليه طرفه... كلام الأفندي ظاهره الرحمة و باطنه العذاب... كتاب الله المقدس وشرعه هل تفهمونه؟ هل يوجد في بيوتكم نسخ منه بدلاً من تكديسكم للراديوات؟ يقول هذا الكتاب.. حرام أخذ أي شيء من الدولة التي لا تحكم بشرع الله.

توقف الشيخ يلتقط أنفاسه، انتهزتها قائلاً:

– إن الله وعد المستضعفين يرثهم الأرض واتّهم مترفيهم بالفسق.

قاطعني سرحان:

– الفسق مع الراقصات.

اضطرب وجه الإقطاعي، أسرعت في الكلام لئلا يصحو الشيخ:

– لقد طلب منك والدي الذي وصفته مشكوراً بالصلاح أن تبعثوا لنا ملاّ يعلم عيال الفلاحين قراءة القرآن، عندها ستجد نسخاً من القرآن بأكثر من بعض دور العبادة... قلت لا يوجد ملاّ عاطل... لم أعلم أن الملالي يداومون كالموظفين...

أ ردت أن أغمز من قناته:

– أم هم مشغولون بأمور الدنيا.. الزوجات الثلاث أو الأربع..

احتقن وجه الشيخ طاهر يستنجد بوالدي الذي أدار رأسه بعيداً عنه.

لملم جبّته، نهض واقفاً يعدل من وضع عمامته على رأسه، ترك المجلس غاضباً يردد:

– أفكار مستوردة... أفكار مستوردة.

شيّعته مازحاً:

- لا بأس إن كانت شجية كألحان محمد عبد الوهاب المستعارة.

رجع حانقاً:

- إذا غلبت الروم فإنكم لن تمكثوا أكثر من عام... إذا غلبت الروم فإنكم لن تقنعوا إلا حفنة قليلة من الرعاع الأميين... إذا غلبت الروم... إذا غلبت الروم...

صدقت نبوءته إذ نسي الروم والفرس نزاعهما، تحالفوا مع التتار العائد لوأد الحقيقة بالدم.

ألقى الشيخ بغضبه واقفاً يلّوح بيدي الوعيد ثم فرّ مسرعاً يستقل السيارة، يرافقه الإقطاعي الذي وجد من الأفضل التراجع والذهاب إلى المدينة للغداء مع الشيخ طاهر حيث يضم بيته ألذ أنواع الطعام وأجمل الزوجات.

تحلّق حولي الفلاحون يسألون مستفهمين:

- من هم الروم؟!... من هم الروم؟!

أعدت لهم ما قاله الشيخ طاهر سابقاً، زعم أن الرسول (ص) حزن لهزيمة الرومان المسيحيين أصحاب كتاب الإنجيل الذين شبّههم الشيخ بالأمريكان الآن، ثم فرح بنصرهم على الفرس الذين لا كتاب لهم وشبّههم الشيخ بالروس الآن.

لا أعلم سبب الفرحِ فكلاهما يزهق الأرواح طمعاً في المغانم والتوسع لكني أعلم تماماً قصد الشيخ طاهر في معنى الحكاية، إنها حقد على الروس ودعاية مجانية للأمريكان.

تركوا لنا المضيف، قاعة التجمع الوحيدة في القرية، حين هممت أن أهاجم الإقطاعيِ و الشيخ طاهر في غيابهما منعني والدي. أيّد سرحان والدي قائلاً:

- ليس من الأصول أن تنال من الشخص في بيته، لنذهب إلى الأرض الفضـــاء قــرب بيتي نكمل حديثنا، ستعد والدتي الشاي، ادعهم جميعاً.

لكــن الإقطاعي لم يحفظ لسرحان هذه الشهامة حين سنحت له الفرصة.

أكملت حديثي:

- الفقراء هم من لا ينسون الله، يدعونه في كل ساعة لتخفيف أحــزانهم، أمــا غــيرهم فلا يتذكرون الله إلا عندما يحيق الخطر بــأموالهم، انظــروا إلــى وجوه الفلاحين تتقاسم لونها الأساطير والاحتيال، يتبادل الإقطاعي والشيخ طاهر المزامير يعزفان ألحانها علــى آذانهــم التي لم تألف غير رغاء البقر وثغاء الأغنام، يترنّم مــزمار الإقطاعــي بأسلافهم الذين قاتلوا مع أجداده يحفظون هذه الأرض.

يجيبه سرحان:

- لنتقاسمها إذن.

يــناول المــزمار للشــيخ طاهر، ينشد موسيقى المعابد تعزفها الأرواح الــراقدة في قدسية الخرافة واليقين، يخيّرهم بين الأرض وجحود العقيدة.

حذرنـــي ســـرحان مــن سب الشيخ طاهر أمام الفلاحين إذ أن لعمامــته قدســية حتى لو وضعت على رأس حمار. أجد صعوبة بالغــة في حوار الشيخ طاهر بعكس الإقطاعي الذي أجده كفرّاش المــدارس يقرع الأجراس فقط. لا أستطيع أن أصغي لهذا المنافق وهــو يتبــتّل إلى الله ليبتغي الفساد. نويت أن أدع سرحان المتأني يخرج من آذانهم ألحان النشاز، قلت باختصار:

- الأرض هـــي أجسادكم و الفرات روحكم التي تسيل، وكلا الجسد والروح لا يملكهما غير الله، وليس الإقطاعي والشيخ طاهر وكيلين له، إنهما لصان يسرقان باسم الرب.

انـــتهى ذلـــك اليوم بهزيمة للإقطاعي و شيخه مما سهّل على ســـرحان الساعي لتنظيمهم أن يقودهم في الغد إلى دائرة الإصلاح الزراعـــي لإكمـــال معاملات التعاقد و توزيع الأراضي، ينظرون لـــلأرض كخـــادم يعشق سيدته الجميلة يحول النبيل المتسلط دون حـــبهما.غداً سيوافق على زواجهما مكرها، ليس على تسبيح الشيخ طاهر إنّما على عقود مأذون الإصلاح الزراعي.

كنـــت كشيشـــرون أســـتحثهم ببلاغتي، ليس في الإسهاب بل بكلمات المدينة الحضرية تندس بين مفردات القرية فقد دأبوا سابقاً على أن يسمعوا هذه الكلمات يلقيها كبار زوار الإقطاعي من ذوي الكـــروش، لـــم يلحظوا الفارق بين لغة الزوار المحلية ولغة رجال الديـــن الفصحى إلا بعد أن أوعزت لهم الأرض أن عشقها يتطلب الغزل بألوان عديدة.

اســـتأجر ســـرحان باصاً لنقل الفلاحين إلى المدينة، بعضهم لم يملـــك الأجـــرة ولا زار المديـــنة من قبل، تبادلوا لبس الدشاديش اســـتعدادا لهذه الزيارة الفريدة، قلوبهم تدق، مغرم يلمح حبيبته بين الجموع.

الأرض قطع الجنّة التي اشتروها بأثمان الهوان، يتسلمونها الآن عروســـاً غالـــية شقوا في حبها، تسابق على نيلها الخلق، رفضتهم جميعاً، ظلّت على العهد تنتظر أن يسددوا مهرها. تزوجوها لاحقاً، لـــم تنجـــب إلا بعقار الماء والشمس والهواء، تعذّر الحصول على أثمانها، ولو جمعوا كل عذابات الدنيا، لذلك ظلت الأرض عاقراً.

جمع سرحان أوراق الطلبات من الفلاحين، دخل بها على موظفي دائرة الإصلاح الزراعي، غاب عنهم ساعات، عاد صامتاً سألوه تسبقهم اللهفة:

- أين العقود... متى نزرع؟

- أحالوا الطلبات إلى دائرة مسح الأراضي تمهيداً لفرزها، ثم تعمل العقود.

- ولماذا هذا التعب! كل واحد يأخذ أرضه التي يزرعها في كل عام.

- قالوا في هذا غبن، بعض الأراضي قريبة من السقي والأخرى بعيدة.

- لكن الماء يصل لجميع أراضينا.

- يقولون لا بد من إجراء القرعة.

- لا حاجة لها إن كنا جميعا موافقين على القبول كل بأرضه.

كانوا لا يريدون غير أراضيهم التي يزرعونها، يعرفون تضاريسها كما يعرفون أجساد زوجاتهم، وهم إن أخذوا غيرها كمن يستبدل زوجته بزوجة جاره.

ابتعد الزعيم عن نبض الشارع، أراده أيدي تصفّق وحناجر تهتف لخطاباته الطويلة المملة بدلاً من قلوب تعانق صوره الملتصقة في الشوارع والبيوت والمقاهي وعلى جبين الذاكرة، في ذلك الوقت كان للحرية طريق ضيق تسلكه. كنّا نحصي حب الناس له بعدد الصور الملتصقة، وكلما ضاق درب الحرية انتزعت أعداد من صوره إلى أن ظل ما تبقى منها مرفوعاً على الدوائر الرسمية، لكننا الآن نحصي صور الرئيس بعدد كره الناس له لذا نشاهدها في البيوت والمقاهي والشوارع والمنعطفات وعلى

السهول والجبال، وفي السماء ترسمها أشعة الليزر، وفي العواصف تحملها تراباً لزجاً له رائحة القبور.

حصر الزعيم نفسه في غرفة ضيقة يمارس السلطة دون أن يتمتع بكراسيها الوثيرة وصولجانها الذهبي ورخام جدرانها ورنين الذهب المدفوع للأعوان، كمن يقوم بدور الملك على مسرح يستعير سلطاته إلا أنه يأبى النزول بعد انتهاء العرض، يتفرق الجمهور من تكرار دوره الممل، ينتهي بغلق باب المسرح رغم أن الستارة لم تسدل، مع ذلك ظل معبوداً للقلوب التي تبحث عن العشق، ظنوه وحيداً، يتيماً وجد جرار الذهب مدفونة تحت جدار بيت أبيه الذي سقط، لا يحسن إخفاءها، انقسموا فريقين، أحدهم أراد الميراث بتزويجه ابنته يعمل له الأعراس المتواصلة قبل ليلة الدخلة، فشل في مسعاه إذ أن السلطة لا تقترن إلا بالعاهرات، الآخر راهن على غفلة اليتيم في يده الذهب وإن كان مطموراً. نجح هذا المقامر في النهاية لافتقاد اليتيم حذر الآباء.

ابتعد عنهم جميعاً لعلمه أنهم يطلبون ميراثه لا قوامه الجميل، ربما كان يبحث عن وجه فتاة يتأمله دون أن يفكر بجسدها الذي يقوده إلى الرقاد، فتاة لم تشوهها عيون السماسرة، يفكر في رقة الوجه، ما يحويه من صوت ناعم يسمعه من فم أم، من كركرات طفلة، من أغنية سهول وحتى من نواح ثكلى، لا يوجد من حوله وجه دون جسد شهواني، تنكب العيون الجائعة تلتهم ثناياه بنهم غريزي دون النظر إلى استدارة الوجه.

اهتدى الزعيم إلى فكرة سخيفة كحال الزعماء الذين يحكمون معظم أوقاتهم بالسخافات: أن يوقف الإنجاب لئلا يرثه أحد، فاته أن يعلم بتهالك العجائز على اقتناء الذهب، العشق الوحيد المتبقي لهم بعد أن هجرهن الأزواج وغادرهن الأبناء، رنينه الصوت الوحيد

المسموع لآذانهن. ما أرعب الزعيم أن حوارييه خلاف جميع الناس لا يستعملون صيغة الماضي بذكر الأموات، إنّما يتحدثون عنهم كحاضر ومستقبل، كانوا كموظفي الجمارك ينظرون بحنق إلى أمتعته.

زاره عدد ممن يخشون عليه من الذين لا صلة لهم بالجمارك:

– سيادة الزعيم، الشعب لا يزال يحبك، يهتف لك: سيروا ونحن من ورائكم، لم لا تعمل حزبا يكون لك آلاف الأيدي، ماكنة ضخمة تمسك بمقودها بدلا من السير على قدميك توخزك الأشواك؟ دع جنازير الماكنة تعبّد أمامك الطريق، ستقطعه عدواً.

يرد الزعيم كطاووس يتأمل ريشه الجميل الذي يحجب عنه قبح سيقانه:

– أنا فوق الميول والاتّجاهات، الجيش والشعب سيبقيان دائماً سنداً لي.

– لكن الجيش والشعب ليسا دمى بلا روح، والروح لا تبقى مستكينة حتى داخل جلد صاحبها... يا سيادة الزعيم... ما فائدتك من هذه السلطة، تسكن غرفة حارس ليلي في بوابة وزارة الدفاع، لو تمتعت بها لما نصحناك.

– أنا فوق الميول والاتّجاهات... أنا فوق الميول والاتّجاهات...

رجعوا، يسألهم الناس عمّا قاله الزعيم، أجابوهم بأسى ضاحكين:

– زعيمكم فوق التيول والوايرات!!

عاش و مات الزعيم ابناً باراً للمؤسسة العسكرية القديمة، لمبادئ الفروسية والشهامة، لم يتحوّل إلى مقاول أو قومسيونجي كما فعل بعض العسكريين الذين أتوا بعده. فقدت العسكرية بذهابه إلى السياسة ضابطاً ألمعياً فصّلت العسكرية عليه كما يفصل أمهر

الخياطيـــن البدلة على جسم رياضي، ولم تكسب السياسة غير أحد لاعبيها السيّئين.

اشتد الصراع بين الزعيم وعبد الناصر، يرفعان نفس الشعارات ويسعيان إلى نفس الأهداف ويتقاتلان بضراوة. مرة أخرى تتصادم العســكرية مــرتدية البدل المدنية لا تطلب غير الطاعة، يعترض البعض:

- يا سيدي الجنرال نحن مدنيون، لسنا جنوداً.
- نعمل من الشعب ميليشيا برتب عسكرية.
- يا سيدي الجنرال.. ما ذا عن الإعمار والتنمية ؟
- ســنكون أفضل من السابق، لا سرقات، لا عمولات، بل يد نظيفة فقط.
- لكن هذه البرامج معقدة، يلزمها جهد جماعي روحه الرؤى بعيدا عن الطاعة العسكرية وإن حسنت نواياكم.
- المستبد العادل هو ما يلزم الآن.
- لكن يا سيدي ليس هناك مستبد كان عادلاً.

خلقــت الطاعــة التــي يدفعها الخوف أعمالا هشّة ذهبت مع أصحابها.

ينحنـــي السياســيون لــرجال الأمن، لا تتماسك أصابع أياديهم الراعشة لدى استدعائهم، يلوحون لهم بقصاصات التقاريرك:

- هل صفّقت عند سماعك بتمرد عبد الوهاب الشواف ؟
- كلا يا سيدي.
- ما علاقتك بفؤاد الركابي؟
- لا أعرفه.
- كيف لا تعرفه وأنت قريبه!
- أنا أسكن الناصرية وهو يسكن بغداد.

- ما هو رأيك بميشيل عفلق؟

- لم أسمع به.

- كيف لم تسمع به وقد وجدنا مؤلفاته عندك !

- مؤكد أنها دسّت من قبل الأعداء.

- من هم الأعداء؟

- الشيوعيون.

هكـذا استجوبوا رشيد وجعفر وسعيد، وجدت إسماعيل وكريم شـامتين بهـم، كانوا كأهل العروس التي تمنّعت على ابن عمها، فـريق يريد أن تطول الخطبة خوفاً على الميراث و فريق يطالب بالـزواج الفـوري لينعموا بكثرة البنين. بدا ابن العم مستعجلا في زواجـه، طلـبه بالرضـى في البداية ثم أراده غصباً، يؤلب أبناء عمومته على إخوانهم الرافضين.

العـروس ساحرة في حسنها، يمتد على جسدها دجلة و الفرات جدائـل تفوح منها عطور الحنّاء والخضيرة، شفاهها رطب ناضج مـن البرحـي ينـتظر ملتهميه، رأسها يرتفع بطول الجبال يكلله شـعرها الكثـيف بـألوان الأشجار المتزاحمة وهي ككل الفاتنات ابتليت بأهالٍ حمقى وعشاق طامعين، انتهت أيام الخطبة بمأساة إذ أراد ابن العمّ أن يخطفها يساعده عدد من أخوتها، تحاوروا بزخّات الرصاص، فرّ ابن العم مهزوماً يحشد الأتباع لكرة أخرى.

لبسـت العـروس السـواد تندب أخوتها طوال عمرها، فقدت نضـارتها، أنهكتها العنوسة، تساقط شعر جدائلها يفقد رائحته، لكن جـذوة الحـب لا زالت مستعرة تحت ركام الأحزان، تجدد شبابها كزليخة إن وجدت يوسف.

أطلقوا سراح رشيد وجعفر وسعيد إثر خطاب الزعيم في كنيسة مــار يوســف، قــبلها زرتهم في المعتقل يشكون من التهام جعفر لطعامهم، داعبتهم مازحاً:

– اشكروا السيد المسيح الذي أنزل الرحمة على فؤاد الزعيم، يبدو أنه اعتنق المسيحية بعد أن سئم الوقوف بين أمه الشيعية وأبيه السنّي.

علّق رشيد بخبث:

– إنه فوق الميول والاتجاهات حتى في مسألة الأديان!

وجــدت نفسي بعد ذلك اليوم أقف حاجزاً بين إسماعيل وكريم في جانب يقابلهما رشيد وجعفر وسعيد، تصيبني لكماتهم الطائشة، أسألهم:

– كلكــم خــارج السلطة، يطاردكم رجالها وتتصارعون! ما الذي تفعلونه ببعضكم أن قبضتم عليها؟

ولكــون السلطة عاهرة، تعطي جسدها لمن يسبق على الفراش فقــد تعاقبوا عليها جميعاً، افترشوها على شراشف حمراء منقوعة بدماء الأخوة.

عاشــت الــثورة طفولتها لكنها لم تكبر، ظلت ترتكب حماقات الصــبية، يركض خلفهم الآباء المسنون فرحين بولادتهم المتأخرة بعد أن تجاوز بهم العمر، وهم كالأطفال الصغار ينتفون لحية الجد الضاحك، لم يحذروا الفرح الذي قادهم إلى القنوط.

تفجــرت شــرايين الحب تنزف هنا و هناك يضمّدونها بالحبال على أيدي رجال لا يحسنون استعمالها يصرخون:

– ماكو مؤامرة اتصير والحبال موجودة.

الــدواء الخشن الذي يؤدي إلى اتّساع الجروح، ثم أصبحت هذه الحــبال التي سحلت الناس خيوطاً من الحرير إزاء آلات التعذيب

الحديــثة. خفتــت أغانــي الجبال و السهوب العذبة تعشق الأذن ترديدها:

- هربجي... هربجي... كرد أو عرب رمز النضال.

تململــت الجــبال الخضراء الهادئة، ترى الحرائق في السهوب كمثــيلاتها في المخازن عند موسم الجرد، يطفئونها بسهولة بعد أن تأتــي علــى مخلّفات اللصوص، تتولد داخلها البراكين، إن ثارت سوف يعجز من يحاول إطفاءها، ربما استطاعوا بآلاتهم الحديثة أن يوقفــوا حمم البركان في السفوح لكن ما من أحد يستطيع أن يصل إلى فوّهة البركان في أعالي الجبل.

إســماعيل ورشــيد يــتقابلان عند خروجهما بأبواب مغلقة في الــنهار وسكاكين تترصد في الليل، ينتظرهما فرسان القدر راكبين خيولهم تخب، رافعين سيوفهم التي لا تغمد إلا على الرقاب، أجري عبث الحوارات معهم:

- أنشـــأ كل حزب منكم نقاباته المهنية... هل أصبحنا دويلات فدرالية؟لم ترغبوا حتى في الاشتراك بانتخابات واحدة.

يردون جميعاً:

- هذه قوائم منفصلة.

- وأســماؤها!؟ تمثيلها في الخارج يختلف، فالذي في براغ غــيره في القاهرة، لو كانت قوائم تحت ظل اتحاد أو نقابة واحدة لاعترفتم بشرعية كل طرف، تتبادلون اتهامات الخيانة العظمى بدلاً من قبول العمل المشترك، تجزّئون الوطن شارعاً شارعًا.

- نحن مؤمنون...

أقاطعهم غاضباً:

- بل مرتدّون جميعاً.

- أهدافنا...

أقاطعهم أيضاً:

- أهدافكم كلها جميلة، نبيلة، متشابهة تماماً أليست وطناً حراً وشـــعباً سعيداً يقابلها الوحدة والحرية والاشتراكية التي تقود أيضاً إلى حرية الوطن وسعادة شعبه، إذن على ماذا تتقاتلون؟!

لـــيس هناك جواب. يعرفه فقط من يملك نيران الغاز المشتعلة علـــى رؤوس آبـــار الـــنفط، يوقدهـــا حقداً يتنامى بنمو البراميل المتراكمة في قاع الناقلات، يترك لنا الآبار الناضبة قبوراً جماعية.

اهتديـــت إلـــى أكابر السحرة، التقيت بأبي جهاد وأبي عروبة، قطعـــاً علـــي أســـئلتي التي وصلتهما قبل وصولي: نحن مؤمنان بأهدافنا... لا مجال للمساومة... لا نقبل أي ثمن و لو كان ذهباً.

- لســـتم كسحرة فرعون المؤمنين، فقدوا رؤوسهم والذهب، ســـتفقدون رؤوسكم والذهب والإيمان، أنتم في أرض السواد تتسع لأضـــعافكم، لا تجعلوهـــا تضيق بكم، لم تفن بركات الفرات رغم تعاقـــب اللصـــوص وكثرتهم، يموتون على ضفافه بالتخمة. اسودّ جـــزء مـــن ماءه يختلط بعفن الأجساد المطمورة يخرج روائحها الكـــريهة بعيداً لئّلا تلامس عطر الأرض، لكنه ظل غالي الثمن، حتى باحتراق مائه يبتاعونه بسبائك الذهب والنيران والدماء،

أرى الوجـــوم علـــى وجوه إسماعيل ورشيد وجعفر لمرآي، لا يسعدون بحديثي الذي يتعارض مع ما يقوله عرّابوهم.

أصـــابت لعنة العسكر بطاعتها جميع الأحزاب، أصبح الهروب من العسكرية أهون من ترك الأحزاب، أطل عليهم كرجال الشرطة لا يـــأتون بالأنباء الطيبة، لكني لا أريد الصمت أول الدروس في مـــنهاج السياســـيين حيث لا تكشف مساحاتك لتظل ميداناً غامضاً للمناورة، ولا الكلام الحماسي الذي يوقظ الجسد ويخدّر العقل.

عكـف الإقطاعـي يسـهر الليالي في المدينة، يتّخذ من نادي الموظفيـن مكانا يخلط فيه المتعة والعمل، يذكره بلياليه المنصرمة في ملهى بديعة سوى أنه يقرف في داخله من مصاحبته لندمائه من موظفـي الإصلاح الزراعي الجديدين على ارتياد نادي الموظفين، ويفـتقد صـوت وجسـد بديعة، ذلك الصوت الذي تسلل إلى قلبه وصنع منه قاتل، لكن الخمرة تصاحبه في مسراته وأحزانه، تخفف من ثقل مرافقة موظفي الإصلاح الزراعي الذين يشربون ويأكلون بشـراهة ويكثرون من الضحك بلا سبب على لهجة الساقي، يدفع عـنهم مائدة الشراب الخضراء لقاء وضع العراقيل والمطبات في طريق سرحان وأصحابه الفلاحين الممتطين خيول المحراث التي لا تحسن القفز على الحواجز.

فرّاشـو دائـرة الإصلاح الزراعي وجرسونات النادي يفشون أسـرار الصفقات إلى البعض ممن يوصلها إلى سرحان، يضعون الخطـط المضادّة لإفشال نوايا الموظفين الذين تضيق ملابسهم في كـل حيـن بسبب انتفاخ كروشهم المستمر رغم رداءة المحصول وتدنّي الأراضي المزروعة.

تذكـر جرسـون النادي (حنّه) وجه الإقطاعي، يراه سابقاً في ملهـى بديعـة، يلـبس البدلة الافرنجي، كتم معرفته به، تفرّس به الإقطاعي:

- ألم أرك من قبل..؟

- كلا يا سيدي.

توسع نادي الموظفين في العهد الجمهوري، أضافوا له ملاحق فاقت مساحته الأصلية.

كـان الـنادي فـي العهـد الملكي حكراً على كبار الموظفين والأثـرياء يشـربون ويلعبون القمار. في عهد الثورة ألغوا القمار

ووسّعوا صالات شرب الخمور مما استدعى جلب جرسونات جدد من العاصمة. تم إلغاء عضوية النادي المقتصرة سابقاً على النخبة وفــتحوها مجانية للعامة. لم يشأ حنّه كبير الجرسونات أن يفصح عــن هويــته أمام الإقطاعي، كما أن الإقطاعي لم يعلم ليلة مقتل بديعــة ولا بعدهــا أن حنّه وعشيقته خادمة الراقصة الساكنة معها ذهــبا إلــى مخفــر الشرطة وأفادا بارتكاب الإقطاعي لجريمته، ذاكريــن لهــم أدق التفاصــيل، ثم جاء تلفون الباشا إلى الضابط المكلــف بالتحقــيق يأمره بغلق الحادث على فاعل مجهول، حينها ضيّق الضابط الخناق على حنّه:

- لمــاذا لــم تسـعف القتيلة؟ لماذا لم تمنع الجريمة؟ ما هو دورك في عملية القتل؟

أوضح حنّه مرتعداً:

- يــا ســيدي الضابط كنت مختبئاً مع عشيقتي... لو وجدني الإقطاعي في بيته لقتلني.

- تتســلل إلــى البيــت دون علم صاحبه... أكيد تواطأت مع عشيقتك الخادمه لقتل الراقصة وسرقت مصاغها.

- هل وجدت معنا مصاغاً يا سيدي؟

يطرق الضابط قليلاً يأمرهما::

- اذهــب إلــى الملهى وأنت إلى البيت، قولي إن سألك أحد إنــك كنت في زيارة أقاربك وأنت بعملك في الملهى وإلا ستلبس الجريمة على رأسيكما.

يغــدق الموسرون من السكارى على حنّه الأكثر بشاشة ولطفاً من بين زملائه، يصرف القليل على احتياجاته، ينام ويأكل ويشرب مجاناً في النادي، يرسل ما يكسبه إلى عائلة أخيه، غير متزوج ولا يــنوي الــزواج، يصادق زبائنه لكنه يضمر كرهاً منذ مقتل بديعة

لـذوي السـلطان، يـراهم في النهار يتصدرون الجرائد مرفوعي الـرؤوس وفـي اللـيل يطأطـئونها إما على أقدام الراقصات أو يمرغونها في التراب بثقل الخمرة، فليس هناك من عظيم في نظر خادم غرفته.

أسر حنّه في إحدى زياراته للعاصمة لأبي جهاد بما يعرفه عن مقتل الراقصة بديعة.

أرسـلوا شـرطياً مـن العاصمة لإلقاء القبض علي الإقطاعي واقتـياده مخفوراً بالحديد. بذل الإقطاعي المال متوسلاً أن يرسلوه سراً بسيارة مستأجرة على حسابه، لكن الخبر شاع في المدينة قبل وصـول الشرطي، لذا اعتزموا إرساله عن قصد في القطار أمام جمهرة الناس.

تجمعوا حوله بين مواس وشامت. التصق بالشرطي يسرع إلى العربة يلاحقه الهتاف:

- يسقط الإقطاع أذناب الاستعمار.

اسـتغل سـرحان غياب الإقطاعي، يعدو ما بين القرية ودائرة الإصلاح الزراعي، يجلب البيض والدجاج، عوّض بعض خسائر الموظفين في ناديهم إثر رحيل الإقطاعي، يتحمّل عنف إسماعيل:

- جلبت العار لنا، ثوري يقدّم الرشوة !

- هدية متواضعة تجعل أقلام موظفي الإصلاح الزراعي لا تجف.

- اعط الهدية للفقراء و خذ حقّك بالنضال الثوري.

- انـتهى الموسـم الشـتوي ولم نزرع، مسئوليتي الحصول لهؤلاء المساكين على أرض يحرثونها ومياه تسقيها، أنت تأكل في بيت أبيك، إلى أين يذهبون هم ؟... إلى العسكرية حيث يحرّم العمل

السياسي بأمر الزعيم. تعال ساعدني لإقناع موظفي الزراعة... لا.. لا أريد مساعدتك، ستفسد عملي.

ازداد الضغط على تباطؤ موظفي الزراعة المقصود، كتب الفلاحون عرائض الاحتجاج للعاصمة، جاءهم أمر صارم:

– جميع الأراضي تقسّم بسندات ملكية على الفلاحين فوراً.

أرسل الإقطاعي من معتقله التعليمات:

– اعطوهم الأراضي البعيدة عن مجرى الفرات التي لا تخترقها السواقي، سجّلوا كل طفل وامرأة في عوائلنا كرب بيت مستقل له سند ملكية، خذوا الأراضي الخصبة قرب الأنهار، اشركوا الأرامل والمرضى معكم كحصص مكملة في الأراضي القريبة الخصبة، أضيفوا كشوفات بأسماء وهمية.

أحبط سرحان ولجان الفلاحين من خلفه هذه الخطط لكن نجاحهم لم يكتمل، احتفظ الإقطاعي بمضخات الري يحبس عنهم الفرات.

ذهبوا إلى دائرة الري، وجدوا موظفيها قد اغتسلوا بماء الفرات، غدوا أكثر بياضاً من نظرائهم في دائرة الإصلاح الزراعي التي نمت عليهم الطحالب، وعدوهم بماكنات الماء الديزل الروسية حديثة الصنع. مهندسو الري يقيسون ماء الفرات، تصيبهم عدوى عنفوانه، يتأملونه مائدة عميقة تتضاعف لدى تناولها. مهندس الري الجديد ابن عتّال، لبس بدلة والده الزرقاء الملطخة بالدهون وغطس مع الفلاحين يرسم لهم على الأرض مسار القنوات الجديدة بلون أخضر. تفتح الأرض فاها ظمأى تنتظر الفرات يرويها.

أثار وجود المهندس الدائم حماس الفلاحين، تشق أذرعتهم الأنهار كآلات أوتوماتيكية لا يعرفون الكلل، يقسّمون أطوالها فيما بينهم عدا صاحب الصوت الرفيع، أعفوه من كري الأنهار، يرفع

التعب من على أكتافهم بغنائه الشجي، لم يسمعوه قبلها بهذه النشوة مــع امــتلاكهم للأرض والماء والهواء. المهندس ابن العتال يغفو معهــم على التراب، يطلون أجسادهم به كل يوم عمل ثم يذيبونها بماء الفرات. اكتمل شق القنوات وتجهيز قاعدة الماكنة الخرسانية، اســتقبلوا وصــول الماكنة بالزغاريد والدفوف والهوسات يتخللها إطــلاق النار، لم يبتهجوا طوال حياتهم بيوم عزيز كيوم حصولهم علــى الماكنة.. النير الثقيل المستقر على رقابهم سنين يركب عليه الإقطاعي حتى بعد قيام الجمهورية، تحمل لهم موسمهم الضائع في العــام الماضــي ومواسم السنين الوردية القادمة. نحروا الذبائح، لطّخوا فوهة المضخة بدمائها مدفعاً يؤذن ببدء حياتهم الجديدة.

يــرش بياض الثلوج المنصهر في قاع الفرات مع أولى دفعات المــاء، وقفوا يتعمدون بملابسهم يتشممونه هواء، ما أجمل لحظات الحــرية عــندما لا تكون عبداً ولا سيّداً، ربما سبب جمال الحرية الجنوني أن عمرها قصير وأنها تطيل من انتظار الناس.

هطلــت الأرض تغــرق بــيوتهم و مخــازنهم بالحــبوب والخضراوات، يدعون لمهندسي الري الشباب الذين أمّوهم بصلاة الاستسقاء يستجيب لها الرب بأكثر مما صلّى ودعا الشيخ طاهر.

تصاعدت الخلافات بين دائرة الري ودائرة الإصلاح الزراعي يؤججــه الحســد والكــره المعــتمل في نفوس موظفي الإصلاح الزراعــي وهــم يــرون الــناس تطري قيام موظفي الري برش المبــيدات علــى الآفــات الزراعية المعششة في دائرة الإصلاح الزراعي.

اســتوقدت أولى البراكين تنهي صمت الجبال، حمم نيرانها لا تــزال تشتعل، لا ينضب وقودها من الحجارة و الناس، فمنذ بدأها إلــى الآن لم يرسلوا غير (عبد الزهرة) من الجنوب، يخطفونه من

حقوله ذبيحة بأربعة دنانير إلا ربعاً يدفعونها لعائلته قربانا لغضب البركان ليس تضرعا لإخماده إنما بالدعاء لزيادة اشتعاله، تعود بقايا عبد الزهرة قطعا في تابوت بارد وكلما سألوا رئيسا أو زعيما يتربع على كرسيه أن يوقف اشتعال الجبل يجيب:

- لماذا أوقفها... ما دام الكاكا يتعارك مع عبد الزهرة!!

ما كان الكاكا الكردي بوّاباً على جهنم ولا كان عبد الزهرة مارقا يستحق الجحيم لكن ضعفهما هو من أثار شهية الغير بدلاً من شفقتهم.

أدّت رغبة الصراع بين إسماعيل وكريم من جانب ورشيد وجعفر ومن ورائهم أبو جهاد وأبو عروبة ينفخان بنيران الحقد إلى التباعد، غير عابئين بجراح الجبل ولا بالنظرات الضائعة لأطفال عبد الزهرة يفتشون عن وجه أبيهم في بقايا قطع جسده المتناثرة.

وقف كل منهم على تل يموّن التحام الناس على الساحات الممتدة بينهما. كثيرة هي نقاط الغموض لأناس يقتضي عملهم المصارحة، لكنهم اتّفقوا جميعاً على إنهاء حياتهم كأحرار بشكل تراجيدي.

احتج كريم كجندي سابق ينشد السلام. وقّع على عريضة مع بعض من رفاقه تطالب الحكومة بالكف عن تكسير أطراف الجبل ورؤوس عبد الزهرة. استدلّت بها الحكومة على عنوانه. قبضوا على كريم، أحالوه للمحكمة العرفية كجندي هارب سابقاً، وضعوه في القفص يجيب عن أسئلة رئيس المحكمة الذي لم يختلف عمّن جاءوا من قبله ولا من بعده بكرهه وضغينته للمتهمين رغم أنه لم يسمع بهم أو يرهم من قبل:

- لماذا هربت من الجيش؟

- لأسباب سياسية جرت في العهد البائد.

- لا مكان للسياسة هنا... العسكرية شرف لأمثالك.

- لكنكم ثرتم على الباشا وقلبتم نظامه كسياسيين.

- العسكر وحدهم من ينقذ الشعب من شرور الأحزاب، ستطبق عليك لوائح الهاربين من الخدمة، لولا العفو الصادر الآن لأعدمتك.

أشار رئيس المحكمة بإصبعه الصارم:

- سوقوه إلى القتال ضد خونة الأمة القابعين في الجبال.

كنت أذهب وأجيء بين إسماعيل ورشيد، انتقل الخلاف من التلاسن إلى طعن واحدهم الآخر، كانا بحاجة إلى قتال يطلبانه كعبث الأطفال دافعين أخوتهما إلى قاع بئر عميقة وقد وجداها في الدماء الضائعة على جبال كردستان:

- إن كان الأكراد بعيدو المنال في كهوف الجبال. ابطشوا بحلفائهم في سهوب الجنوب.

- ألا يحقن السلام دماءنا؟ لسنا حلفاء أحد.

تصاعدت أبواق الحرب بصوتها المتحشرج، امتنعت الجبال والسهوب عن ترديد صداها، وكلما ازداد الغضب على قمم الجبال سالت الدماء في أسفل الفرات، ففي كل مرة يأتي صقر لقريش يعتزم غزو الجبال، لكنه بدلا من أن يطعمهم لحوم الصيد يطعم الغربان لحوم أصحابه، تفاجئه المسالك العديدة التي لا تحصى لدروب الجبال الممتدة لما وراء البحار.

تبدل الحال عمّا كان عليه في السنة الماضية، يكاد رشيد وأصحابه أن يمسكوا بسوط الجلاد ويقترب إسماعيل وأصحابه أن يكونوا الضحايا. يؤنبني رشيد:

- كلّ من لا يطالب بقمع الخونة في كردستان فهو خائن... لا يستحق الحياة.
- لكنك تقاتل جارك إسماعيل جنوب الفرات.
- إنهــم الطــابور الخامس الذي يجب القضاء عليه أولاً ثم نلحق بهم الانفصاليين
- ألم يكن صلاح الدين قائداً لكم يوماً ما؟
- إنه الشريف الوحيد من بينهم.

تســاءلت عن سبب تبجيل صلاح الدين الأيوبي، قصدت جعفر ورشــيد وإسماعيل حتى أنني التقيت أبا جهاد وأبا عروبة والشيخ طاهر، ألقت إجاباتهم الغموض لاختلافها، جمعت السنون المتراكمة الإجابة لي تهمس بصوت يكاد لا يسمع:

- يحــبون صــلاح الديــن لمآثــره الثلاث، دحر الصليبين والقضاء على الدولة الفاطمية وإباحته القتل.

أراد الزعــيم أن يكون كصلاح الدين لا يخسر معركة، لكنه لم يلجــأ إلــى أســاليب صلاح الدين في الوقيعة وفي عقد الصفقات السرّية مع الأعداء.

وقف أعداء الزعيم معه يدفعونه ليتوه في سفوح جبال كردستان فيما عارضه أصدقاؤه، يبذلون له النصيحة، أن يتصالح مع الجبل الوديــع في رضاه والمدمّر في غضبه، لكن صليل السيوف الآسرة في لمعان استعراضاتها تدفع حامليها إلى الحماقات، لا يرون فيها إلا أكالــيل الغار، سيوف بيضاء لامعة ذات مقابض مزيّنة، ما أن تــنزل على الرقاب حتى يتعذر استعادة لونها ولا يستطيع القابض عليها أن يحرر يده إذ يمنعه الدم المتجمّد.

اســتدعي حنّه إلى العاصمة بأمر من المحكمة للإدلاء بشهادته عــن ظروف مقتل بديعة. تأجلت المحاكمة قبلها عدّة مرات حين

وجـد محامي الإقطاعي أن الظروف غير مواتية لموكله، ثم أخذ يسـتعجلها بعد أن قلب صراع الزعيم مع الأكراد الأمور لصالح موكله.

تصالح الزعيم مع من جعلهم أعداء ثورته كمن يطلب الأصدقاء في أوقات الحروب ليمحّص صدقهم.

أمر رئيس المحكمة العسكرية:

- اقسمِ على القرآن أن تقول الصدق.

أجابه حنه:

- أنا مسيحي يا سيدي.
- إذن اقسم على الإنجيل.
- أين هو الإنجيل؟

كـافح محامـي الإقطاعي كثيراً لنقل دعوى القتل من المحكمة المدنـية إلى المحكمة العسكرية رغم انه لا الإقطاعي ولا أحد من عائلته كان عسكرياً يوماً ما، متذرعاً بالأحكام العرفية وبعدم وجود مشتكين مدنيين من أقارب الراقصة بديعة، إنّما تم تحريك الدعوى علـى أسـاس الحق العام. يقيس محامو الدفاع كالثرمومتر ارتفاع وانخفـاض درجـات الظروف، يرفعون المظلات متعللين بإعاقة المطر لسيرهم، يؤجلون الدعاوى سنين ويجرون راكضين لبوابات المحـاكم لدى تحسّن الطقس متناسين وجود المصاحف تفصل ما بين القفص وباب الدار.

كبار المحامين يشار لهم بالقدرة على نقل الدعاوى من المحاكم المدنـية إلـى المحـاكم العسكرية وعكسها، يرسلون إلى المحاكم العسكرية البريء إذا أريد إعدامه والمجرم إذا أريد تبرئته.

تواصلت الأسئلة:

- هل شاهدت المتهم يقتل بديعة؟

- نعم يا سيدي، أفرغ مسدسه في جسدها.

تدخل محامي الدفاع:

- من معك في البيت؟

- خادمتها رأت معي ما ذكرته لكم.

المحامي:

- هل كنت مخموراً ساعتها؟

- عادة أشرب كأساً أو كأسين في الملهى قبل ذهابي متأخراً، السكر محظور على الجرسونات.

اكتفى المحامي بهذه الأسئلة القليلة ثم توجه إلى الحاكم طالباً تبرئة موكله:

- سيدي الحاكم: الشاهد تسلل إلى بيت موكلي دون إذن منه بقصد كيدي واضح، فهو إضافة لكونه مخمورا لم يبلغ جهات الاختصاص بهذا الحادث الخطير، لماذا صمت كل هذه المدة ؟

حاول حنّه مقاطعة المحامي لكن الحاكم أسكته بالشتائم.

استرسل المحامي:

- أطلب من سيادتكم استدعاء الشاهدة التي قال عنها هذا الشخص الكذّاب أنها رأت معه الواقعة.

دخلت الخادمة تلبس الملابس الثمينة تتزين بقطعة ذهب.

- اقسمي على القرآن أن تقولي الصدق.

- أقسم على ذلك.

- أين كنت ليلة مقتل بديعة ؟

- سيدي.....

توقفت الخادمة عن الكلام، ظلّت صامتة تجول ببصرها بين حنّه ومحامي الدفاع.

صرخ بها الحاكم:

- قولي يا فاجرةً...

تدفق الكلام سيلاً:

- صـــرفتني المـــرحومة قبل الحادث بيومين، أعطتني المال قائلـــة: اذهبي إلى أهلك، احذري أن يراك الإقطاعي، سأهرب مع حبيب جديد أجنبي لخارج البلاد لا أعود بعدها، أوصلتها إلى قطار الشرق السريعِ وذهبت إلى بيتي.

صرخ حنه:

- والعزاء الذي أقامته الحكومة لها.

أســقط في يد المحامي الذي غفل عن هذه الثغرة، تلفت صوب الحاكم العسكري الذي صرخ غاضباً على حنّه:

- قوّاد... لص... كاذب...

أطلقــوا سراح الإقطاعي وحكموا على حنّه بسنتين سجناً على شهادة الزور.

رفض كريم الذهاب للقتال في كردستان، أودعوه السجن.

تخاصــم الزعـــيم مع النقابات، أنهكهم صعود الجبل ليتضاءل التصفيق له، عمد الزعيم إلى استبدالها بالأشخاص الذين خاصموه طويلا، لم يصفّقوا له لكنهم هتفوا بأعلى الحناجر:

- القضاء على الخونة في الشمال.

لتمـــتلأ سجون الجنوب بالمعتقلين الذين كتب العديد منهم على جدران السجون:

- عاش الزعيم.

سألهم زملاؤهم:

- أتشكر الضحية سجّانها!

- الزعيم لا يعلم، إنه رجل وطني، يحجبون عنه الحقيقة، من يقوم بأعمال التعسف بطانته والمسؤولون الفاسدون.

فــي كــل مرّة يؤمن الكثير من الناس أن رأس البلاء بريئ، خديعة تؤدي بهم إلى فخ الفناء، كما حدث يوم مقتل الزعيم، يتدافع ضحاياه إلى الموت دونه مصدقين حتى آخر لحظات حياتهم أنه لا يعلم شيئا عن التنكيل بهم.

جــرّد الجــبل الزعــيم مــن أســلحته الثلاثة: البندقية والناس والتصــفيق. البندقــية أرســلها إلـــى سفوح الجبال لا يصل مدى تصويبها إلى قمّة الجبل، الناس بين خائف وسجين، والأيدي لزجة يلطّخها الحبر الأسود، وتبصم أصابعها على (صحيفة الأعمال) في ملفّات دوائر الأمن.

ارتكــب الزعــيم أكــبر جــرائمه عند موته، إذ أوعز لعشاقه الكثيريـــن أن ينتحروا بالمئات معه. لكنه واجه القدر ببدلته الكاكي العســكرية مقدامــاً يمــوت واقفــاً. لا يشبه في نهايته أمثاله من الدكتاتوريين.

الفصل الثالث

انتشـــر المــوت بعــده، يــأخذ الناس طوعاً وكرهاً، لا تتوقف غرائــبه، فكما كان الزعيم دكتاتوراً لا ينعم بملكه جاءت بمن خلفه ثورة شعبية تقتل الناس.

اقتـــيد كـــريم إلى ساحة الإعدام، رمي بالرصاص أمام رفاقه، خطفـــوا جثّـــته التـــي لا تزال إلى الآن تبحث عن قبر، سألوه قبل إعدامه:

– أتريد تغطية عينيك بالقماش الأسود؟

– كـــلا... فبعد قليل سيسودّ كل شيء من حولي، أرغب أن أظل مبصراً لآخر لحظة من حياتي.

– هل كتبت وصيّتك؟

– لا وصيّة عندي.

- قل آخر كلماتك.

صاح كريم بصوت عال:

- عاش الشعب، عاش الشعب.

منذ مقتل أبيه كان كريم دمعة لم تنشف على جفون والدته، ظلّت تنتظر عودته كأسير لا يستطيعون جمع فديته، حين أعياها الانتظار ذهبت تسأل عنه الموتى في دروب المقابر، أخبرها الموتى:

- إن لم تجديه معنا ابحثي عنه في باطن دجلة والفرات.

يختلط دماء الضحايا بحبر الكتب المسفوح منذ أيّام هولاكو، لكن النهرين سرعان ما يهدأ غيضها، يغسلان الدماء بنميرهما الصافي، يهبان حياة جديدة تتكاثر فيها الأرواح تعويضاً لما ألقي فيهما من أجساد مقتولة وحبر سائل متناسيين الثأر، إنها أرواح يطهّرها ماء النهرين، لا ترفع غير الراية البيضاء ثم تعود إليه مقتولة، كأن التناسل ينبع من ماء النهرين، يجمع ما بين الموت والميلاد .

سارت أم كريم تتبعها الأمهات الثكالى تفتّش من سفوح الجبال إلى جنوب النهرين حيث يلتقيان بعد مسيرتهما الطويلة ليدفنا مع الأجساد الملقاة بهما في مقابر الملح.

تتحرك قاماتهن شواهد على قبور لا يتوقف سيرها، يرددن أغاني المهد:

- ردتك ييمّه إتشيل حملي....

أبت الجبال منذ الأزل أن تحمل ثقل أم فقدت ولدها ووضعته على قفص العظام ينسحق ويُدق ويُذرّى ويعود ثم ينسحق ويُدق ويُذرّى ويعود أصلب في قتاله من حجارة الجبل.

عــاد العســكر بجزمهم يضربون الأرض والناس، لم يعد: أبو خليل شدّة ورد. تدرّج في أدوار الاستحالة إذ فقد رائحته ثم فاحت رائحته، أوراق الورد أصبحت أشواكاً ثم نصالاً تنغرز في ظهور الناس.

إســماعيل ورشيد ضمهما عنبر واحد في سجن (أبو غريب). كــل منهما يلقي باللائمة على الآخر في حوار هادئ، عادا جارين يســترجعان ذكــريات الصــبا في ليل السجون الطويل، يتقاسمان الطعام مع رفاقهما من نزلاء السجن.

فــي كــل عام تؤخذ مساحات من الأراضي الزراعية المحيطة بســجن (أبو غريب) تضاف له قاعات صخرية تروى من العرق المتصبب، نزلاؤه خليط من أساتذة الجامعات والمدرسين والأطباء والمهندســين والموظفين والعمال والفلاحين الأميين، شكّلوا لجاناً للدرس والمحاضرات ولجاناً للطبخ وأخرى للنظافة وللتفاوض مع إدارة الســجن حــول شــؤونهم اليومية وغيرها. أنشأوا مدارس متخصصــة فــي الاقتصــاد والنظريات السياسية والعلوم الطبية والهندسية وغيرها من المواد، سواء المحظور منها أو الذي يُدرّس فــي الجامعات الأجنبية، كل هذا يتم من خلال علاقات جماعية لا تتوافر في الحياة خارج السجون، تحوّل ضيق السجون إلى محطات تنقلهم ما وراء البلاد، تتعدّى ضيق بيوتهم المحصورة بعيون رجال الأمن.

فــي الــزيارات الشــهرية تُجلــب لهم الكتب بأكثر من باقي الحاجــيات مــن ذويهم، أصبح الفلاح الأمّي يتكلم الفرنسية، يلقي كلمــة التخرّج من دورات اللغات وهو معتمر (العقال واليشماغ)، يسلّم على الشرطي المناوب:

– بون سوار.

يجيبه الشرطي ممتعضاً:

- أبو سوار إيّطنك وبّطن أبوك.

أبو سوار هذا مرض خبيث يصيب الكلاب.

فـــي أوقـــات الزيارات تتعارف العوائل، تجمعها أفراح الحزن بلقـــاء أبـــنائها. خـــلال الأحاديث العادية يتسرب الحب تارة بين الطلقاء من أقارب المسجونين وأخرى بين سجين وطليقة يتبادلان القلوب، يفر قلبه خارج السجن مع حبيبته ويأخذ قلبها سجيناً معه.

بعض زوجات أساتذة الجامعات الأجنبيات يتبرجن غير عابئات بجلال المحنة، يتغامز البعض ساخرين:

- لو كانت هذه والدتي لأصبتُ بعقدة أوديب.

لا يخلـــو المكـــان من الطرائف خصوصاً مع بائع الباجه (أبو الشـــون)، سجنوه لكونه أبقى صورة الزعيم ثلاثة أيام بعد الإطاحة به.

مـــثل أمـــام الحاكم يرتعد، أهداه عشرة سنوات سجناً لارتيابه بوجهه الأحمر وشعره المائل إلى الصفرة. لا يعرف (أبو الشون) رغـــم أنه صاحب مطعم غير الباجه، قدّم له أحد الظرفاء سندويج بداخلـــه قطع من الصابون الأصفر (سلّيت) أوهموه أنها قطع من جبنة (كرافت) التي تماثلها في اللون.

كشـــفت الحـــوارات الهادئـــة والسجون معادن أصحابها، في الحوارات يكشف أصحاب الشوارب الكثّة بلادتهم التي كان يسترها العمل السري، البعض الآخر تضيق نرجسيتهم بأدنى عبارة خشنة، الأبطـــال الـــزائفون في الشوارع من ذوي القبضات كعبد الخالق يـــرتعدون خوفـــاً داخـــل جدران السجون، لكن الغالبية من ذوي الأجســـام النحيلة والوجوه الشاحبة تحمل أرواحاً أصلب من صخر قاعـــات الســـجون، تثقب أصابعهم جدرانه كالمسامير لتفتح منفذاً

للنور. ما إن بدأت الدروس تثمر حتى جرت الحياة داخل السجون كما هي خارجها، أنتهم الأوامر:

- الصراع مستمر.

غابت لغة الحوار الهادئ بين رشيد وإسماعيل. ما عادا يتجاوران، تفرقا مرة أخرى كل يتبع جماعته مما سهّل مهمة إدارة السجن بجمع المعلومات. لم يترك هذا التعطيل القسري لكثير من طاقات الإنسان نوعاً من الرحمة أو الشفقة لدى هؤلاء السجناء الذين أصبحوا بعد ذلك حكّاماً، بل فاقوهم قسوة ووحشيّة، يغلقون كل النوافذ الصغيرة التي توصل بين قاعات السجن بالاحتمالات التي خبروها ما بين المكان والسجين وسجّانه بأكثر عنفاً وتضييقاً.

زارهم رجل أجنبي بصحبة الشرطة حين أصبح بعض هؤلاء السجناء حكّاماً فيما بعد، سألهم:

- هل تحسّنت حال السجون عن السنوات الماضية؟

يصمت السجناء، يعيد السؤال، لا أحد يجيب، يصرخ مدير السجن:

- كل شيء تمام...

يجيبون بهزة رأس موافقين .

أثناء مرور الأجنبي على القاعات يفتعل أحدهم شيئاً ما، يُلفت انتباه المدير وأعوانه حركة تكون كافية للهمس في أذن الزائر:

- في السنوات الماضية كان السجن روضاً من رياض الجنّة.

وإذا ما حدث أن عاد الحكّام مرة أخرى للسجن فإنهم يعترفون في حلقاتهم الضيّقة وخلاياهم الحزبية ببعض الأخطاء الثانوية، كاعترافات الكنائس لا تخرج للعلن، أمّا الخطايا فإنها تبقى في ليالي الأرق بين أيدي كبار الكهنة يباركون بعضها ويدفنون أخرى، وإذا ما عاد نفس السجناء حكّاماً مرة أخرى عندها يجب

البحــث عــن ألــم أشد من القسوة والوحشية إذ يتسابق المسؤول ورجــل الأمن على اقتناص الضحايا، يقتلون الآلاف من الأبرياء ولا يجــاكم أحــد منهم ظانين أن هذا يدعم أساسات ملكهم ويقيهم العودة للسجون... لم يعلموا أن الجماجم هي التي تقلب الأساسات.

عاد الإقطاعي يحتفل في نادي الموظفين مع موظفي الإصلاح الزراعــي، يدبّــرون المكائد لمهندسي إدارة الري، أحكموا الخطّة بســرقة وصولات أعمال النواظم وبوّابات الماء التي تنفّذ بالأمانة عــن طــريق إشراف مهندسي الري المباشر على الصرف. فجأة أتــتهم لجنة من العاصمة تدقق بوسائل الصرف بناء على إخطار مجهول بوجود سرقات في دائرة الري.

مثل المهندس ابن العتّال أمام اللجنة يدفع عنه وزملائه التهم:

- بين أيديكم الملفات، أنجزنا الخطّة كاملة بتوفير مقداره 30 % أقــل مــن تقديرات الوزارة، أرسلوا لنا خطابات الشكر والآن تنظرون لنا كاللصوص.

- لا يوجد في الملفات وصولات المبالغ المدفوعة، أين ذهبت الأموال؟

- كــيف لا يوجد وكل وصل يوقّع عليه المحاسب والمسّاح وأمين المخزن وأنا.

- انظر بنفسك...

اســتغرب المهندس، نادى على المحاسب الذي كشف لهم أرقام الوصــولات المدرجــة فــي سجل المحاسبة. لم تقتنع اللجنة بهذا التبرير. طلب المهندس منهم الذهاب معه والمحاسب إلى المحطّات والــورش التــي تــم الشــراء منها فلا شك أنها تحتفظ بنسخ من الوصولات.

رفض عقل الروتين يشك بتدبير مسبق، اقترح المهندس:

- عـندكم ملـف لكل مشروع، لنذهبْ ونتفقّد على الطبيعة الأعمال المنجزة، ستجدونها تتطابق والكشوفات.

أجاب رئيس اللجنة:

- نحن إداريون ومحاسبون لا يوجد بيننا في اللجنة مهندس.

- كـيف إذن تفهمون عملنا! اطلبوا إرسال مهندس يضاف إلى اللجنة.

- سـنكتب بذلك لوكيل الوزارة، ربما يستغرق استصدار أمر إداري زمـناً، علـى سـبيل الاحتياط سنوقفك وكل طاقم الإدارة والمحاسبة عن العمل، نلحقكم بديوان الوزارة في العاصمة، يجب تسليم كل ما بعهدتك خلال ثلاثة أيام إلى أن يبت في أمركم.

خلع المهندس ابن العتّال بدلة أبيه الزرقاء مرغماً، ودّع الفرات يسمع وشوشة الموج يصطدم بالشواطئ، تتناثر قطرات مائه على وجه المهندس قبلات رطبة لأم تودّع ولدها.

مـا برح الفرات يجري، يحمل في ذاكرته رائحة الراحلين. في هذه المرة بلّل الفرات بالدموع نفسه حزناً على فراق المهندس ابن العـتّال الـذي كان يجفف دموع الفرات، يسحبها بمضخّاته التي وضـعها علـى ضفافه. بغيابه عملت المضخّات دون قطع غيار كالعليل يتحامل على نفسه، لا تزيّتها الأيدي، صدأت روحها يقتلها الملل قبل تفكيكها حيّة وسرقة صواميلها، يعملون منها (صخاري) يتسلّحون بها.

للسـجون والحـزن معنى آخر في جنوب الفرات، فلا السجون أماكـن ردع للمنحرفيـن ولا الحزن يخلو من اللذة. ينتهي تقويم المنحرفيـن خلال يوم واحد في نظّارة المخافر بواسطة حزمة من الخـيزران تعمل من بعضهم وكلاء أمن. يحتفظون بالسجون لكل من أحب وطنه وفداه بنفسه. الحراس من رجال الأمن يفوقون أكثر

المنتفعيــن نكــرانا للجميل، يأخذون بلا حساب من موائد الوطن ويغصبون الناس على كرهه وكلّما ازداد عطاء الوطن ازداد كره رجــال الأمــن له، ولمّا كانت عواطف رجال الأمن تجري بتيار معاكس لذا تضاعف حب الناس، يجدون تشريفاً لا مهانة بركلة قدم أو تعلــيق مــن الأرجل أو بصقة وجه، يُمنحون درجات الاحترام بقــدر مــا تعمــل الآلة في أجسادهم، أمّا من تغيب روحه فترفع صُوره مع القدّيسين.

يحــتل الحــزن أكبر المساحات في أرواحنا، له أحلى وأجمل الأشــعار والأغانــي، صوته الأكثر صدقاً لبلاد تنتشر فيها القبور حتى في أعراسنا نغني عن افتراق المحبّين:

- (بآترف أصابع ليلة الحنّة ابعذابي اتحنّو)

هــذا الشجن العذب رضعناه مع ماء الفرات يجري في دمائنا، نتــنفّس رائحته عطراً يسحر الجميع، نراه في التضحيات العظيمة التي عند موتها تبعث الحياة.

تكاثــرت الصعاب على سرحان بعد رجوع الإقطاعي وغياب مهــندس الــري. أهمل أرضه دون زراعة ليتابع تشغيل مضخات الري ودسائس دائرة الإصلاح الزراعي. قطع الغيار لم تستبدل من قــبل الــوزارة رغم ملكيّتها للماكنات، أرهقوه بالمراجعات ما بين دائــرة الــزراعة والــري والوزارة في العاصمة، يرى اختلاف التعلــيمات بانتماءات أصحابها، لكل قطعة غيار واحدة ملفّ ضخم لا تنتهــي إضــافاته. الكشــف من قبل لجان متعددة الأشخاص، اعــتماده، ثم إعادة الكشف عليه لعدم توافره في المخازن، إحالته للجــنة المشــتريات لتأمينه من الأسواق المحلية.... لا يوجد في الأســواق قطــع غيار روسيّة.... يحال إلى لجنة فنيّة لتحديد قطع الغــيار المماثلــة مــن صــنع أجنبي آخر... لا يحل محلّها غير

الأمريكية غالية الثمن... تتطلب اعتماداً إضافياً من لجان الميزانية وموافقـة خاصّـة بالشـراء، تحيلها الوزارة إلى زميلاتها المالية والتخطيط والاقتصاد... يستمر تضخم الملفّات غير عابئين بمواسم الأرض ولا بامتصاص حليب الفرات المتضخّم على صدره.

جمع سرحان بعض النقود الشحيحة من فلاّحيه الفقراء، أكملها الحـاج عـبد الواحد صاحب الدكان الذي رجع إلى دكانه بعد أن ضاق به الشارع الفسيح الذي انفتح صباح الرابع عشر من تمّوز. اشـترى بهـا قطع الغيار من السوق، وجدها مستوردة خصّيصاً لوزارتي الري والإصلاح الزراعي!

تخلّى عن سرحان بعض الفلاحين من أعوان الإقطاعي السابق، رجعوا إلى سيّدهم يشتريهم بالمال هذه المرة بدلاً من سطوته. دعا الإقطاعي بعض من انتقاهم من الفلاحين يغريهم:

– مـا دمتم تدفعون المال لشراء قطع الغيار لمكائنكم الصدئة التـي سوف تتوقف عند منتصف الموسم مما يسبب لكم خسائر لا تستطيعون تعويضها، لم لا تسقون حقولكم من مكائني؟

– كم تريد ثمن ذلك؟

– ربع المحصول، حصّة الفلاح السابقة لي.

يكمل مبتسماً:

– لكم حصّة الإقطاعيين السابقين... أنا الفلاح الوحيد بينكم!

– بمكائن الحكومة المحصول جميعه لنا.. إقطاعيين وفلاحين في آن واحد.

– أردت لكـم الصـلاح، انتظروا، إن تمسّكتم بمكائن الوزارة سوف لن تعودوا حتى فلاحين.

عـــاد الشيخ طاهر يتصدر مجلس الإقطاعي بعد أن غاب عنه مرغماً، يبعث الشك في أمور معيشتهم كما يبعث الشيطان الشك في أمور التوحيد.

خاصـــم جعفـــر رفقـــاءه وأصحابه بالأمس، رشيد وإسماعيل وســـعيد، حين أصبح مسؤولاً في دورة الأفلاك الجديدة، أرسلوهم للســـجن ثـــم أطلقوا سراحهم بعد ثلاث سنين عندما أصبح الحزن علـــى طعن خيلاء جمال عبد الناصر أكبر من الخصومة بغية رد الأقزام الذين تحوّلوا فجأة إلى مردة يضربون هنا وهناك.

لم توّحدهم الهزائم، زادتهم تشرذماً مما ضاعف في أحزان عبد الناصـــر وبكاء الأرامل، كم منهم يضع نصب عينيه الوصول إلى الســـلطة ليبطش برفاقه! زرت إسماعيل ورشيد بعد خروجهما من السجن:

- أظنّها فترة تأمّل لرؤوسكم الحامية.

يردان:

- ليســـت تـــأمّلا فقط، إنّما كانت مختبرات فحص معادن، وجدنا أن الإنسان يحمل من المعادن الكثير الذي لم يكتشف بعد!

- صالحة أم رديئة؟

- كلا النوعين.

أخـــبرتهما أن جعفـــر لا يزال طيباً رغم بلادته فهو كالمضمّد الذي يدخلونه لإجراء عمليات جراحية كبرى ليس بمقدوره عملها، لكنه يرغب أن يضمّد جراحات الناس. اعترضوا:

- كيف لهذه البقرة أن يكون مسؤولاً؟

- لا يتمـــتّع جعفـــر بألمعيّتكم ولا بحجم التجارب التي يحملها أصـــحابكم مـــن ورائكم... لكن ما بال هذه البقرة المسالمة تعطي الحليب ولا تنطح وأنتم الجياد الأصائل بدلاً من أن تتجوا فرسانكم

من المخاطر توقعوهم بالرفس والتكسير؟ أما كان الأفضل أن تقودنا بقرة؟

عادا كل يجري في ميدان مختلف، سألتهما:

- بعد كل الذي حلّ بنا تتخاصمان؟

رد رشيد:

- دواء الجروح في وحدة الأمة.

- لكنّكم خاصمتم عبد الناصر عندما كنتم في السلطة!

- نختلف معه في أولويات الأهداف، ثم إنه يريد الهيمنة.

- هو أيضاً اتّهمكم بالقطرية، ثم كيف يمكن لهذه الوحدة أن تتحقق ونحن نتخاصم من البيت إلى الشارع إلى كل طرق سيرنا؟. ألم يناد قبلكم جعفر وأصحابه بالوحدة الفورية، طوردوا في سبيلها، لماذا لم يفعلوها الآن بعد أن جاءتهم السلطة؟.

- جعفر وأصحابه ذاقوا حلاوة السلطة ولا يزمعون تركها.

- ألا ينطبق هذا القول عليكم وعلى غيركم؟.

في الشارع وفي نشراتهم السرّية تتقارب الوسائل للوصول إلى عقول الناس؟ أمّا أهدافهم الخفية غير المفهومة فإنها تبرز بعد كسب هذا وذاك من الناس حيث يبدأ التحريض ضد بعضهم تاركين سؤالاً كبيراً لم نحصل على إجابته:

- أمن المعقول أن يكون كل هؤلاء اللاعبين سيّئي الأداء إلى هذا الحد؟!!

انتقل إلى إسماعيل يقول:

- دواء الجروح في جبهة النضال العالمي لتحرير الشعوب، الأمة العربية ضعيفة لا تستطيع مواجهة قوى الاستعمار وحدها، إن كنا صادقين لماذا نبتعد عن قوى عظمى تساعدنا؟

- ألا تعتقد أن الهدف واحد لكل من يعطي المساعدة؟ ينتظر أخذ أضعافها منّا.

- دول الاستعمار فقط هي الطامعة، المعسكر الآخر تحركه المبادئ.

- نصف المبادئ ربّما... يغرينا ويفرحنا أن نجد ابن العتّال والفلاح وقد أصبحا من كبار الأكاديميين والقادة، ولكن ما بال القيادة الجماعية دائما يديرها فرد؟ أليس هذا ارتداداً لمبادئ الرأسمالية.

تضافر في اتّحاد غريب المال من رأسه وعدوها السلطة المطلقة في الجانب الآخر لوأد أحلام ضحايا عشق التاريخ الطويل التي كانت لذيذة في المنام ومريعة في اليقظة. سحرت كلا الفريقين زينة المال والسلطة كامرأة جميلة سحرها ينداح عطراً لكنه يفسد من كثرة الشم.

توقفت مضخّات الري التابعة للحكومة بسبب تواطؤ الجهات الرسمية مع الإقطاعيين.

استُدعي سرحان إلى الشرطة:

- بين أيدينا بلاغات تؤكد قيامك بتحريض الفلاحين على عدم زراعة حقولهم.

- كذب، أنا فلاح مثلهم أعتاش على الزراعة.

- لماذا يتبعك الفلاحون، هل لك صفة رسمية؟

- ماذا تسمّي الجمعيّات الفلاحية، شبه رسمية.

- البعض يستغل الجمعيّات الفلاحية لتأليب الناس على الشرفاء.

- من هم الشرفاء؟ الإقطاعي الذي سرق قوتنا!

- لا تلفظ كلمة الإقطاعي! انه شخص يستأجر الأراضي الأميرية من الحكومة (كثّر الله خيره) يوفّر لنا الحبوب ويقلل من الاستيراد.

- قبل عامين عندما كانت مكائننا تعمل لم تستورد الدولة ولا حبّة قمح.

- أكررُ سؤالي لماذا تمنع الفلاحين من الزراعة؟

- الإقطاعي عرض أن يوفّر لنا الماء لقاء نصف المحصول، قبلنا بعرضه السابق الذي اقترحه بنسبة الربع، رفض. تداولنا الأمر في الجمعية وجدناه مجحفاً بحق الفلاحين، الحكومة لا تترك مكائنها خردة، فاتنا هذا الموسم لنضحّي به تفادياً للإجحاف خصوصاً أن عرض الـ 50% يشترط البذار على الفلاح.

- قراركم اتّخذتموه في جمعية الفلاحين أم في الأحزاب التي وراءها؟

- جمعيّات الفلّاحين رسمية وتحظى بدعم الدولة.

- لقد اعترفت بنفسك أنك منعت الفلاحين من الزراعة وهذه أعمال شغب تضر بالاقتصاد الوطني.

أخرج الضابط من درج مكتبه قراراً يقضي بإبعاد سرحان إلى محافظة نائية. احتجّ سرحان:

- يعني هذا... أن القرار صادر قبل التحقيق معي... أليس في هذا مخالفة!

رد الضابط أنه ينفذ قراراً صادراً من جهات عليا وأن على سرحان إطاعة ذلك وإلا دخل السجن.

أرسلوه إلى نفس المكان الذي هرب له واختفى به مع حبيبته نجاة قبل سنوات. سافر وحده هذه المرة يسحبه القطار السريع، لا تطارده جياد إنّما يدفعونه دفعاً، لكن كلا الحالين الآن وفي السابق

فصلاه قسراً عن أرضه، عدا أن الألم هذه المرة ممضّ، في السابق فرّ مع نجاة كطائر حر يتوقع في أي لحظة بنادق الصيّادين، صمما علـى إكمال طريقهما أو الموت دونه، هذه المرة شعر سرحان أنه ليس له جناح بل طير نتفوا ريشه ثم قيّدوه، ينظر لعربة القطار كقفص طائر يرى الحرية من خلال الشبابيك، أثقله مصير الفلاحين. من بعده سيعودون عبيداً كما كانوا رغم أن منهم الكثير من المقاتلين، لكنه لمس أن كسب العيش في الحياة أصعب من خوض القتال، تراجعت نجاة إلى آخر الذاكرة، افتقدها تجلس على الكرسي بجانبه، اطمأنّ قليلاً إذ إنه الآن غير خائف على حياتها كما كان في رحلته السابقة .

وصل سرحان إلى منفاه برفقة الشرطي، طلبوا منه مراجعة مخفر الشرطة كل يوم مرتين، صباحاً ومساء للتوقيع بالحضور، حذّروه من عقوبة صارمة إن تلكأ في الحضور.

ازدحم بيت المنفيين بأمثاله يجلسون مطرقين غير مصدقين أن يكافأوا بهذا الشكل مع أنهم يعملون في جمعيات ونقابات مجازة من الدولة وتحت وصايتها، لا تزال مفتوحة تمارس عملها سوى أن قياداتها استبدلت بالملاكين وأرباب العمل.

سبقت سرحان إلى منفاه نسخة من صحيفة أعماله مع تقارير سرّية تصنّفه كمشبوه يجب الحذر منه، سرت هذه المعلومات على طريقة إشاعات دوائر الأمن إلى الناس يطبّقها الخوف دون النظر إلى صدقها.

زار سرحان الأسواق التي عرفها أيام هروبه الأول، قابلته بنفور وكأنها ليست المدينة التي احتضنته وآوته مع نجاة يوم كان طريداً وسّعت له من بين كل المدن الضيّقة الخائفة من سطوة الإقطاعي آنذاك، وهاهي الآن تضيق به بعد أن أحبها.

ليالـــي تمّــوز القائظـــة الأشد حرارة في أيام الصيف، تجعلنا نتصبب عرقاً، ليس بفعل قرص الشمس الملتهب إنّما بفعل النيران الداخلـــية التي توقدها أيام تمّوز في نفوسنا، أنهت في البداية رتابة الأيـــام الرثّة ثم بزغت مرة أخرى غسقاً أحمر، ظل ينهمر علينا، أعاد رشيد وجماعته إلى السلطة شعارهم:

- جئنا لنبقى.

وحـــتى تبقى مطمئنّا عليك بقتل كل من تشك في ولائه، وإذا ما تكاثـــر القـــتل كما حدث فإنك لن تبقى مطمئناً، هكذا دارت عجلة الأيـــام الجديـــدة بعـــد تمّـــوز الجديد على طريق الخوف والقتل والضعف.

زرت رشيد أتوسّط عنده لإطلاق سراح إسماعيل وأخيه سعيد، كـــان يجلس على كرسي كبير، يضع نظارات سوداء على عينيه، بادرني متفاخراً قبل أن اسأله:

- لـــم يـــأخذ مني إسماعيل غير عشر دقائق، حطّمته بها، اعترف على كل أعضاء حزبه من الذين يعرفهم، أين صلابته التي يتباهى بها.

- اعترف لك طواعية!

- بالحديد والنار..

- عذّبت صديقك السابق وجارك!

- أتصدّق أنني لم ألمسه ولم أدع أحداً يلمسه.

- كيف إذن اعترف لك وهو المناضل القديم؟

- كنت أعرف أن إسماعيل نرجسيّ، يتحمّل التعذيب لكنه لا يتحمل إهانة كرامته، لذلك جئت بفتى سياسي أمام إسماعيل، أمرت ثلاثـــة من عتاولة التعذيب أن يتناوبوا على اغتصابه جنسيّاً بينما

يــتحاورون بمفــردات الــبذاءة عن وصف مؤخرته، كان الصبي يصرخ من الألم وهم يضحكون قائلين:

- سندخل بك شيئاً أكبر من ذلك.

بعــد أن فــرغوا مــن الفتى وضعت دستة أوراق مع قلم على المنضدة قلت لإسماعيل بصوت صارم:

- اخــتر ما بين الورقة و القلم أو هؤلاء الثلاثة ومؤخرتك. كتب ما طلبت منه كتابته ثم خرج ليلتها سالماً من غرفة التعذيب، زرتــه في اليوم التالي في زنزانته وجدته أشد انكساراً من الصبي الذي اغتصبناه.

- تتباهى بهذه الأعمال؟!

صرخ بي:

- إنهم أعداؤنا... لا يستحقّون الحياة.

- الحياة يهبها الله ويأخذها عند أجلها.

- نحن نأخذ الحياة ممن لا يستحقّها.

- مــن الــذي لا يســتحقّها؟! كل إنسان يستحق حياته التي أعطاها الله له.

- الذي لا يستحقّها هو عدونا.

- وهل إسماعيل وأخوك سعيد عدوّان لك.

- نعم... لا نقبل المعارضة.

- أين أخوك سعيد؟

- نال جزاءه كأي متآمر.

- أعدموا أخاك الذي ظنّ أنك تحميه.

- أنا لا أحمي المتآمر على الحزبِ والثورة.

- ربمــا اخــتلف إسماعيل قليلاً عنكم لكن سعيد جناح آخر انشق عن حزبكم.

- إنهم أشد ضرراً من الأعداء، يختبئون داخلنا، خصوصاً تنظيماتهم العسكرية، نعذب بلا رحمة المدنيين منهم بغية الوصول إلى العسكريين، إنهم يعلمون أننا لا نقبل بوجود رأسين، أحدهما يجب أن يقطع وطبعاً سيكون رأس سعيد.

- ماذا لو لم يكن الذي تعذّبونه يعرف عسكرياً حزبياً؟

- لا بد من ضحايا أبرياء لتبقى الثورة.

- لمَ خُلقت الثورات إن لم تكن لإسعاد الناس!

في أول زيارة لإسماعيل بعد عدة أشهر، حدّثني بأن رشيد قد حضر إعدام أخيه سعيد الذي كان مقداماً في موته، نظر بشموخ إلى وجه أخيه رشيد المصفر وهتف:

- تحيا الأمة العربية...

ازدرى والد رشيد أعمال ولده، فتح بابه جهة بيت والد إسماعيل يصلح ما أفسده الأبناء، طلب من ولده السكن بعيداً عنه، أمّا والدة رشيد فقد توزّع قلبها، نصف دفنته مع سعيد والآخر لا زال يحيا مريضاً مع رشيد.

هرب سرحان من منفاه بمساعدة بعض حرّاسه الذين أصبحوا مطلوبين بدورهم لعهد البطش الجديد قبل أن تصل البرقيات تطلب إرجاعه بحراسة مشددة، ما أعجب الأمور! يغادر في رحلته السريّة المعاكسة، يحمل نفس الخوف الذي وصل به في رحلته الأولى مع نجاة.

وصل سرحان إلى العاصمة، طرق باب أحد أصدقاء كريم، أدخله إلى غرفة داخلية، لم يصدّق عينيه لمرأى الحاج عبد الواحد صاحب الدكان. في ليل العمل السري الذي تتصل نهاراته ليلاً في الغرف المعتمة من الصعب التصوّر، كم يكون اللقاء سعيداً بصديق أو رفيق فارق رفيقه، لا يعلم هل هو حي أو ميت، فجأة

يجـــده أمامه في أحد المخابئ السرية، تتدفق المشاعر متنوعة في دفــئها، في فرحها، في ضحكها، في بكائها. حين علم سرحان أنهم يبحـــثون عـــن الحاج عبد الواحد صاحب الدكان، الشخص الطيب الـــذي يواسي الجميع، صديق الجميع، ليس له أي انتماء حزبي أو سياســـي سوى أنه رقص فرحاً يوم 14 تمّوز، أدرك أن المصيبة أكـــبر ممـــا يتصـــوّر وأن السجون سوف تتسع لأمثال الحاج عبد الواحـــد صـــاحب الدكان، أمّا هو وأمثاله ممن عملوا في النقابات والجمعـــيات كواجهات سياسية فلن يجدوا مكاناً لهم في السجون، سيكونون محظوظين لو وجدوا قبوراً لهم.

التصـــق ســـرحان بالحاج عبد الواحد يأنس به. علم أن زوجة صـــاحب الدار بنت عم الحاج عبد الواحد وأن كريم عرف زوجها بواسطة الحاج عبد الواحد.

بعد أيام أرسلوا سرحان إلى مخبأ آخر قريب يلتقي الحاج عبد الواحـــد كـــل أسبوع، يرى فيه حياته الماضية، لم يكن الحاج عبد الواحـــد شـــاهداً علـــى مـــا مر بسرحان إنّما ساهم في دفعه نحو مصـــيره. استبشـــر سرحان بوجه الحاج عبد الواحد نافذة واسعة للهـــروب الخلفـــي إذا مـــا حوصر من الأبواب لكن فرحه لم يدم طويـــلاً، قطعـــه حادث عرضي تافه... تشاجر صاحب الدار مع زوجته ابنة عم الحاج عبد الواحد التي استغاثت بابن عمها، طرحا الـــزوج يوسعانه ضرباً، فما كان منه إلا أن ذهب مُدمّى إلى دائرة الأمـــن وأخـــبرهم بوجود الهارب من وجه العدالة المسمّى بالحاج عـــبد الواحد، صاحب دكان من جنوب الفرات في بيته يزور ابنة عمّه التي سوف يطلّقها بسبب استقبالها لمجرم فار.

ودّ ســـرحان لـــو يفتدي الحاج عبد الواحد بحياته.. أخذوه إلى الجموع التي لا يعرف عن مصيرها أحد غير الله.

أولى هجمات السلطة الجديدة تركزت على المدن حيث يسهل مراقبة المنوي اعتقالهم، يترصّدهم رجال الأمن بسياراتهم المغلقة، ينصبون لهم الكمائن في بيوتهم وفي الشوارع وفي أماكن عملهم. الآتون من الريف يفرّون إلى أهاليهم مبتعدين عن متناول رجال الأمن مصطحبين بعض أهم المسؤولين السياسيين الهاربين من المدينة.

إن الناظر إلى رجال الحكم المتعاقبين منذ أوائل الستينيات والذين حملتهم أحزابهم والعسكر إلى السلطة يجد أن غالبيتهم من أصل ريفي من الذين لا يولون الشكل الحضاري أهمية، نفوسهم تتداخل فيها نوازع متعددة، فهم اشتراكيون وقبليون. مؤمنون وعاصون في آن واحد. جماعيون وفرديون. ديمقراطيون ودكتاتوريون. يختفي الجانب الحسن كونه اكتسب من خلال الكتب والبرامج السياسية ويبرز في التطبيق طبعهم الموروث عن الأسلاف، كحكاية الذي أراد أن يطبّع القطط بحملها الشمع المشتعل، لكن ما إن رأت الفئران حتى أشعلت دار صاحبها بالنار... والفئران هنا هم الناس المساكين.

حدثت مفارقات طريفة لأهل المدن الهاربين يؤويهم رفاقهم القاطنون في الريف، أحدهم خاض ماء النهر وانزلق، فقد (عقاله) ونعاله في مجرى الماء، أخذ يبحث عن نعاله حتى وجده لكنه نسي أن يبحث عن العقال الذي هو بمثابة الشرف عند أهل الريف. زميله الآخر اختفى في قرية قريبة من المدينة كانت معرّضة لغارات الأمن، أرسلوه إلى قرية أبعد، وصلوا إلى حاجز مائي، طلب الفلاح المرافق منه أن يخلع بنطلونه ليخوض الماء الضحل، تردد الأفندي التفت إلى الفلاح قائلاً:

- أرجو أن تحملني على ظهرك وتوصلني إلى الجانب الآخر.

استنكر الفلاح طلب صاحبه، رد غاضباً:
- أنا لست حمار الحزب.
إثـــر القبض على الحاج عبد الواحد خاف سرحان أن يشي به زوج ابنة عم الحاج، هو لا يعرف مكان سكنه السري لكنه يعلم أن البيت ليس بعيدا عن داره.
لاحـــظ ســـرحان مـــن الـــنوافذ انتشار وجوه غريبة تتلفّت في الشـــوارع يحـــل محلّها آخرون ليلاً، تيقّن أنهم يترصدونه، خاف كثيراً لا على نفسه، فهو ليس بأفضل من الحاج عبد الواحد الترف ابـــن المديـــنة، إنّمـــا علـــى أهل الدار، مضيّفيه الذين يخاطرون بأرواحهم، ينظر إلى عيالهم الصغار:
- ماذا يحل بهم إن قبضوا عليّ وعلى أهل الدار الكبار؟
قـــرّر الخروج من بيتهم حالاً. رجل الأمن في ذلك اليوم يقف قبالة باب الدار، ينظر كثيراً صوبهم، تداول سرحان كيفية خروجه مع امرأة صاحب البيت:
- أنصـــتي يا أختي، يجب ألا يراني رجل الأمن خارجاً من بيتكم، سأقفز إلى الرصيف المقابل حال خروجي من الباب لا يهم إن قبضوا عليّ بعد عدة أمتار. أنتِ الوحيدة بيدك نجاتنا.
- كيف؟ سأمتثل لما تأمرني به.
كانـــت صـــادقة فـــي قولها، تتحمّله كقنبلة مدفونة في بيتها لا تعرف متى تنفجر.
- مـــا أقوله لك سيبقى سرّاً بيننا، ترددت كثيراً لكني تغلّبت علـــى خجلـــي حيث أنك بمثابة أخت لي وزوجك أخي. أريدك أن تلبسي قميصاً يكشف عن أعلى الصدر، اعبري إلى الدكان المقابل حيـــث يقف رجل الأمن عندما تقتربين منه افتحي عباءتك، سوف ينهمك هذا الحيوان بالنظر إلى صدرك، إنّها وسيلتي بالخروج دون

أن نثــير انتباهه، لو أردت أن تخبري زوجك لاحقاً فهذا شأنك أمّا أنا فلن أخبره، يجب تنفيذ ذلك في هذه اللحظة.

وافقــته ســريعاً متمنية له السلامة. حذّرها سرحان من النهاية المــريعة لــو أن خجلهــا منعها من فتح العباءة إذ إن الخطأ غير مسموح به في العمل السري.

تلقفت سرحان الأزقّة والبيوت السرية لا يعلم شيئاً عن زوجته نجاة. انقطع الحبل السري بالقبض على الحاج عبد الواحد صاحب الدكان، كان يحلم أن يسحبها عن طريقه.

في تلك الأيام كان بكاء نجاة ونواحها يجعل العدو يشفق عليها. أشــاع الإقطاعي أنهم قبضوا على سرحان وقتلوه ثم وضعوا جثته مقطعــة فــي جلد خروف وألقوها في نهر دجلة، كأن قدر نهرينا العظيمين أن تدفن في أحدهما الجثث وينوح الآخر عليها بالدموع. أيّــد روايــة الإقطاعــي الشيخ طاهر مما جعل نبأ مقتل سرحان بتعذيــب مريع ثم التمثيل به أمراً مؤكداً. حتى ولو جاءهم سرحان حيّاً سيعتقدون ساعتها أنه بُعث من مماته كسيدنا العزير.

طلبت إجازة من عملي، تقرفني المدينة بأنبائها اليومية السيئة، أضــيق بشــوارعها، بمقاهيها، بغطرسة رشيد الذي لا أحتمل قبح وجهــه، سافرت إلى القرية أنشد الهدوء متخيلاً أن القرى لا تفقد صفاء نهاراتها ولا بهاء لياليها. أردت أن أهرب من لهاث المدينة وحصارها إلى فضاء القرية المترامي كأحلامنا المنصرمة ليس لها حدود.

رغــم كــل الأحداث التي مرّت لم ينقطع الفلاحون عن زيارة المضــيف صــباح كل يوم، فهم بطبعهم لا يغيّرون التقاليد وإن لم يرغــبوا بها. شهدت المدن انقلابات عديدة في نوع العلاقات بين الناس، تغيّرت أشكال ملابسهم، عاداتهم، مفردات لغتهم، أمّا القرية

فقـد بقيـت كمـا هـي مـنذ آلاف السنين تمر بها سكك الحديد والسـيارات كأنها حكايات خرافية، ما دام المضيف جهاز الإعلام الوحـيد المرئي والمسموع عندهم. يعيد الإقطاعي وزبانيته دوران اسطوانات التخلف، يمسك بالصوت والصورة، يؤازره بذلك الشيخ طاهر كالسامري يضل الناس عن عبادة ربّهم.

علمـت من والدي أن الشيخ طاهر يقبع منذ أيام عند الإقطاعي على غير عادته بترك عيش المدينة المرفه، ما استغربت ذلك، فقد أتـاهم رجـل ديـن نـاجى ربه، علم منه أن رسالته سيعترضها حواريـوه بالـنكد والتشـهي، وأن روحه سوف يعجّل بصعودها الطغـاة، عـاد لهم من بقايا الأنبياء كما عاد سيدنا موسى ينسف العجل ويخرس خواره، يعيدهم إلى الله لكن طريق الله يبدأ مخضّباً بالدمـاء فـي الولادة والإنسان ينطق بالبكاء ثم ينتهي كما بدأ مع الدماء والبكاء. لم ينتظره أخوه هارون بل رافقته أخته على طريق الهـدى الذي يوصل إلى الحتوف، هذا الطريق الذي يعشقه الناس لكنهم لا يجدون نبيّاً يمشي أمامهم.

في بدايات ظهوره تعرّض للتشنيع من عمائم على شاكلة الشيخ طاهـر. يدعوهـم إلى الزهد ومؤاخاة المستضعفين، وفي الحق لا يخاف بطش طاغية، لم ير في المرأة بقرة يشتريها كلما أراد كأس حليـب، أخرجها من أعماق الكهوف يعيد لها بصرها ومتانة بدنها الـذي يصـلح لأكثر من غاية، وضع أخته درعاً في الأمام ليكون فعله مساويا لقوله.

آمـن الكثير بهذا المسيح الذي لم يعش على العهد القديم، جاء حـاملا هموم الجديد، لا كما كان اقتصاد الأنبياء مثلما يحلو للشيخ طاهـر وأمثاله أن يرددوه على مسامع الناس كي يقبلوا بالكفاف. لكن مفارقات الزمان ليست كلها مآسي، تحوي المهازل كما حدث

للشـــيخ طاهـــر حين دفع ثمن غريمه كأحد حوارييه، فبعد القبض علـــى المســيح الجديد شنت السلطة حملة مطاردات شرسة على قـــاعدة (جئـــنا لنــبقى) لا تفرّق بين عمامة الشيخ طاهر وعمامة المسيح، أصبح الدين مطلوباً للقتل.

هبّ الشيخ طاهر يعانقني ووالدي يرحب بنا:

- أهـــلا بولدي عبد القادر، كنت دائماً في دخيلة نفسي أراك فتى مباركاً باراً بوالديك.

ربّمـــا كـــان ترحيبه المبالغ به لي خوفاً من أن أشي به لخلافنا الدائـــم أو شـــعور طريد خائف يأنس بكل من يعرفه، لذلك بادلته الشعور بالمودّة ودعوته إلى بيتنا للعشاء.

بدا الإقطاعي متضايقاً من الشيخ طاهر صاحب الأمس لا يقدّم لـــه طعام الجدي المفضّل، يبعث له والقهوجي نفس الطعام، يقاطع كلامـــه بمـــا يشبه الزجر، إشارات تعجّل من رحيل الشيخ طاهر، لكـــن الشيخ طاهر ساعتها يفضّل التهام التراب وتأنيب الإقطاعي علـــى الوقوع بين أيدي رجال الأمن، ولأول مرة نقف أنا والشيخ طاهر معاً، نبتعد قليلاً عن الإقطاعي.

دعـــوت عـــدداً مـــن الفلاحين مع الشيخ والإقطاعي، نحر لهم والدي الذبائح مع جدي صغير للشيخ. تبسّطت بالحديث مع الشيخ طاهر الوجل، أذكّره بأن الدنيا تضيق وتفرج وكل عسر بعده يسر، أعيد له الآية الكريمة:

(إنّما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب)

وأن العائلـــة لهـــا رزقهـــا المقسوم من الله يأتيها بوجود الشيخ وبغيابه.

انشرح صدر الشيخ طاهر من كلامي وهمس في أذني:

- كل هذا و كنت أظنّك ملحداً.

في اليوم التالي طلب الإقطاعي من الشيخ طاهر الرحيل.

أصـــبح الجـــبل مـــلاذاً للهاربين، يأتونه من أعماق الأهوار، مســـطحات مائـــية لا ترى فيها غير الأسماك والطيور والنباتات والجـــاموس، يصنعون جزراً صغيرة تكفي الواحدة لعائلة، تتناثر عشـــوائياً على سطح الماء، يستقبلهم الجبل وكأن الأرض استقامت مـــرتفعة، ينظرون مبهورين. مضيفوهم الأكراد يشبهونهم كأناس معزولين عن الحضارة.

جبالـــنا لم تحم مجرماً، حمت ضحايا السلطات المتعاقبة، يأتون ويغادرون لكن لا أحد منهم شكر الجبل، قابله من وصل منهم إلى السلطة بالنكران، راحوا يشقّون باطنه وصولاً إلى قلبه، ظل عصيّاً علـــى آلات الحفـــر والديناميـــت، يســـتقبل الغـــيوم بساطاً يركبه الهاربون، يحملهم إلى أوطان بعيدة لا تصلها بنادق رشيد وحقده. رغـــم اشـــتداد الضـــرب عليه بقي الجبل درعاً تبرد النيران لدى ملامستها.

عـــزم ســـرحان أن يتسلل إلى الجبل، ضاق بتنقله كالجرذ من مخبأ إلى آخر تترصده مئات القطط الوحشية من رجال الأمن وهو ابن الريف الفسيح الممتد اعتاد العيش في الفضاء، رفاقه من أبناء المـــدن يتســـلّون غير عابئين بعتمة المكان ما بين المطالعة ولعب الورق. بعضهم في ليالي الخميس يحتسون الخمر.

عجّـــل حـــادث لم يعتقد سرحان القروي أنه يقع لأمثاله برحيله إلـــى الجبل رغم عدم اكتمال التحضيرات. البيت الذي يختبئون به يعـــود لأحـــد رفـــاقهم مـــن الفرّاشين من كبار السن، امرأته في الخمسين من عمرها له منها ولدان، لا يتكلم في السياسة، معروف فـــي الحارة ابتعاده عن المشاكل مما أبعد شكوك رجال الأمن عنه

ليصبح بيته وكراً مثالياً للاختباء والاجتماعات الحزبية، الحادثة الأولى تمثلت بقيام فرّاش مقرّب لدى رئيس الدائرة التي يعمل بها صاحب الدار (الوكر) بمناكدة زملائه الفراشين، اشتكوه إلى رئيسه دون فائدة حيث أن الفراش يقوم بترتيب اللقاءات الساخنة مع بعض موظفات الدائرة وغيرهن، يجمعهن في بيته مع رئيسه المدير الذي يجزل عليه الهبات و يمازحه بلا كلفة. يوم الحادث أوقع الفراش المشاكس (سدارة) صاحبنا التي تخفي صلعته الواسعة، يسخر منه ضاحكاً ولعجز صاحبنا من إيقاف سخرية زميله فقد رفع يده إلى السماء قائلاً:

- اللّهم ارفع هذه الغمّة عن هذه الأمة.

سمعه أحد الموظفين الحزبيين من جماعة رشيد متصوراً أنه يقصد السلطة، كتب تقريراً إلى الأمن، لحسن الحظ أسرع رجال الأمن بالقبض عليه في الشارع قبل دخوله داره، وألا هلك معه كل المختبئين. سرعان ما علموا في دائرة الأمن عن الحكاية لكنهم لم يطلقوا سراحه، أحالوه إلى معتقل نظّارة الشرطة، أعلموه أنهم سيخلون سبيله بعد عدة أيام، اتّصل بزوجته يطمئنها ليتوقّف قلب سرحان ورفاقه عن الطرق.

بعد أيام وقع الحادث الثاني، جاءته امرأة صاحب الدار تبكي، أخبرته أن أحد رفاقهم وهو شخص في الستين من عمره من الذين قضوا معظم سنين عمرهم في الأوكار السرية راودها عن نفسها. طار صواب سرحان القروي فمنذ صغره علّموه ستر الأعراض وليس هتكها، هجم على رفيقه يطرحه أرضاً، يطوق رقبته بيديه. صرخت المرأة ترى الزبد يخرج من فمه المخنوق. بصعوبة أمسكوا بسرحان، سحبوا الرجل من تحته بالكاد، أقنعوه أن يكف عن الصراخ والشتائم خوفاً من افتضاح أمرهم.

آمن سرحان دائماً منذ أن انتظم في السياسة بأنهم يحملون أمانة كبيرة غلّفها بالمثالية، لا مكان للغرائز الفاحشة فيها، يزيد من ألمه أن هذا يحصل مع زوجة الرجل الذي حماهم من الموت، لا يخطر بباله أن حشرهم هكذا في الأقبية مع الخوف المريع لشهور وسنوات يغيّر من طبيعتهم البشرية كذئاب محاصرة تنقض على أقرب فريسة.

مع حلول الظلام أرسلوا رفيقه المتصابي إلى مخبأ آخر، لبس سرحان بدلة جندي قاصداً كراج السيارات عند منتصف الليل. لو سار كل شي بهدوء سيصل عند الفجر إلى كركوك الحد الآمن من غضب الجبال.

أعطوه عنوان وكلمة سر، رسموا له طريق رحلته:

- التفتيش في الليل ضعيف، جنود المناوبة العاديون يثقلهم السهر، قبل حلول الظلام ينسحب عناصر المخابرات إلى داخل مقرّاتهم هم ورجال الأمن الخبثاء، إن حافظت على هدوئك لن يقع لك مكروه.

خرجت السيارة من العاصمة وأحس سرحان أنه طائر فتحوا له القفص، يسبق في تحليقه عدو السيارة، عيناه تلمعان في ليل الطريق، يرى الظلام نهاراً، غاب عنه الخوف، يجد ليل القرية البهيّ في السماء التي لم ترحل نجومها منذ أن شاهدها صغيراً، لعلّ نجاة في هذه الساعة ساهرة ترنو إلى النجم القطبي، نظر نحو النجم القطبي يبحث عن عيون نجاة.

أبطأت السيارة في سيرها ثم توقفت، اقترب منهم شبحان أدخل أحدهما (بوزه) يتفحّص الوجوه، ارتجف سرحان، أمرهم:

- الهويّات.

تفحّصها ثم خاطب سرحان:

- أنت عسكري أين ورقة الإجازة؟
- ليست معي.
- ربّما تكون هارباً.

تلعثم سرحان، أراد أن يفتح باب السيارة ويهرب لكنه تذكّر:

- الوالدة سامحها الله غسلت ملابسي وأتلفت ورقة الإجازة، تفحّص هويتي أنا من الجنوب فكيف أهرب إلى الشمال.
- فقدان الإجازة له عقوبة عسكرية.

صمت سرحان يرتعد، أسعفه الرجل الثاني:

- حل عن هذا الجندي المسكين، إلى أين هو ذاهب، إلى ربوع لبنان! سيرسلونه غداً إلى قمة الجبل، ربّما يعود لك تابوتاً.

طلب الرجل الأول المتأكد إيصاله معهم. في الطريق علموا أنه عنصر مخابرات تعطّلت سيارته.

أطلقوا سراح إسماعيل، طلبوا منه مراجعة دائرة الأمن بعد ثلاثة أيام. لم تصدق والدته خروجه سالماً، بحثوا عنه في المخافر ودوائر الأمن والمستشفيات والمقابر، أنكر الجميع علمه به، إلى أن نقلوه إلى السجن العام، عاد لهم من الآخرة يحكي همساً عن أهوال الجحيم. رقد أياماً في بيت والده تأتيه الكوابيس، تجسّمها الأحلام رعباً يوقظه أثناء الليل، يرونه عوداً يابساً فقد ماءه على أفران دوائر الأمن.

جرى حنان الوالدة كالماء في العود نسغاً يعيد له الحياة، ترممت عظامه بدفء والديه، استعاد بدنه بعض عنفوانه بفضل طعام والدته أشهى طعام، مقبّلاته وجه أمه المطل المبتسم، ظن أن لن يراها، يتأمّلها وكأنها هي التي عادت من الآخرة، لكن روحه لم تشف كبدنه، استمر أسير الكوابيس والرؤى المرعبة في اليقظة وفي المنام، تأتيه أصوات الأرواح والأبدان المقطّعة أجزاء

منها. تستغيث مؤخرة الصبي المدمّاة التي التصقت بقع من دمائها على حوائط السجن.

ذهـب إلـى دائـرة الأمن، أبقوه ينتظر طويلاً، هذا الانتظار المقصود أسوأ من استجوابات وتعذيب رجال الأمن على النفوس.

أدخلوه على الضابط قبل نهاية فترة الدوام الصباحي بدقائق:

- اسمك

- إسماعيل إبراهيم.

- سكناك.

- محلّة السراي.

- إطـلاق سـراحك مشروط بتعاونك معنا، تكتب لنا تقريراً أسبوعياً عن نشاط حزبك، اتّصل بجماعتك المتخفّين، اخبرهم أنك لم تعترف.

تساءل إسماعيل مستفهماً. رد الضابط بجفاف:

- توقيعك هذا على تعهّد بالتعاون.

- أيعني هذا أن أكون وكيل أمن!

- نعم، هذا المعنى بالضبط.

- لـم أتّفـق معهم على هذا، جلبوا لي ورقة قالوا إنها تعود لإجـراءات إخـلاء سبيلي، طلبوا توقيعاً ففعلت، لم أقرأ محتواها حتى هذه الساعة.

- هاك اقرأ نصّها، سوف تعدم إذا خالفتها. عد إلى بيتك الآن سأنتظرك الأسبوع القادم.. لا تتأخر.

- أكتب لكم تعهّدا بعدم ممارستي لأي نشاط سياسي مستقبلاً، اعدموني إن خدعتكم لكن وكيل أمن لا أستطيعه.

- نـريد الوصـول إلى المتخفّين في الأوكار السرية، كيف يتّصـلون ببعضـهم؟ أيـن يطـبعون نشراتهم السرية؟ ربّما كان

مراسلوهم من النساء، نريدك أن تتأكد من ذلك، لم نقبض على أحد منهم منذ زمان، ابتدعوا أساليب جديدة في التخّفي والمراسلات، لا يوجد أفضل منك في الوصول إليهم، ستعودون إلى الصف الوطني بهذه الخدمات. انتهى الحديث. اذهب إلى بيتك.

أيقــن إســماعيل أنه لو خضع لهم مرة أخرى فإن طلباتهم لن تنتهــي عــند حــد، أمامــه طــريق طويل من وحل الخيانة يمتد كمستنقعات متحركة تبتلع من يخوضها.

ســافر ليلاً إلى العاصمة قاصداً بيت أحد زملائه السجناء ممن أطلق سراحه، قبل أن يغادر بيته وضع رسالة تحت وسادة والده، كتب:

– والــدي العزيز... يوجعني ويؤسفني أن أسبب لك وللوالدة كل هذا الألم والحزن... خضعت لهم مرة بسبب ما اعتقدته شرفي الــذي يقــف دونه كل شيء، في السجن قبل إطلاق سراحي آليت علــى نفسي أن تكون أنت والوالدة قضيّتي الجديدة، أعوّض ألمكم بابــتعادي عن المخاطر، بنومي في سريري هادئاً، بتقبيل رأسيكما وأياديكمــا عند ذهابي للنوم وفي استيقاظي في الصباح، أردت أن أكــون يا والدي مظلّة تفيء لكم حيناً وتمنع عنكم البلل أخرى، ثم تــتوكأ علــيها إذا ما وهن عظمك، أمّا أنت يا والدتي فأقصى ما أتمنّاه أن أظل وليداً في المهد تتفقدينه في كل حين، لكنهم يا والدي يصرّون الآن على سلب شرفي الحقيقي، ربّما يأخذونكم رهائن فهم يزدادون شراسة ومكراً في كل يوم، سيضاعف هذا من ألمي، إنما أهون من أن أكون عاراً عليكم، قراري هذا تم في خمس ليال من الأرق، لــو جاءكمــا رجال الأمن قولا لهم إن سيارة خطفتني من أمــام بيتــنا، ربّما تنطلي عليهم الحيلة حيث إنهم يملكون أكثر من ثمانــية أجهــزة مستقلة للتعذيب والقتل.... أكرّر أسفي فالظروف

حالت بين ما تمنيّته... سعت لي المشاكل حين أيقنت أنني انتهيت منها، لا تيأسا فلكل شيء نهاية... وداعاً...

رحّب صديق إسماعيل به، أدخله بيته، نادى على أسرته:

– هذه زوجتي أم وفاء وأختي أمل.

عاملوه بألفة، تذكرته الأخت:

– أنت السجين الذي في كل مرة تجلب له والدته بطّانية.

نـــام إســـماعيل ليلته يتذكر أيام سجنه مع مضيّفه، ها هي أخته التي أتوا له بصورها مع خطيبها المتواطئ وأجهزة الأمن تظهرها عارية معه، يراها رافعة الرأس ترفس خطيبها كالكلب، ثم جاءوا بزوجـــته يمـــزّقون قطعاً من ملابسها، يهددون باغتصابها أمامه. رضخ لهم كما أرضختني مؤخّرة الفتى لكنه لم يواجه انكساري، اعترف على سعيد المقتول وبعض أعضاء تنظيمهم ممن استشهدوا تحـــت التعذيب أو الإعدام، أعادوا التحقيق، أعطاهم أسماء بعض الهاربين.

أيقظوا إسماعيل عند الظهيرة، ينفق بعضاً من ليالي السهاد التي اختزنها:

– لا أريد أن أثقل عليكم، اتّساع العاصمة حمى التنظيمات، نحن لسنا من تنظيم واحد، كل ما أطلبه إيصالي لجماعتي.

– أنا مثلك طلبوا منّي التعاون مع أجهزتهم السرية، يتذرّعون بخدعتهم السافلة على أوراق إخلاء سبيلنا، لا زلت أراوغهم لحين إرســـال عائلتي إلى سوريا ثم أختفي في أحد الأوكار، أختي أمل تـــرفض الذهـــاب. هـــي من توصلك بجماعتك، ترى في خطورة العمل السري متعة، يلقّبونها رئيسة الجبهة الوطنية.

تذكر إسماعيل قول ضابط الأمن، استوقف صديقه:

- إنّهم يشكّون بالنساء، حذّر أختك ألا تجعل من خطورة العمل متعة.
- هي تردّ بشجاعة على جبن خطيبها ونذالته، لم أخبرك سابقاً إنه ابن عمنا.

لم يتبق لي من أصدقائي غير جعفر القابع ما بين بيته وعمله، فبعد موت عبد الناصر وحجزه ثلاثة أيام في دائرة الأمن ابتعد كلّياً عن السياسة.

ذهب جعفر في أحد الصباحات إلى عمله، كان يوماً عاديّاً لكنه لم يمنحه الاختيارات، قبضوا عليه في الطريق، أرسلوه إلى رشيد:

- يا حمار... ألم تكتب تعهّداً لنا بعدم ممارسة السياسة.
- نعم.
- خالفت ذلك.
- كيف؟! عدا موظّفي دائرتي وصديقك عبد القادر لا أكلم إنساناً.
- هذه المرّة أمر القبض عليك صادر من العاصمة، سترحّل لهم، ربّما ألتقيك هناك... أصبحت رئيس لجان التحقيق.
- لم أسافر إلى العاصمة منذ ثلاث سنوات، ربما تشابه أسماء.
- أنت المقصود، منذ شهر عدت تشتري الجريدة يومياً.
- نعم، هذا صحيح لكنها جريدتكم.
- إذن عدت تهتم بالسياسة.
- كم عدد الناس الذين يشترون الجريدة، تُوزع الكثير من نسخها بالمجان.

لم يفصح رشيد عن كيف أوصل شراء الجريدة جعفر إلى المعتقل.

قبل ترحيله إلى العاصمة أسرّ له معتقل آخر يفوق جعفر ذكاء أن دائرة الأمن تفتح وتحتفظ بملفات لكل من يشتري جريدة أو كتابا من المكتبات الخاصّة أو يستعير كتاباً من المكتبة العامة كسجلات المجرمين لدى دوائر الشرطة، يلقون القبض عليهم تباعاً في حالة حدوث نشاط سياسي مبهم أو إذا انخفض عدد المعتقلين في الزنزانات.

حضر عدد من رجال الأمن قادمين من العاصمة، رافقوا جعفر وعدداً من المعتقلين الآخرين معصوبي العيون، يربط الحديد أيديهم. الطريق إلى العاصمة يسير بمحاذاة الفرات، تملأ رطوبته رئتي جعفر، الشيء الوحيد المحسوس لمعتقل معزول، أجبروهم على الانبطاح فوق بعضهم داخل السيارة التي تسير بأقصى سرعة يضرب الحديد أجسادهم ورؤوسهم لدى عبور المطبّات.

ألقوه في زنزانة مكتظّة بمعتقلين من الأكراد المسنيّن دون أن يحقق معه، علم أنهم أُخذوا رهائن انتقاماً من أولادهم الذين صعدوا الجبل مع (البيشمركه).

اضطرّ جعفر أن يتعلم اللغة الكردية، فالمسنون من الأكراد غالباً لا يحسنون العربية، على فترات قصيرة يأخذون عدداً منهم ولا يعودون، لكن الزنزانة ظلّت مكتظة بالمعتقلين.

كانوا غير خائفين يسمعهم يرددون دائماً:

– كردستان... ياناماان.

يقولون بصوت عال:

– سيقتص لنا أولادنا.

نقلوه إلى قاعة تضم خليطاً من عرب جنوب الفرات مكتظة هي الأخرى، يأخذون عدداً من نزلائها عشوائياً يدفنونهم جثثاً لا يثأر لها أحد.

تساءل أستاذ جامعي معتقل:

- أيعتبرون القتل فضيلة!

أجابه سياسي مخضرم:

- سمة الخائف أن يدمّر بلا حدود كي يوهم نفسه بالقوة، هذه المرة لها وجه ثان، يريدونها شهادة تسويق خارجية.

فقد جعفر ضخامته مع أن العديد من أصحابه يتركون طعامهم دون مساس، تكورت معدته بفعل الخوف، لم يتمثّل التغيير بجعفر فقـــط في صغر حجمه، امتد إلى عقله الضيّق يتوسّع بمرّات فاقت كـــبر حجمـــه السابق. فتحت له ملاقاة الموت اليومية أبواباً للحياة كانت مغلقة سابقا لأمثاله.

كتب همنغواي: إن الحياة جميلة، تستحق أن نقاتل من أجلها. لم يتّفق جعفر مع الشطر الأول من مقولة همنغواي، لكنه قطعاً اتّفق معـــه في الشطر الثاني... يجب أن نقاتل لئلا يقترب الفاشست من السلطة.

ارتـــدت أمـــل ملابســـها التي خلعتها لخطيبها السابق قبل أن يلتقطوا صورها عارية، تأبّطت ذراع إسماعيل توصله إلى مخبئه الجديد.

جماعـــته لم يرحبوا به في البداية، كتب لهم عدة مرات في كل مـــرة يســـألون عـــن أدق التفاصيل أيام سجنه واعترافاته، امتدت ضـــيافته أشهراً. مضيّفه أرسل زوجته تسبقه إلى سوريا، أصرّت زوجـــته أن يتـــبعها، تخلّف لحين مغادرة إسماعيل لبيته. أبى أن يطلـــب الرحيل منه مع أن الموت يقترب منه في كل يوم، في يوم انـــتقال إسماعيل رحل أخو أمل يختفي في الدروب السرية ليلحق بزوجته. أخته فضّلت البقاء في الأوكار السرية تكتسب في كل يوم غطاء من الشرف.

اضطربت أصابعها وهي تمسك بيد إسماعيل، انقلب التمثيل إلى حقيقة، رماهما إله الحب في الشارع الذي توقّعا منه إصابتهما برصاص قنّاصة رجال الأمن، حملا سهميهما يضغطان عليه، يسمعان وجيب قلبيهما اللذين فارقهما الخوف صامتين. اقتربا من مكانه الجديد، قالت بصوت مرتعش:

- أمامنا الباب سأطرقه.

- توقفي... أتسمحين بالتجول معاً قليلاً من الوقت.

- لا يسمح رفاقنا، ربما تعرّف عليك أحد.. و..

صمتت أمل تقف أمام الباب ثم أكملت:

- لكني أرغب مثلك بالتجوال.

غضب رشيد لاختفاء إسماعيل، اشتعل كرهه الدفين ناراً يلوم نفسه:

- كنت أحمق.. تركت ألد أعدائي يفلت.

أبقى رشيد على حياة إسماعيل سابقاً، لا لكونه جاره أو زميله في الدراسة، إنّما أراده أن يعيش ذليلاً، يخبر كل من يصادفه:

- لم يأخذ إسماعيل منّي غير عشر دقائق ليعترف بكل شيء.. أجبن جماعته.. لا يغرّنكم طول قامته وكلامه المنمّق.

أفقت على طرق بابي أواخر الليل، اندفع عدد من رجال الأمن المدنيين يتقدمهم رشيد القادم من العاصمة:

- عبد القادر، أين إسماعيل؟

- كنت أظنّه معتقلاً لديكم.

- لا تسخر منّي، الدماء لم تجف لحظة من على أرض وجدران المعتقلات، زيارة واحدة ويتوقف لسانك عن الكلام.

- أمامك غرفتي.. أين أخفيه!

- تخفيه في القرية.

أخذني رشيد مخفوراً، طلب قوة إضافية، أحاط بالقرية، فوجيء الرعاة بمسلحين يمنعون أغنامهم الجائعة من السير إلى المرعى.

استيقظت القرية على ثغاء الأغنام وخوار البقر يتظاهرون ضد رجـال الأمـن. فتّشـوا بيتـنا، هدموا مخازن الحبوب الصغيرة (الطينـية) أتلفوا قبب (المطّال). اشتد غضب رشيد، وجّه مسدسه نحوي:

– أين بيت فرحان وياسين؟

– سأرشدك لهما. أتعلم أن ياسين وفرحان لم يشاركا في كل ما مر من تقلبات؟ كأنهما قُدّا من هذه الأرض، ليس لهما مطامع لا مع الإقطاعي ولا مع الحكومة ولا مع الجمعيات الفلاحية.

داهمهمـا رشيد بالسباب والإهانات، اصفرت وجوههما كأرض نضب ماؤها، لم يجد شيئاً، هاج رشيد يشتم:

– معدان.. سأرميكم بدلاً من إسماعيل.

رجوته:

– يا أستاذ رشيد، القرية محاصرة فتّشها بيتاً بيتاً، لا ترحمنا لو وجدت أثراً لإسماعيل لن نفتديه ولا بدجاجة! قلتها ضاحكاً.

قاموا بتفتيش البيوت جميعها حتى بيت (علاهن) الضريرة التي كـادت أن تقـتل برصـاص الأمـن، حسبتهم لصوصاً تستغيث صـارخة. حـاول الإقطاعي التملّص من تفتيش بيته لكنه رضخ للشـر المتطاير من عيني رشيد. عثروا على صناديق من الخمور والذخيرة في بيته. صادر رشيد كل سلاح في القرية حتى الخناجر وبنادق الصيد. هدأ لمرأى صناديق الخمور الإفرنجية المستوردة.

أمر رشيد قواته بالانسحاب تاركاً القرية تنظم فوضاه .

في الوقت الذي سخن فيه صدر رشيد كموقد يشتعل فيه حطب الغـيظ والحقد يمنع عنه الرقاد، امتلأ صدر إسماعيل بهوى عذب

يدفّئه سنا جذوة صغيرة أوقدتها أمل، لا تنطفئ في المنام، تنير له طـريق أحلامه، تفجّرت ينابيع الحب التي حاول رجال الأمن أن يغلقـوا تدفّقهـا في أوج غاراتهم الدموية على الناس، تضفي على عتمة المخابئ نوعاً من الجمال، يعيش هذا الحب كالنباتات في قاع البحار بعضه يموت لملامسته السطح.

إسـماعيل يغالـب عودة تدفق مشاعر المراهقة التي سلبها منه الاشـتغال فـي السياسة مبكراً، يغسل ملابسه، يكويها، يقف على المرآة طويلاً:

- من قال إن الأوكار لا تُولد الحب؟

اكتسـب مخـبأ إسـماعيل لمسة نسائية، زيارات أمل المتفرّقة جـددت الهـواء الراكد، أزالت عفونة المكان المتراكمة تجلب لهم بعض هدايا الترف الصغيرة... الذي يريد حبيبات الشجر يوصيها:

- اجلبي لي من عرق الآلهة المتخثّر.

والذي يريد خمراً يطلب منها:

- اجلبي لي من دموع المسيح.

تجيب ضاحكة:

- أهذه أيضاً رسائل مشفّرة أنقلها إلى الباعة؟

عند مغادرتها تترك لهم وردة بيضاء في أصيص صغير تعود لهم عادة قبل أن تذبل.

مـنذ يوم تفتيش القرية بحثاً عن إسماعيل توطدت العلاقة بين رشيد والإقطاعي، اتفقا على قيام الإقطاعي بالإبلاغ عن كل شيء مريب مباشرة إلى رشيد دون المرور بأجهزته الأمنية، وتسليم من طلـبوا إلـى الخدمة العسكرية مع أمور أخرى ظلّت غامضة لقاء تسهيل رشيد لاستيلاء الإقطاعي على كل الأرض.

طعن الإقطاعي بصحّة عقود الإصلاح الزراعي التي تمّ توزيعها أيام (الزعيم) رفعوا تظلّمه إلى الوزارة، جاء الرد سريعاً بإلغاء العقود القديمة التي لا تتلاءم وطموحات الثورة الزراعية للنهوض بالاقتصاد الوطني. وبما أن القانون القديم لا يزال سارياً فقد تمت فبركة عقود بأسماء وهمية وأسماء متوفين لا تتسع لهم الأرض المتوفرة.

تمّت الموافقة على هذه العقود في الوزارة ثم جرى تثبيتها بدائرة الإصلاح الزراعي في المحافظة. احتفل الإقطاعي يطلق النار على رؤوس البيوت يرافقه أولاده وعدد من رجال الأمن برشّاشاتهم يعلنون بدء ترحيل الفلاحين عن أراضيهم مع وصول آلات الحرث والحصاد الزراعية الحديثة، يخاطبهم الإقطاعي شامتاً:

- عادت الأرض لي... استبدلتكم بآلات صامتة لا تتكلم... لا تعمل جمعيات فلاحية ولا تكتب عرائض للدولة.

توسّل بعض الفلاحين... أمهاتهم وقعن على قدميه:

- دعنا نعيش فقط في بيوتنا، لا نريد أرضاً، أولادنا سوف يتطوعون في الجيش، مرتباتهم خير من الزراعة.

رقّ قلب الإقطاعي لمرأى العجائز يمسكن تراب القرية ثم سرعان ما تدارك نفسه فالذين يعيشون على شقاء الغير لا قلب لهم. وإذا ما سأله رشيد عن مسئوليته بتسليم الفتيان إلى الخدمة العسكرية سيقول له:

- أرسلتهم لكم دفعة واحدة.

فكلما توقّدت حرارة جبال كردستان وخطوط الحدود تضاعفت مرتبات الجيش، يتسابق عليها المطرودون من أراضيهم في قريتنا وفي القرى الأخرى، فقد بقيت الأرياف أمينة على تقاليدها

المشتركة.. تجف وتزدهر، تثور وتخمد معاً.. يتواصل فيها نحيب الأرض والأمهات.

لم يشأ الإقطاعي أن يُرهب النسوة الساجدات تحت قدميه، اتّبع الخداع:

- الحكومة أمرت بذلك.. موسمان ضاعا وأنتم تنتظرون قطع غيار ماكنة دائرة الري الروسية الصنع.. حكومتنا الرشيدة تقطع رقبتـــي إذا لم أنتج كميات الحبوب المقررة في الخطة الاستثمارية الجديـــدة، رواتـــب الجـــيش مجزية الآن أضعاف ما تكسبونه من الـــزراعة.. سمحت الحكومة لأمثالكم ببناء بيوت من الطين على مشارف المدن.

أكمل ضاحكاً:

- ســـوف تصبحون (حضر) تلبسون آخر (موده) وأظل أنا (معيدي) معتمراً (العقال واليشماغ).

كـــان الإقطاعـــي ثعلـــباً ذا بعد نظر لا يسيّره غضبه كرشيد، استولى على الأرض وطرد الفلاحين في آن واحد فلو أبقاهم قرب الأرض ربمـــا يعـــيدهم لأخذها عشقها الذي لا يموت، لكنه راهن على سلوى القلوب عندما يطول الهجر.

أبقى الإقطاعي أخلص أعوانه ليس كفلاحين بل نواطير يبعدون الهـــوام والطـــيور عـــن الـــزروع. عهد إلى فرحان صاحب اليد المكسورة برعي أغنامه وأبقاره. بكى وهو يودّع ياسين:

- فقدت يدي في قتال البنادق... أحمل الآن عصا راع... لن يقبلونـــي فـــي الجيش لعاهتي، عزائي بعد رحيلكم نومي على هذه الأرض التي كانت لنا بيتاً ورزقاً وملعباً.

برحيل الفلاحين كلّت روح الأرض، لا تسمع غناءهم:

- يكاظم مهجتي الهجران عادمها...

وكـــأنهم كـــانوا يتنبّأون بمصيرهم. تجزع الأرض من صوت التراكـــتورات الأجوف يشق باطنها كامرأة تغتصب، حتى وإن نما زرعاً فسيكون ابن زنا.

بكـــاهم الفـــرات تفيض دموعه مالحة على الأرض تميّزهم من بين الأعراق:

– إذا شـــربت قطـــرة مالحـــة من ماء الفرات فأنت جنوبي بالكامل.

يحـــيا إســـماعيل أياماً مملوءة بالعزيمة والأمل والتلوين، شفت روحـــه بـــأعظم مما كانت في عز أيامه، جلب له الخطر المخيف جمـــال المغامـــرة، علّمـــه رفيقه القديم أبو جهاد كيف يعمل بعقله وعلّمـــته أمـــل كيف يفعل بقلبه. كثيراً ما تكلّما صامتين بحضرة أصحابهما، قلباهما يحكيان وعيونهما أفواه يخرج منها الصوت:

– أريدك... أريدك بشدة يا عروس الأوكار السرية.

لـــيس خانقاً هواء المخابئ الراكد، طالما تكلّموا بحرية، فاسداً يملأ الفضاء خارج المخابئ هواء الفاشية الكريه، لكن داخل حسن يبدد استرخاءهم:

– الونّه طالت.. يا سعد يبويه.

هذا الأنين المتوارث منذ أن حط آدم قدمه على أرضنا يئنّ كلّما رأى تفاحـــة، ثم انقلب الأنين إلى عويل بذهاب الحسين من أرضنا إلـــى الجـــنّة. اعترض كلا الجماعتين على زواج إسماعيل وأمل، أفتى أحبار العقائد:

– لا يسمح بزواج اثنين لا يجمعهما حزب واحد.

من الذي يرتدّ عن دينه في ساعات الدماء هذه. كتبوا لأخيها في سوريا جاء الجواب:

– موافق.

أضاعته أيادي البريد السري. تعددت أسباب الرفض، منهم من يحـــنق علـــى إسماعيل لحصوله على زوجة يهنأ معها في شهور وســـنين الوحـــدة الطويلـــة، ومـــنهم من يتبع فتاوى أحبارهم بلا تمحيص، ثالثهم من كانت له خلافات شخصية مع أبو جهاد الوثيق الصـــلة بإسماعيل، ينتقمون منه بأصحابه. لعب هؤلاء الدور الهام فـــي مصـــير إســـماعيل وامرأته، أشاعوا عن تعاونه مع الأمن.. عزلوه بأشد من مريض يحمل وباء، تنهمر دموعه:

- متى خرجت من المخبأ؟! معكم معزول عن العالم بأشد من أخطـــر الســـجناء.. لـــم يُقبض على أي رفيق منكم.. حرام.. لا تتصوّروا قسوة تعذيبكم لي، أرسلوني إلى كردستان.

يجيبه المحقق الحزبي:

- نعم أنت لا تخرج.. لكن صاحبتك تخرج.

- تـــتهمونها الآن! كنتم تأتمنونها أكثر من رفاقكم، تمشي في الشوارع هدفاً ينتظر إصابته وتنام كل ليلة في مخبأ.

- اذكـــر لي تفاصيل اعترافاتك في السجن وكيف عرفت أخا أمل.

- كتبت لكم ذلك مراراً، أجبتُ على جميع أسئلتكم تحريرياً. عـــندما كنـــت مختبئاً في بيت شقيق أمل، معي رسالة حزبية منكم تفيد بقبولي في صفوفكم بعدها تولّيتم مصيري لحد هذه الساعة.

- ما هي فحوى رسائل أبي جهاد لك؟

- فـــي كـــل مرة تردني رسالة منه أعرضها على رفاقنا في المخـــبأ، تحملهـــا أمل لي ليس فيها غير التحيات والإيمان بتحقيق الأماني.

- احك لي عن الرسائل الشفوية منه.

- لــلآن لا تعرف أمل أن الشخص الذي يحمّلها رسائله لي هو أبو جهاد. إنه حزبي متمرس لا يقع في مثل هذا الخطأ كما أن عقلي لا يزال يقود قلبي.

نظـرات الشـك تذبـح روح إسـماعيل بأكثر مما هوت عليه مطارق الأمن في سجنه الأول.

خذلوا روحه التي تشافت، يخاطب الليل في أرقه:

- أخوتـي.. بـل أكـثر من أخوتي.. ماتوا وعادوا كالدود ينهشـون لحمي وروحي. أرسلوا أصحابه إلى مخابئ أخرى، بقي وحيداً مع صاحب الدار، سكنت أمل مع نساء العائلة في نفس الدار تداوي جراحاته بهدوء. وهبت طبيعة المرأة الشرقية بتحمّلها لثقل المجـتمع وافـتراءات الرجال فضيلة في ظروف المخاطر، تقف كجذع نخلة، على جانبيها كالسعف يرتجف بعض الرجال، وفوقها تقف رؤوس بعضهم الأرجوانية مقطوعة.

بعد أسابيع وصل جوابهم:

- نبارك لك الزواج.

احتضن إسماعيل رفيقه الذي لم يشاركه الحماس أكمل:

- يؤسـفني أن أبلغـك بأنك لم تعد في صفوفنا، ربما تكون بريئاً، قسوة القمع الحالي لا تترك لنا خياراً آخر.

- وقسوتكم هذه معي! لا أعرف غيركم، إلى أين أذهب.

- يجب أن تخلي المخبأ حالاً.

- ابعثوني إلى كردستان كما فعلتم بسرحان.

- لا نرسل أحد خارج صفوفنا.

غادر رفيقه مشدداً على ضرورة انتقاله الليلة.

انهــار إســماعيل، أطفأ الحزن مصباح الغرفة، دخلت أمل تبدد الظلام، وضعت رأسه على حجرها تمسّد شعره.. عادت له أصابع أمه تحميه صغيراً في مهده، فتح عينيه، قرأت ما يريد قوله:

- لا تنكســر.. أذكّرك بأمر واحد.. ستظل صورتي العارية في أضابير الأمن إلى ما شاء الله، يتفرجون عليها كما العاهرات، الــذي فعل ذلك هو ابن عمي! ورفيقي، لا تحزن. سوف أشاركك المصــير فــي المخابئ وفي ربيع الحياة وفي السجون وحتى في الممــات. لنــبدأ الآن رحلتنا معاً إلى مخبأ آخر ونتمم عقد زواجنا الليلة.. الدخلة نرجئها لحين وصولنا إلى سوريا.

تدفق الكلامُ من فم أمل كماء الفرات يحيي الأرض الميّتة:

- مهــلاً.. أيــن نجد رجل دين؟ ثم كيف نصل سوريا؟ ألم ترفضي الذهاب مع أخيك؟

أســبلت أمــل جفونها تخفض رأسها، لاحظ إسماعيل قطرات الدمع تتدفق ثم تنقطع:

- معنا رجل دين مطارد في المخبأ الجديد.

ابتسمت تكمل:

- حياة المخابئ شاقّة لرجل اعتاد مخاطبة الناس علانية.

صمتت أمل، عاد إسماعيل يسأل، ردّت بصوت خفيض:

- رفضــت الذهــاب مع أخي كي أسترد شرفي غير عابئة بحياتي.. الآن أريدك حيّاً.

اعتمر رجل الدين عمامته يمارس عمله الذي افتقده منذ اختبائه فــي حبور يأنس بمناسبات الزواج وإن كانت سرّية. بعد الانتهاء من عقد القران وقراءة الفاتحة حثّهما الشيخ على النوم معاً:

- بيدكما عقد النكاح.. زوج وزوجة.. حرام الانفصال تحت سقف واحد.

أجابه إسماعيل:

- نود أن يكون حفل الزواج في سوريا بحضور أخيها.
- ليس لأخيها سلطة عليها منذ الآن، أنت ولي أمرها.
- لكن الظروف يا شيخنا..
- ليس في الزواج ظروف، تمتّعا يرحمكما الله .

تدخّلت أمل:

- امهلنا يومين فقط.

اختلت أمل بإسماعيل تهمس له:

- سأخرج أوائل الفجر، التقي رسول أخي القادم من سوريا عند محطة الباصات، أستلم منه البريد ثم نغادر معه على باص المساء إلى الموصل. لن يعرفك أحد فقد اعتاد أهالي الشمال ألا يروا الجنوبيين إلا جنوداً. سنودّع الوطن عند تيّارات دجلة، نركب القفف كما كان يفعل أجدادنا أيام الفيضانات، رفاقنا في الجانب الآخر يأخذوننا إلى القامشلي. في الطريق إلى دمشق سوف نلتقي الفرات عند دير الزور.. ابعث معه رسائلك إلى مدينتك الجنوبية، يوصلها كانتقال الأمصال في الدماء، وإذا ما اشتقت بين الحين والآخر عد له يحفظ وجهك على مرآته.. لا تتكره إذا وجدت ماءه عذباً فلربما أسكرك مذاقه المالح الذي شربته زمناً في مدينتك الجنوبية.

لم يناما تلك الليلة، قربهما رجل الدين تارة يشخر وتارة يبسمل. استغرب إسماعيل وصفها الدقيق لطريق رحلتهما سألها:

- كم مرّة سافرت إلى دمشق؟
- ولا مرّة.. أرسلت العشرات إلى هناك، أرسم لهم الطريق نفسه، أحفظ على الغيب هضابه، سهوله، أماكن الدوريات من كلا الجانبين.. الرفاق يدعونني مدير السفر العام!

عند الباب أهدته قبلة تمتم لها رجل الدين النائم.

انسلّت كالخيال غير محسوسة تختلط بأوائل أشعّة الشمس.. تتطلّع إلى النهار كآخر ضياء لها في المدينة.. كل شيء عادي في كراج السيارات.. أصوات الدلالين، صخب الباعة، تسخين السيارات، بذاءة السوّاق يشتمون مساعديهم، رائحة الطعام المقلي توقظ جوع أمل.

تأخّر الرسول نصف ساعة.. مثل هذا ليس مسموحاً به في العمل السري.. لم تغادر سريعاً.. لهفتها للسفر مع إسماعيل أبقتها. لاح لها يبطئ في سيره على غير العادة.. حسبته مريضاً لاصفرار وجهه.. تلفتت حولها، لم تر شيئاً مريباً عدا عمال النظافة الذين عادة لا يهتمون بالكراجات رغم كثرة قمامتها.

وقف الرسول قرب أحد عمال النظافة أشار لها.. أتته مسرعة، سحبت المظروف من يده تواصل سيرها، همست له:

- سأسافر معك ورفيق آخر مساء هذا اليوم الساعة السابعة.

عادت أمل تحمل فطور (الكاهي والقيمر).. نهارات السفر جميلة، تحملك إلى الجديد، شهيّتها تضاعف الجوع. أيقظت أصحابها تعد لهم الشاي.

طُرق الباب، تطلّعت من فتحة الشباك الصغيرة، شاهدت أحد عمال النظافة يحمل بيده إناء ماء فارغ، سألته من وراء الباب:

- ماذا تريد؟

- نريد ماء.. نحفر الشارع لتمديد أنبوب المجاري.

شاهدت أمل من ثقب الباب جمهرة من عمال النظافة يحملون أنبوباً دون أن يبدأوا في الحفر. فتحت الباب تمد يدها لأخذ الإناء. عاجلها العامل بلكمة خبير أفقدها الوعي.

أيقظها اهتزاز سيارة الأمن تطوي المسافات مسرعة، يرتطم جسدها بأجساد أخرى.

أحكموا إغلاق عينيها وفمها، تسمع محرك سيارة الأمن يجأر فهم دائما يستعجلون عملهم. قادوهم في الظلام لزنزانات منفردة ضيّقة، أبقوهم إلى منتصف الليل.

على إثر إشارة سلّط رجال الأمن السري أضواءهم غير المرئية على الرسول.. التقطوا له الصور في كل مراحل رحلته، على مشارف العاصمة خطفوه من سيارة الأجرة، واجهوه بما لديهم من معلومات ومن وسائل التعذيب، فتّشوه بدقة، عثروا على البريد الحزبي.. راوغهم بعض الوقت ثم انصاع لهم. تعمّد تأخير موعده مع أمل نصف ساعة كي ينقذها، وقف في غير المكان المتّفق عليه بجانب رجل الأمن المتخفّي في زي عامل نظافة البلدية من دون فائدة. رغبتها الجامحة بإنقاذ حياة إسماعيل والسفر معه إلى سوريا أنستها حذرها.

أدخلوا أمل لغرفة التحقيق.. الجالسون يلبسون النظارات السوداء في هذا المكان المعتم. في الغرفة نور واحد يتدلّى من السقف بسلك طويل مسلّط عليها، يحركونه بأيديهم، أحياناً يكشف ضوؤه عن آلات التعذيب.. خطّاف جزار، حوض صغير تنبعث رائحته كما الحمامات التركيه، منشار، كلاليب، ساطور، سياط مطّاطية، مسدس موضوع على طاولة صغيرة، حربة نصلها طويل.

في الساعات الثماني عشرة ما بين اعتقالها واقتيادها لغرفة التحقيق أرادوا لها أن تنسحق تحت وطأة الأفكار المريعة التي تضغط على ذهن كل معتقل.. أسعفها هذا الوقت كي تتوازن، أسرّت لنفسها:

- كفــى.. قلّـة حذري أوقعتهم.. لن أبوح بشيء.. هل تليق ملابـس العار بعروس.. سأزف في هذه الليلة إلى إسماعيل على هودج من الدماء طبّالوه من رجال الأمن.

تظاهر رشيد بتصفح ملف أمامه فيما هو يتفرّس وجه أمل من خـلال نظارتـه السوداء . أرهقها سيل الإضاءة المنهمر من نور الغـرفة، سـال الدمـع خفيفا من احمرار عينيها . ظن رشيد أنها استوت، تهيّأ لازدرادها:

- خدعتنا يا عاهرة.. حسبناك مع أخيك القواد العميل.

قدّم لها قلماً مع دستة أوراق أمرها:

- اكتبي اعترافاتك بحذافيرها، نحن نعلم كل شيء.

- ليس عندي شيء.

ناولها صورة تجمعها مع الرسول، نظرت إلى الصورة:

- لا أعرف من هو؟

- لا تتحاذقـي.. صهرت من شواربهم بغزارة شعرك.. ما تفسير وجود البريد الحزبي معك؟

- مؤكـد أن هذا الشخص شعر بمطاردتكم له، صدمني في الكراج متعمداً ليسقط دليل إدانته في زنبيل التسوق.

دفع رشيد بأوراق الرسول:

- اقرئي اعترافاته.

لم تنظر أمل لها، أجابته:

- أراد الاعتراف على أي أحد ليحمي أصحابه.. سوء الحظ أوقعني دون غيري.

ضرب رشيد الطاولة بشدة، عاودته طباع الحيوان المفترس:

- عاهرة.. سأمزق ثيابك قطعة بعد أخرى، أعرضك عارية.

أشار نحو أصحابه الضخام قائلاً:

- لم يشاهدوا جسم امرأة منذ شهور، سيأكلونك بأفواههم.

ردّت أمـــل بضـــحكة أوقفتهم مدهوشين إذ انهم لم يألفوا غير سماع بكاء صراخ الضحايا.

- ســبق أن رأيتمونـــي عارية قبل أن تشاهدوا وجهي، في ملفاتكم تقبع صُوري، لن ينال أصحابك مني غير لحم ميّت يأكلونه كالضباع فروحي لن تظل في جسدي لحظة اغتصابه.

صفعها رشيد صارخاً:

- أخرجوها.. ائتوني بإسماعيل الخنيث.

خرجت أمل رافعة رأسها، صادفها إسماعيل ينتظر في الرواق، توقفــت قلــيلاً، كعادتهما تحدثا صامتين، اعتذرت له عن فقدانها الحــذر.. احتضــنها بعينيه يقبّل شجاعتها.. دفعها الحارس بعيداً. توقّــف رجل الدين عن البسملة يسمع بحدسه حوارهما، يربطونه خلف إسماعيل حاسر الرأس، التفت إسماعيل صوبه:

- ها هي مريم تخرج عذراء دون أن تلد مسيحاً.

لم يفهم الشيخ مغزاه، خاطب إسماعيل:

- ماذا تعني ؟

- أعني غير خائفة.

أمن الشيخ على قول صاحبه:

- نعــم.. مــن الذي تحمرّ خدّاه هكذا سريعاً لدى رؤيتك في الرواق بعد اصفرار غرف الاستجواب؟.

- يا سيدي الشيخ ليس هذا وقت المزاح.

داعبه أيضاً:

- ما لك توقفت عن البسملة؟ أتراك أنهيتها كما فعل المسيح: (إلهي لماذا تخلّيت عنّي؟).

لمــرأى أمــل أفرغ إسماعيل ورجل الدين خوفهما على بلاط الرواق.

ادخلــوا إسماعيل في ممر صغير يؤدي إلى ثلاث غرف. أمره الحارس:

- ادخل..
- أي غرفة..
- اتبع الرائحة..
- أي رائحة..
- رائحة الدم!

دفعه الحارس لغرفة التحقيق، تنبعث منها رائحة الدماء والعظام المكســورة والشعر والبول واللحم المحترق وكل ما تتركه القطع المفصولة عن الجسم.

أجلسوه تحت النور السيّئ الإضاءة يملأ عينيه بالقيح. لم يتبّين إسماعيل جاره القديم رشيد، نظارته السوداء، جسمه المنتفخ، عتمة المكان وعيونه المنسكب دمعها بفعل الإنارة حالت دون تمييزه، ثم تبيّنه من صوته الفريد الكريه كأنه عواء.

- (إشــجابه للغــرّاف طير المجرّة) عملتم جبهة وطنية دون علمــنا أم أنــت وأمل مجرّد قوّاد وفاجرة؟ اعترف حالاً ما الذي جمعكمــا مع بعض؟ في بلدنا لا يلتقي حزبان ليوم واحد وإن التقيا لأيام قصيرة فسيفترقان أشد خصومة.

- انزع قيودي.

صمت رشيد، أردف إسماعيل:

- رشيد الرهيب خائف من نزع قيود إسماعيل الضعيف؟!
- انزعوا قيوده.

تحررت يدا إسماعيل، استدار لهم وبخفّة خلع بنطلونه وسرواله دفعة واحدة كاشفا عن مؤخرته:

- خذهـا فهي ليست مكانا للشرف بل وعاء للقاذورات تليق بأمثالك.

ضربه رشيد بحذائه، اصطدم جسمه في الطاولة، تراقص ضوء المصـباح المتدلـي يكشـف وجوه المحققين العبوسة من العتمة ويخفيها كمسلسل في قلاع الرعب.

انفجر غضب رشيد:

- قوّاد وفاجرة.. آمنتم على كلامي.. أحدهم يعرض مؤخرته بلا حياء والأخرى تطلب خلع ملابسها.

أشار رشيد إلى الدم الذي يصبغ الغرفة محذّراً إسماعيل:

- انظر إلى نتائج غضبي.

ردّ إسماعيل:

- إنّه ليس غضباً.. إنّما عار.

سمع رجل الدين الواقف في الرواق صرخة واحدة لإسماعيل:

- (كواويد)..

أعقـبها أصوات مكتومة بما يشبه التطبير. صوت رشيد يعلو ويهبط ينبعث من جوفه كمن ينوء تحت أثقل الأوزان.

سـاد الصمت يقطعه لهاث رشيد كالشخير، تباطأ وهو العجول دائماً يتأمّل تكشيرة وجه إسماعيل الذي هزمهم في موته السريع.

- أستاذ رشيد ما ذا نعمل بالجُثّة.. تأمرنا ندخل (أبو عمامه) الواقف في الرواق.

- اجلـبوا تابوتـاً مـن المخزن.. ارجعوا (أبو عمامه) إلى الزنزانة.. احرصوا غدا على إدخاله لي لابساً العمامة.

- لا يملك عمامة الآن قدناه من مخبئه حاسر الرأس.

- ابتاعوا واحدة مع جُبّة.
- لم نفهم سيدي.. إذا كنّا نعذبه عارياً فلم هذه القيافة؟.
- ثيران.. لا تعرفون غير الأكل والرفس.. ليس هو المطلوب حتى أنني لا أعرف اسمه.. العمامة هي المطلوبة للتنكيل.. أدحرجها عدّة مرّات ثم أصرخ بكم: اطرحوه أرضاً.

لم يخل لهم أي وجه ولا استراحوا ما دام عمود الجماجم الذي يركبون فوقه يرتفع بهم في كل حين، تهزّه أدنى نفخة هواء فيزيدون من طوله خوفاً من السقوط، وكلّما طال جلوسهم تعالى العمود يجعل من سقوطهم مميتاً.

أحضروا تابوتاً صغيراً قال حامله:

- عفواً سيدي.. هذا بمقاس الأولاد.. سأحضر تابوتاً كبيراً.
- ضعه على الطاولة.. افتحه.
- لكنه يا سيدي لا يسع!

تناول رشيد ساطورا بتر به رجلي إسماعيل.

زنزانة أمل الأقرب إلى غرفة التحقيق، أرهفت سمعها لخطى العائدين.. اثنان من الحراس بأصوات أحذيتهما المميزة مع صوت خافت كأنه مكنسة.. لا بد أن هذا (مداس) رجل الدين.. ثم اثنان آخران من الحراس.. بعد برهة ثلاثة آخرون أحدهم يطرق البلاط بحذائه.. لا بد أنه رشيد.. أين إسماعيل:

- سأكون له حيّاً أو ميّتاً.

اغتنت الدولة بأموال البترول، سارع السادة الحاكمون المنحدرون من أصل ريفي والذين يفتقرون إلى أسلوب الحياة المرفهة العليا يتعلمونها من الأثرياء السابقين، يهزؤون بالطبقات الفقيرة التي أوصلتهم إلى السلطة.. انتفخ رشيد في طيرانه كبالون ضخم يتوجه برياح مزاجه، يضعه ذلك في مواقف طريفة.. صعد

يوماً على منصّة الرقص في ملهى ليلي يسكب الخمر على فخذي الراقصـــة، يلحســـه بلسانه، يتبعها كعجل صغير يبحث عن أثداء أمـــه.. صـــفّق له جمهور الملهى يستحثّه.. رفع لسانه يبحث عن ملتقى الفخذين.. هربت الراقصة، ظل واقفاً وحده يحيّي المشاهدين رافعا علامة النصر.

بقـــت الأموال خارج البلد في خزائن مشتري البترول، يرسلون بدلها خردة حديد، تسبقها تصريحات المسؤولين:

- ســـنبني مصنعاً في كل قرية ليكون هناك الكثير من النور. سنضطر أن نضع نظارات شمسية في منتصف الليل.

تـــركوا أراضـــي السهول المستلقية بين الفرات ودجلة خراباً.. عمدوا إلى تكتيف الفرات الطاغي يذيقون فلاحيه عناقيد المرارة.

شـــراء قطع الغيار لمعامل الخردة من الخارج مستمر إلى أن نضبت الاعتمادات فتوقفت عن الاحتفالات بافتتاحها المتكرر.

في ليلة خمر رجع رشيد من الملهى أواخر الليل، وتذكر جعفر:

- ائتوني به.

نظر رشيد إلى جعفر النحيف، ابتسم على غير العادة:

- أصبحت أنا بضخامتك سابقاً وأنت بنحافتي.

بادله جعفر الابتسام:

- نعم.. تبادلنا الأجسام والرؤوس.

رشيد لا يحقد على جعفر كما كان على إسماعيل:

- لماذا لا تكون طبيعياً معي؟

- أي عراقي إن التقى شرطيا فانّه لن يظل طبيعياً.

عادة لا يقبل رشيد بمثل هذا المزاح لكنه بعد مقتل إسماعيل آثر ألا يقتل شخصاً يعرفه بيديه. حين أحرقت إسماعيل نيران غضب رشـــيد تركـــت جثّته رمادها في نفس رشيد لا ينظف بمئات قناني

الخمــر التـــي يسكبها في بيت النار، يطفو على سطحه ليزيد من غثيانه، كلّما أراد غسيل الرماد الذي تراكمه الذاكرة.

أجلسه على طاولة التحقيق الصغيرة لكنه أطفأ المصباح القبيح، أحد عدد التعذيب، وأنار الغرفة بضوء عادي:

- هل ضربوك قبل وصولي.

- لم يُحقق معي إلى الآن.. ولا سؤال واحد.. أعطوني رقماً.

- جاءت الأوامر لإحالتك إلى محكمة الثورة مع أمل، أتعرفها؟

- من أمل؟ من الناصرية.

- خطيبة صديقك إسماعيل.. هي من العاصمة.

- لا أعلم أن إسماعيل مخطوباً.

- وجدنا معهما رجل دين.. القيادة تبحث هذه الظاهرة الجديدة لتعمل على تغذية كثرة الانشقاقات.

استعاد رشيد زهوه:

- ألبســته عمامة.. عاجلته بضربة.. حرّك يده ليمسك بعمامته المــتدحرجة لكــن الشقي هلك قبل الإمساك بها.. نصبنا كميناً في وكــرهم الســـري نقبض على كل من يأتي له.. أتعرف على من قبضنا؟ على الشيخ طاهر.

- لكــن الشـــيخ طاهــر يــبغض (السيّد) إنه صديق صاحبك الإقطاعي.

- أنـــت لا زلت ثوراً مثل المساعدين عندي.. يجب أن تختفي العمامة.

- لا أعــتقد أن الشـــيخ طاهـــر يمانع في خلعها ولبس البدلة الإفرنجي.

ضاق رشيد به:

- أرجعوه إلى الزنزانة.

صباح اليوم التالي أخرجوا جعفر من زنزانته يحشرونه في سيارة مغلقة مع بعض المعتقلين وفتاة واحدة.. لا بد أنها أمل.. الشوارع مغلقة ما بين المعتقل وبناية محكمة الثورة إلا لمرورهم. خاطبها جعفر:

- أنا صديق إسماعيل.. من الناصرية..

- لقد قتلوه.

انتحب جعفر يمسك بيديها لكنها ظلّت تحفظه دمعاً غالياً في مآقيها، لا تذرفه خوفاً من الضياع.

- أنت صلبة يا أمل.. ألا تخافين؟.

- لم أعلم قبل موت إسماعيل أن للكره فضيلة.. عمق كرهي لهم هو سلاحي الذي يمنحني القوة ويمنعني من الخوف.

- أتعلمين أن إسماعيل كان شاعريّاً؟

- بدا لي محبّاً.. عن قريب أصل له ولو على طريق الانتحار.

- إنهم يمنعون عنّا الانتحار.

- أشتم رأس النظام في محكمة الثورة.. أليس هذا انتحاراً؟

أدخلوهم جميعا قفصاً واحداً لا يحمل رائحة الدواجن، أمروهم:

- ممنوع الكلام داخل المحكمة.

رئيس المحكمة ينتظر.. ينظر إلى ساعته.. مرّ بعض الوقت. دخل شخص يرتدي نظارة سوداء، ناوله ورقة، قرأها الحاكم:

- بعد اعتراف المتّهمين بجرائم التآمر المسندة لهم.. قضت محكمة الثورة استناداً إلى الفقرة ألف من المادة الثانية والأربعين بإعدام المجرمين التالية أسماؤهم: حمه رضا، نور الدين القره داغي، محمد الآلوسي، عبد الحسين الكربلائي، جعفر صادق، أمل يونس...

صاح جعفر:

- لم يحقق معي أي أحد منذ اعتقالي. أي اعتراف وأي تآمر.

تسـابق الحـراس باللباس المدني يكممون فاه فيما أخذ رئيس المحكمة يقذفه بأقذع أنواع السباب.

جلـس الشيخ طاهر في زنزانته يرتدي وقار الموت المنتظر، يتزيّن بعمامته وقفطانه، لم يشعر أن الله قد تخلّى عنه إنّما حاضر يعينه في محنته، يقرأ له:

(واستعينوا بالصبر والصلاة...)

عـاش الشيخ طاهر حياته يعيل عدداً كبيراً من الأنفار، يخفض جناح الذل من أجل عياله.. داهن الإقطاعي زمناً كي يرى أطفاله فرحين بملابس جديدة يبتاعون الآيس كريم. لم يبغض (السيّد) كما كـان يظـن الـناس إنّمـا أراد دفع الخطر المقترب منه بإشاعته اسـتعجال الظروف من قبل (السيد) أثناء مطاردة رجال الأمن له واخـتفائه فـي عدّة بيوت بما فيها مضيف الإقطاعي. آمن أن الله أراد له التكفـير عن ذنوبه وربّما منحه منزلة الشهداء إن هو جاد بروحه:

- وداعـاً أيتها العائلة التي أذلتني.. وداعاً يا رياحين صنعها الله.

فـي الهـزيع الأخير من الليل تتشوّش الأذهان إلا ذهن رشيد يـتوقّد فـي اسـتجواباته الليلية، ينام كالخفّاش في النهار ويصحو اللـيل. يعـدّ قائمة المطلوبين ثم يذهب إلى الملهى يطرد التثاؤب بالخمرة التي هي أشبه بالمنبّهات عنده، تعيده إلى الصحو الشرس:

- أين هذا الدجّال؟

- أي واحد سيدي؟

- الزنديق طاهر صاحب العمامة.

قطع صمت الممر صوت أحذية حارسين مع حفيف (مداس) الشيخ طاهر ينغمس بالدماء السائلة على الممرات. أدخلوه على رشيد:

- أفنيت عمرك تأكل الدجاج غير المنكوح.. تتآمر مع كبير الدجّالين صاحب العمامة السوداء علينا.

- أنا ضحيّة سوء الفهم.. أنت نفسك ووالدك تعرفان أنني أدين بالتقليد لمرجع آخر غير الذي تعنيه.

- بسيطة.. سأطلق سراحك بعد أن نظهرك على شاشة التلفزيون تسبُّ وتلعن الذي يسمّونه (السيد).

- لا أستطيع ذلك إذ ليس من شيمنا أن نشتم علماءنا حتى لو خالفناهم الرأي، ثم أن (السيد) في داره لماذا لم تقبضوا عليه.

- سنفعل.. أوّلا نقضي على حوارييه وأشياعه.. فإذا جاء يوم القبض عليه لن يجد أحداً يمنعنا من ذلك.

صمت رشيد قليلاً.. أجلس الشيخ الواقف على طاولة التحقيق يرسل عليه أشعّة المصباح القاتلة. ذكّره الشيخ بالصداقة التي تجمعه وأباه:

- أتعلم أنني من عقد زواج أبيك صديقي وابن حارتي، أشاح له رشيد بيده مقاطعاً:

- كفى.. لو دخل عليّ والدي في هذا المكان لمزّقته حيّاً.

تصفّح رشيد بعض الأوراق.. عينا الشيخ معلّقتان بهذه الأوراق ظانّاً أن فيها تجريمه. نطق رشيد بعد أن أعيا الشيخ:

- تتبّعنا حركتك منذ مغادرتك لبيتك هارباً منّا.. كبسنا كل الأماكن التي تواجدت فيها.. ضعت عنّا أسبوعاً لا يزال فراغاً في تقارير اختفائك السري، أين كنت؟

- كنت عند صديقك الإقطاعي.. أقرأ لهم تعزية.
- كذّاب.. التعزية في شهر محرّم.
- الحقيقة ذهبت أُروّح عن نفسي قليلاً.. وحيث يتواجد رجل الدين تكون التعزية وعظاً وإرشاداً.
- تحريض ضد الحكومة.
- كلا يا ابن أخي.. إرشادهم على الوضوء وصلاة الكسوف وغيرها.
- ليس لي معك قرابة.. إن نطقتها مرة أخرى سأقطع لسانك.

تــناول رشــيد قلما ملأ به فراغ التقارير، أوعز إلى أصحابه باعادة الشيخ لزنزانته.

حــرّر برقية مستعجلة بالقبض على الإقطاعي. انتظرت الفرقة المكلفــة بالقــبض عليه لحين زوال الظلام وطلوع الفجر مع أنهم يعملون على أجساد الناس دائماً في ظلام السراديب.

رحّــب بهــم الإقطاعي معتقداً أنها إحدى زياراتهم الروتينيه.. يعــودون مــنه محمّليــن بالبيض والدجاج. فتحوا له باب السيارة الخلفي و بحركة سريعة رموه داخلها.

انطلقــت السيارة بأقصى سرعة.. أمامها وخلفها سيارتان يقف علــى ظهرهما حارسان برشّاشات أوتوماتيكية أمام ذهول أولاده وما تبقّى من أهل القرية.

ركــب أكــبر أبــنائه سيارته لحق بهم إلى دائرة الأمن رآهم يدخلونه مقيّداً. أوقفوه في الاستعلامات:
- ماذا تريد؟
- أبي موقوف عندكم.
- أبــوك الإقطاعــي نعــرفه جيداً لم يزرنا منذ ميلاد السيد الرئيس.

- الآن أدخلتموه أمام عيني.
- خُيّل لك... ليس موجوداً عندنا.

التفت موظف الاستعلامات للمراجعين الجالسين:

- هل شاهدتم أحداً دخل إلى الدائرة!
- كلا.. كلا.. لم نر أي أحد.
- آمنت بكلامي الآن.

انطلق الابن ينتفض من الغضب والخوف إلى سراي الحكومة. دخل على المحافظ.

استقبله المحافظ بحفاوة بالغة سائلا عن صحّة الوالد:

- اعتقلوه في دائرة الأمن.
- نعم؟ والدك بالأمن.

تبدّلت حفاوة المحافظ بجفاء ما إن سمع بدائرة الأمن:

- مساعدتك يا سيادة المحافظ.. تعرف والدي جيّداً.. إنّه أقرب أصدقائك.

غضب المحافظ:

- اخرج يا بني حالاً.

أمسك بيد الابن يجرّه إلى الباب، قال له بخفوت:

- أرجوك يا بني لا تورّطني.

هلع المحافظ لاعتقال صديقه الإقطاعي.. عندهم لا توجد عقوبات مخففة.. إذا طلبوك للزيارة ستجد ذنوبك متراكمة يتساوى صغيرها وكبيرها في العقاب.. كلّها خيانة عظمى.. عقوبتها الإعدام..

اتّصل المحافظ تلفونياً بوكيل الوزارة في العاصمة يسأل عن رضاهم عنه.. لم يلمس أي تغيير، كلّمه الوكيل عن الطقس

والمنشّطات. ألغى مواعيد ذلك اليوم. قبل نهاية الدوام هاتف مدير أمن المحافظة:

- سيادة مدير الأمن.
- نعم.
- أنا المحافظ.

انـتظر ثواني. لم يرد مدير الأمن الصموت دائما إلا بالسباب. ارتعد المحافظ:

- ما رأيك أن نذهب لصيد البط البرّي.
- ليس وقت الصيد الآن.
- ربّما أُسافر إلى العاصمة، هل تريد شيئاً.
- لا. شكراً

رغـم أن مدير الأمن يتكلم دائماً مع المحافظ بلا مبالاة إلا أن المحافظ أنكرها هذه المرة، تناهبته الوساوس:

- ربّمـا يعتقلنـي الليلة.. لا.. لا.. لو كانت هذه نيّته لأغلق الـتلفون في وجهي.. قال شكراً في النهاية، هذه فأل خير.. لكنهم خبـثاء.. رجـال الأمـن ليس عندهم صديق.. كلنا كذلك.. بماذا سـاعدت صـديقي الإقطاعـي؟ ساعة شؤم تلك التي عرفت فيها الإقطاعـي... إذا اعتقلت حتماً سأعدم.. لا يطلقون سراح مسؤول معتقل.

بـات المحافظ ليلته على مطارح من النار، يتقلّب وهو الطليق بأشد من صاحبه الإقطاعي المعتقل.

شكر الشيخ طاهر ربّه على عودته سالما إلى الزنزانة.. يصلّي في غفلة من الحراس.

أفاق بعد منتصف الليل على صخب وضوضاء غير عاديين، لم يشـعر أنـه نـائم، في هذا المكان الرهيب يختلط الليل والنهار،

يمـــيّزونه مـــن اخـــتلاف وجبات طعام الحراس، تمتزج الإغفاءة والصـــحو لـــذا يظـــن الســـجناء أنهم دائماً مستيقظون.. تضاعف الصـــخب والصـــياح بأصـــوات عالـــية لا يتبين كلامها. انتشر المســـلحون مـــن القوات الخاصة في الممرات. مرّ وزير الداخلية يحمـــل رشاشاً. أيقن السجناء أنهم ملاقو حتفهم الليلة. ساد الصمت فجـــأة حـــتى الحـــراس الذين يكثرون من السعال والتدخين كتموا أصواتهم.

وصلت الأنباء يحملها الدق المتقطع على الحوائط:

- السيّد وأخته بيننا.

- أبلغت بهم الجرأة باعتقال هرم ديني كالسيّد؟.

اســـتلقى الشيخ طاهر على أرضية الزنزانة يتطلع إلى السقف، تتراءى له صورة السيّد كالأيقونات.. مؤلّفاته وسائل إيضاح تبسّط المفردات الدينية التي يلجأ الراسخون في العلم لتغليفها بالغموض، كثـــيراً مـــا ضبطهم في مقهى بعيداً عن مرقد الإمام علي بن أبي طالـــب فـــي النجف يستمعون لأغاني (زهور حسين) الأكبر سناً منهم، يتشاغلون بشراء الحاجيات من المحلات الملاصقة للمقهى، لكن آذانهم لا تسمع ما يقوله البائع.

يدعوهم برفع إصبعه يبادرون بخبث:

- اسمع يا سيّدنا.. غناء زهور حسين مراث حسينية.

- ليتها ظلّت مُلاية ولم تتحول إلى الغناء.

يبدأ محاضرته:

- يا طلبة الحوزات الدينية.. تعلّموا أن تحت كل منظر جميل يكمـــن الشـــر أحياناً.. انظروا إلى البحر ما أجمل زرقته وهواءه وغـــيومه المتراقصة على مرآته وما أكبره من قبر لا يحفظ جثث موتاه.

أراد رشيد أن يبقي على حياة صاحبه الإقطاعي، فإن لنُدمان المائدة الخضراء الممزوجة رائحتهم بالتبغ والعرق والخمر أواصر تفوق صلة القرابة. لكن الإقطاعي خذله هذه المرة، رفض إحسانه بإباء، فبعد أن جلبوا السيّد مكبّلاً انطلقت غريزة التراث المصبوغ بـــالدم تمـــلأ الشوارع... الأيدي الحاملة سيوفاً وزناجيل ورايات سوداء تندبهم في كل عام:

(يا ليتنا كنّا معكم سيدي فنفوز فوزاً عظيماً)

هـــذا هـــو رشيد له قلب الحجّاج وسيف عبد الحميد بن قحطبة وغيظ هند بنت عتبة، وها هو السيّد له وجه الحسين وروح محمّد ذي النفس الزكيّة يتقابلان على نفس الأرض بعد عشرات القرون، ســـوى أن زينـــب هذه المرة لم تعد طليقة.. كانوا أكثر خسّة من أسلافهم، لم يأبهوا لخفرها، انتزعوها من حرم دارها حاسرة.

غريزة الإقطاعي تناديه:

– ويلك.. إنّها ساعة غفران الذنوب.. بعدها المجد.

صوت آخر رافقه في ملذّاته:

– إنه مجد مر.. لديك ملك الري.

– ما نال عمر بن سعد قبلي شيئاً من الري.

يقـــف علـــى باب زنزانته كلا الغريمان... المختار بن يوسف الثقفـــي وعبـــيد الله بـــن زياد رافعين سيوفهما يرومان قتله، لكن الموت عندما يقترب تتضح الخيارات، رجع إلى القرية يحدّثها:

– جمـــيع الفلاحين أغرموا بالأرض.. عشقوها فتاة جميلة لا يطالهـــا العمـــر، وحدي أردت أن أكون سيّداً لها فأصبحت عبداً.. ألخضـّــع وأســـتجدي ذوي الســـلطان بسببها؟.. عملت الكثير من الذنـــوب، قتلـــت بديعـــة الراقصـــة.. طردت الفلاحين بالخديعة والتدلـــيس.. أكلـــت... وأكلت.. ذنوبي لا تستطيع صلاة وصيام

غفـــرانها.. ليس لي غير هذا الباب الذي فتحه لي الرب طريقاً... طريق الشهادة السريع.

مـــا إن حلّ السيد في المعتقل حتى ساد الهدوء.. وجوده كنبي يمـــنح السكينة حتى للخاطئين أينما حل. استمر الهدوء أياماً، تقام بها الصلوات جهاراً. رشيد ينتظر التعليمات، امتعض رؤساؤه من سماع صوت الصلاة في المعتقل بدلا من شتائم المحققين والحراس المقذعـــة، الســـيد يدعوهم لعيش الآخرة الخالي من الصراع وهم يأخذون الدنيا بالغنيمة.. تصادمت الدنيا والآخرة على هذا الميراث الجمـــيل، وبمـــا أن ما يجري كان على جانب الدنيا فلا بد لها أن تنتصـــر، وألا يـــرث الأنبياء من الأرض شيئاً مكتفين بما لهم من قصور في الآخرة. وبرغم هزيمتهم وطردهم من أرضهم لم يتمكن جلادوهم من انتزاع الإمامة منهم.

عجب رشيد من تنامي المعارضين، ذبح إسماعيل وجعفر وأمل ورجـــل الدين وآلافاً غيرهم.. أدخلوا الناس بالقوة إلى حزبهم لكنه عندما يتطلع إلى الشارع يرى المعارضين يفوقونهم عدداً.

جـــاءه كـــتاب ســـرّي من الرئاسة لدراسة هذه الظاهرة المقلقة يأمره:

- اســـتجوب السيّد بكثافة وسرعة.. لا تعدمه قبل أن تتعرف علـــى أساليبهم في التحريض الجماهيري، لكن لا تبقه طويلاً.. في كـــل يـــوم تتصـــاعد الاحتجاجات العالمية.. يطلبون تسفيره إلى الخارج.. لن نكرر الخطأ الذي ارتكبناه بتسفير أستاذه يوم كان في قبضتنا.

أطل رشيد من كوّة الزنزانة، شاهد السيد قائماً يصلّي.. رائحة الصـــلاة العذبـــة تطهّر عفونة الزنزانة يتنفّسها الشهيد بعد مماته كعطر ينثره الله على جسده.

غـادر إلى الملهى، طلب زجاجة خمر كاملة يعبّ منها بسرعة غـير عابئ بالراقصات اللواتي اقتربن من طاولته الخاصة يكشفن لـه عمّا تبقّى مستوراً. استغرب مرافقوه اصفرار وجهه كلما ابتلع كأساً وهو الذي تنتفخ خدّاه باحمرار من أول كأس.

أنهـى الـزجاجة وحـده، طلب أخرى عند منتصفها فقد شكل الآدمـي، يخور كالخنزير، يرغي وحده. نهض يتنفّس بصعوبة.. لأول مرة يتعاون الخمر وفكره المرهق على اشتداد سكره. أسنده مرافقوه يوصلونه بصعوبة إلى السيارة:

- إلى أين يا سيدي؟

- إلى المعتقل.. أنعش ذاكرتي.. أستفيق من سكري.

انطلقت السيارة بأقصى سرعتها كما هي سيارات دوائر الأمن لا تعـرف الهـدوء مـثل أصـحابها. جلـس ينتفض في غرفة الاستجواب، أعلن لأصحابه:

- هاتوا السيّد.

المصباح القبيح يلمع، بصيص ضوء خافت تحجبه عمامة السيد كقـبّة سـماوية ينتظر تحتها مجيء البراق تحمله إلى حيث تستقر روحه في ملكوت السماوات.

لـم يقـدّم رشـيد كعادته قلماً ودستة أوراق يطلب من ضحيّته تسـجيل اعترافاته ولم يشاغله بالصمت المرهق. بدا مستعجلاً هذه المرة وكأن السيد هو الذي يستجوبه:

- يا سيّد لماذا تحرّضون الناس علينا؟. ماذا تقولون لهم؟

- الآن وقـبل مجيـئكم إلى السلطة ما تغيّرت محاضراتي.. كنتم في عهد الزعيم تشترونها وتوزّعونها على الناس مجّاناً.

- تلك مرحلة انتهت بقتل الزعيم.

- الآن حلّ وقتنا للقتل!

- ابعث ببرقية تأييد للسيد الرئيس تعود لحوزتك الدينية وتصبح زعيماً.

- لو طلبتم منّي أن أقول (ما لقيصر لقيصر وما لله لله) فلن أفعل.

- لماذا؟ أما قال هذا قبلك نبي؟

- إنكم كالضباع تفسدون حتى البراري.

- ألم نبن المصانع؟

- بأي ثمن؟ كمن يقايض عشر بقرات حلوب بجلد حمار وحشي.

- منذ الأزل والذبح فيكم متواصل وتتكاثرون.. نحن يحمينا دائما صولجان الحكم لكننا قليلون! ألديك تفسير لذلك؟

- نحن كالأغنام تظل كثيرة العدد رغم ذبحها المستمر، وأنتم كالكلاب قليلة العدد رغم أن لا أحد يريد ذبحها.

سمعت أخت السيد أخاها يمشي، أيقنت أنه يقطع المسافة ما بين المنبر والقبر.. رفعت يديها إلى السماء:

- اللّهم إني أفتتح الثناء بحمدك، اللّهم إنك قلت (إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) فامنحني وأخي ميتة أهل البيت قتلاً في سبيلك تخزي به الظالمين.. أتضرّع إليك ألا تمكنهم من عفافي كما منعت الأفك عن زوجات رسولك... المعذرة يا إلهي لن أرفع يدي لتنجي أخي كما فعلت ليلى يوم التاسع من عاشوراء، إذ أنه لو سلم من بكر بن غانم هذه الليلة

سيقتله غيره لأنها مشيئتك التي تهبها لمن اصطفيتهم، أراه في وجه وجسد يحيى بن زكريا المخضّب.. وُلد بعد انتظار طويل يقتبس من كتابك المقدّس ما يحرّم على الطغاة استعبادهم للناس.. اجعل السلام ملء أرواحنا.. لا أطلب منك أن تفتديه بذبح فقد نحروا قبله من الدماء بأكثر مما سال من أصحاب الحسين، يقتلونهم فرادى يسلبون منهم التسابق للموت الجماعي.. إلهي أدعوك أن تثبّت فؤادي وألا تجعل الشيطان يرمي بوساوسه ليذهب بعقلي.. يا من تلطّفت بزينب في مصيبتها، تركت لها السجّاد قرة عين، أعطيتها الصبر تحمل في وعائه حزنِ السبايا.. حميت شرفها من دنس السفهاء، سأكون أول علوية تُقتل وإني لأتعجّلك يا ربي في هذا القضاء، لكني أريد وعدك نفسه الذي وعدت به أنبياءك ليس في المقام المحمود فإنني أعلم أن أجري قد وقع عليك منذ أن قبض عليّ هؤلاء الضالون، وعدك ألا أُستباح فلو جعلت أجري أن أصبح حوريِة بقدرتك فإنها محرّمة على الكافرين لا يمسّونها.. إجعل هذا الغل الذي يكنّونه لنا ناراً تأكل صدورهم، احرقهم به فقد استحبوا الضلال وأوغلوا كثيراً في جرائمهم.. اللّهم ابلِهم بأنواع البلاء واقطع دابرهم.. إنني لا أرهبهم مع أنهم قد جنّدوا الليلة الشيطان في صفوفهم، فهم أقل من بعوضة في ضعفهم لكنهم يشتتون ذهني بالطنين.. امنحني لحظة وداع أخي فقد سمحت لزينب أن ترافق أخاها ميتاً أربعين ليلة.. أسألك أن تقبض روحي كما قبضت روحها قبل أن تزف إلى الطاغية.

في الإذاعة وعلى شاشة التلفزيون أذاعوا نبأ إعدام الإقطاعي عدة مرات، وأفردوا له على صفحات جرائدهم الكثير من التفاصيل، جاء في بيان إعدامه:

- أقــدم الإقطاعــي المجــرم على ترحيل عشرات الفلاحين الفقراء بالقوة مستغلاً انشغال السلطة بمحاربة الخونة والمارقين، لــم يعلــم أن عهد الإقطاع ولّى إلى الأبد وأن عين الثورة ساهرة تقــتص عــاجلاً أو آجــلاً ممن ينهبون قوت الشعب على حساب الفقراء والمساكين، بإعدام هذا المجرم تعيد سلطتكم الوطنية الحق إلــى نصــابه فــإلى الأمام في مسيرة التقدم والازدهار.. وليخسأ الخاسئون .

بكــاه جمــيع الفلاحين عند مقتله كشخص شريف اختار حسن عاقبــته، شــيّعوا جــثمانه في القرية رغم الأوامر بمنعها. أطلق الفلاحــون الرصــاص بغــزارة يتبارون في قصائد الهوسات، لم يصدّقوا بيان السلطة فلولاها لما استطاع الإقطاعي أن يلغي عقود الإصلاح الزراعي ويطردهم من الأرض.

عــاد الــود القديم بين الفلاحين وأبناء الإقطاعي يوم لم يعرفوا غــير الأرض والفرات والسماء.. تتنزّل عليهم المن والسلوى إلى أن طالــبوا بغــيرها مــن الموائــد فــتاهوا عنها في أزقّة المدن ومعسكرات الجنود يطاردهم فرعون بمفرده إلى أن عاد لهم تحت جنح الظلام، تحمله سيارة دائرة الأمن ممزّقاً بالرصاص.

عرض عليهم أولاد الإقطاعي العودة إلى القرية، أجابوهم:

- أولادنــا تطوعــوا فــي الجيش لم يتبق منا غير الشيوخ والأطفال، الأرض تحتاج إلى صدر وساعد.

شــملت وجــبة الإعدامــات الشيخ طاهر، أوقفه القدر بجانب صــديقه الإقطاعي وقد تحررا من أوهام الدنيا، مال الشيخ طاهر على أُذن رفيقه قائلاً:

- كنت أقرأ الآية التي أمر الله بها لتكفير الذنوب (... توبوا إلــى بــارئكم أو اقتلوا أنفسكم) غير متصوّر أن يقتل أحد نفسه،

أخذتُ ظاهرها.. يا صديقي قطعنا شوطاً سيّئاً في الحياة، نحمد الله على هذه النهاية فلولاها لبقينا سادرين في غيّنا.

تريّــث رشيد في تسليم جثّة الشيخ طاهر ليقينه أن إعدام رجل ديــن ولــو كان على شاكلة الشيخ طاهر يصيب الناس بالغضب والوجوم، فالعمامة لها مقام قُدسيّ عال حتى لو وُضعت على رأس بليد. في يوم إرسال جثمان الشيخ إلى أهله كتبوا في عمود صغير في إحدى الجرائد:

- بكل الأسى والحزن تعرّض المرحوم الشيخ طاهر لحادث مــروري مؤســف أودى بحياته نتيجة لرعونة سائق السيارة التي كانت تقل الشيخ، والذي هرب من مكان الحادث إلى جهة مجهولة، وبهــذه المناســبة تعزّي وزارة الأوقاف عائلة الفقيد وتطلب من الجهات المسؤولة سرعة القبض على الجاني.

لــم يســمحوا بفتح التابوت، رافقهم رجل أمن إلى المقبرة، قبل الدفن توجّهوا لتغسيله، اعترض رجل الأمن:

- الأوامر أن تدفنوه هكذا.

أراد المشيّعون أن يفتكوا به، هرب مسرعاً.

تعاون صاحب (المغيسل) وأحد المشيّعين على تغسيل الشيخ.. رُوّع المشــيّع لمشــاهدته جسد الشيخ مثقّباً بالرصاص فيما لم يثر ذلك صاحب المغيسل. توقّف المشيّع يتساءل:

- هل أصبحت السيارات تطلق الرصاص في دهسها؟

- الرجل مات الله يرحمه.. لا داعي للبحث كيف مات.

- بــإطلاق الرصــاص عليه.. إنه رجل دين. من من الناس يطلق النار على رجل دين؟

- ما اسمك؟

- حسين مظلوم.

- لـــو تفوهـــت بما شاهدت سأشي بك إلى الأمن.. لقد توقف عزرائيل عن العمل منذ أن جاء هؤلاء إلى السلطة.. اصمت وإلا نلحق به.

الفصل الرابع

وصـــل ســـرحان إلـــى جبال كردستان. وجد المدن مخبّأة بين الجبال، الأشجار تنمو وحدها لم يلمسها إنسان أو ساقية، بعضها ناءٍ موحش كأن الزمان نسيها.

يمد يد الفلاح إلى الماء الصافي البارد الخارج من النبع يناجيه:

- ســـوف تسخن أيها الماء البارد ما أن تتلقّفك روافد دجلة.. كـــم قطرة منك تصل إلى الفرات في عملية نقل الدم عبر شرايين مـــنخفض الثرثار! أظنها تتبخر حالٍ ملامستها لسطحه الساخن.. أين الطين؟ لا أجده في مجراك يا نبعاً لم تلوّثه الأيدي.

احتفل أصحابه بوصوله، نحروا له جدياً صغيراً.. طعام الشيخ طاهر المفضل، يراهم يبالغون في الحفاوة، يقول لنفسه:

- أصبحت في هذه الجبال بمقام الشيخ طاهر في سهول قريتنا لكني لن أنفرد بأكله وحدي. كاد أن يأتي على الجدي وحده فقد فارقه الخوف الذي وُلد معه منذ أن وطأت قدماه أرض كردستان:

- أرضك الوحيدة التي لا تحتاج فيها إلى مخابئ سرية أو أوكار. ليس صحيحاً أن إمساك البندقية في هذه البقعة هو الذي أزال الخوف، فالخوف ابن البندقية البار، إنما هواء الحرية الذي يزداد هبوبه كلّما ضاقت الفجوة بين الجبال هو من يطرد الخوف.

عجب سرحان لهؤلاء القوم، يطيعون رؤساءهم طاعة عمياء، يخدمونهم كما في أيام القنانة مع أنهم أحرار.. لم يسرّه تسابق عشرة أشخاص لخدمة رئيسهم.. أحدهم يغسل رجليه، الآخر يعمل له مساجاً، والآخر.... أمام الملأ بأشد مما كان الإقطاعي في قريتنا الجنوبية يفعله بأعوانه .

في الأيام الأولى حظي سرحان وبضع مجاميع صغيرة آتية من الجنوب بمعاملة طيبة. فرش أهالي كردستان الطيبون أرواحهم يخففون من لواعج أهل الجنوب المحروقة على نار البعاد الذي ليس له نهاية، يواسونهم:

- كا كا.. هذه أرضك أيضاً.. أنت لا تزال في بلدك.

هذه الأرض الصغيرة المحاطة بالجبال والجيوش تطل على العالم.. امتدت الطرق الطويلة تربطها بالبحار والوديان والغابات فهي صغيرة مغلقة يترصدها الموت وشاسعة في مداها تأخذك إلى أماكن الأمان البعيدة في آن واحد. تفوّق إدراك قادتها على غرمائهم من زعماء الحكومة الذين يغلقون بحماقاتهم في كل يوم

بعضاً من الأبواب فيما هم يوسعون على الدوام من منافذ هروبهم. أول صديق يتلقاك بالترحاب هو الجبل.. يومئ لك من بعيد.. صداقته أبدية كرسوخه على الأرض.. يطعمك، يؤويك حضناً إذا ما اشتد البرد أو ارتفعت الحرارة. أكسب ناسه الطيبة المفرطة بفيض حنانه ورعايته أمّاً وأباً لهم.

استغرب سرحان كيف لهؤلاء الناس الطيبين جداً والمطيعين أن يتمرّدوا على سلطة الحكومة خلاف ناس الجنوب الثائرة أرواحهم من فرط الحرارة. أجابه الجبل يبدد استغرابه:

- ليس لأهل الجنوب صديق مثلي.

المفارقة الطريفة في هذه البقاع هي اكتساب كل شخص سواء منهم أو من يحلّ بينهم لكنية تظل ملتصقة به أبد الدهر.. فلو ركب أحدهم دراجة بخارية (ماطور) أسموه عبدالله ماطور وإن جاءهم ضابط برتبة ملازم ثم أصبح جنرالا يدعونه ملازم عزيز، كأنهم لا يريدون لأول لقاء أن يتغيّر.

تغير الحوّامات على الجبل كأعمى يطلق النار، تقطع الصمت وتُفزع النسور التي كالناس هناك لا تميل إلى العدوان، مخلفة ندوباً صغيرة سرعان ما تداويها أشجار الجبل، تتبعها أفواج الجنوبيين من الجيش النظامي، ينخلع قلب سرحان لتساقطهم على منحدرات الجبال، لعلّ في هذا العدد المتساقط أحداً ممن أخرجوهم من أبناء قريته لا يستطيع إسعافه.

خيّب الجبل كيد الحكومة لبث العداوة بين (الكاكا) و(عبد الزهرة) فكلّما ازداد عدد قتلى الطرفين تضاعف الود بينهما.

بعض الجثث تُدفن متأخرة، تحتفظ برّادة الجبل بالأجساد سليمة لحين مرور عابر سبيل يقوم بالصلاة عليها ودفنها، يبكونها إذا ما وجدوها وجوهاً سمراء. تتوزّع فرادى دون شواهد. منذ اليوم

الأول حمل سرحان بندقية إلا أنه لم يألفها رغم أنها تعطيه إحساساً بالقوة، يده من الصغر تليق بجاروف يحفر السواقي لأرضه، منعه يـتمه المبكر من التسابق مع أقرانه لاقتناء البنادق والعبث بها كما حـدث مع صديقه فرحان الذي بسببها فقد يده، جعلت منه راعياً، لكـي يـبقى حيّاً لا بد أن يلوذ بكردستان، وكردستان تشتعل رغم برودة الجبل.

نجـاة في الجانب الآخر لا يستطيع الهبوط إليها.. وعده رفاقه بإحضـارها، طلـبوا عنواناً يهتدون به، أرسل مع أحد المتسللين رسـالة وضـعها في صندوق بريد العاصمة المزدحم على عنوان الحـاج عـبد الواحـد صاحب الدكان، لم يرد جوابها على شباك الـبريد.. ربمـا أجهزوا على الحاج عبد الواحد عند القبض عليه وربمـا لا يـزال سجيناً مع أنهم لا يحتفظون دائماً بالسجناء، فإما العفو القصير يعقبه الإعدام أو القضاء عليه سرّاً بنوبة قلبية.. ربما جعلـوا منه فخّاً يصطادون به الطيور الشاردة.. إن ذهب الرسول إلى القرية يسأل عنها تكون نهايته.. والدته دأبت على الخدمة في بيـت الإقطاعـي يأخذونهـا رهينة، أمّا نجاة، طير حر لا يتحمل الأصـفاد.. يغفر لك الله يا حاج عبد الواحد فهذا يوم الحاجة إليك. عجـز فكره أن يحمل نجاة، يسمع طرقها على قلبه، شعر بالظمأ، همّ أن يلحق برفاقه في القاعدة، بزغت له الشمس من منعطف آخر تختبئ ما بين الجبال كأنها تلعب معه (الغمّيضة) تريد أن تقول له:

– رسـولك لا يصـل إلى نجاة بطريق مستقيم.. اتبع طريق الجبال الملتوي يوصلك إلى القم .

تذكـر سرحان (الملاية) زهرة تسكن المدينة جوار بيت الحاج عـبد الواحـد صاحب الدكان، فهي كالشيخ طاهر تقرأ التعزيات

للنساء في القرية، لا بد أن يكون الرسول امرأة، تداول مع صاحب البريد طمأنه:

– مــن هــناك نرسل للملاية امرأة قروية من جماعتنا تدّعي الفقر المدقع تطلب مرافقتها إلى القرية تبتغي الإحسان والصدقة.. تــتفرغ للعناية بالملاية كخادمة، سوف يرضي ذلك غرورها حتماً، لكــن هــذا لن يتم قبل حلول عاشوراء فكما قلت إن الملاية تذهب مرة واحدة لقريتكم في كل عام.

– ســأنتظرك يا عاشوراء.. لن تكون حُزنا هذه المرة مع أن دموعــي سوف تتساقط بأكثر مما أفعله في كل عام عندما أحتضن نجــاة بدمــوع يعقوب ولوعة يونس، وتنتظرني هي بصبر أيوب وحسرة آدم.. ألتقيها في الجبال دون خوف.. فقد ركض قلبانا معاً كل مسافات السباقات الطويلة.. عليها الآن أن تقطع الشوط الأخير بمفــردها.. هــل تصــدّق نجاة الرسول أم تعتبرها مكيدة لخطفها رهيــنة؟ لكــنها في كلا الحالتين سوف تفرح لعلمها أنني لا أزال حــيّاً.. لــن يكــف والدها من محاولة تطليقها منّي، يظل يطرق الموضــع إلى أن يلين لكن نجاة طائر حر إما أن تقتله وإما ينجو، لا يستطيع تحمّل الأسر، تزويجها من غيري أشد من الأسر.. لا.. لا.. كــيف تتســلل إلــى نفسي مثل هذه الوساوس؟ ليس لي غير الوطــن ونجــاة.. لكــن مــاذا عــن الخوف؟ فيروس الأمراض المستعصية يسرّبونه وباء يصيب كل الأعمار.. فتى، كهل، امرأة، رجــل، جبان وشجاع.. ماذا لو تمكن منها؟ يضع قيوده في يديها ورجلــيها، يُعمــي بصرها، يكسر روحها بالهزيمة، يعطب قلبها بكثرة الطرق، يجعل منها مطواعة.. يضعها في حضن رجل آخر تــراه كمــا الكــي حين لم ينجح الدواء، مع أن الكي أحد مسببات الخــوف.. علــى نجاة أن تهرب هذه المرة من دوني وفي غياب

الحــاج عــبد الواحد صاحب الدكان وكريم.. طريق هروبها ليس سريعاً ومستقيماً كما في هروبنا الأول.. لا يهم إذا لاحقها الخوف شــرط ألا يتمكــن مــنها.. يشرّعونه كأمضى أسلحتهم، قهروا به شــجاعة إســماعيل فــي سجنه الأول وغيره من الجذلين.. كتّفوا الفــرات الــذي له مليون يد وذراع. لم أر أحداً يهزم الخوف غير الجــبل، لذا تفرّق رجال الأمن عنه مذعورين. هنا يأتيهم الخوف زائــراً بين الحين والآخر، لا يطول مقامه بسبب انعدام الضيافة. في جنوب الفرات حيث يذهب الرسول لملاقاة نجاة سيجد الخوف هــو صــاحب الدار السيّد المطاع.. خوف من الأب.. خوف من المدرس.. خوف من الموظف الذي بيده معاملتك.. خوف من مدير العمــل.. خوف من المرور أمام مبنى مديرية الأمن.. خوف من عــيالك.. خــوف مــن قراءة الجريدة.. خوف من عدم قراءتها.. خوف من التلفزيون.. خوف من شراء حاجة.. خوف من الدهس.. التعليق بالمراوح.. الإذابة بالحامض.. شراب سم الثاليوم.. النوبة القلبــية.. صــعق الكهرباء.. خوف من لا شيء.. خوف من كل شــيء. لكــن الحياة تستمر في جريانها، لا توقفها سدود الخوف. تثقــب لهــا مســارب تتسلل منها كالينابيع المتدفقة من الصخور الصــمّاء، ولــو أنهــا غير كافية في جنوب البلاد حيث لا تمطر الســماء مع اشتداد الحرارة، تتضاعف الحاجة إلى المياه لا يكفي تدفــق الينابيع المحبوس أن يبل عطش الجفاف وتوقه إلى توسيع الثقوب في صخور الخوف الرابضة على النفس.

لــيلة هبوط الرسول من الجبل إلى السهول سهر معه سرحان يرسمان طريق الحلزون المؤدي إلى نجاة:

- إرســلْ عجوزاً مع الملاية زهرة. ربما لا يتيسر لك إقناع عجوز فهي أكثر فائدة لمهمتنا.

- زوجـــتك لا تـــزال شابّة، أسهل علي أن أجد متطوعة من رفيقاتـــنا الشـــابّات من أن أجد عجوزاً.. لا يوجد عندنا حزبيات عجائز.

- العجائـــز واســـعات الحـــيلة، يتملّصن بسهولة إذا تعثّرت الخطّـــة، في القرية لهن أكبر الاحترام من بين النساء، حتى و لو بدت غير سويّة، معروفات بالثرثرة التي لا تثير الشكوك، من هذا المدخـــل احرص على إرسال عجوز، الفتيات يتبسطن في الحديث مـــع العجائـــز، يعلمن أن هذا سينقل كآلة تسجيل إلى الفتى الذي أرسلها.. نجاة سوف تكون صامتة لا تريد فتى جديداً، لكن الحديث بيـــن الفتيات والعجائز دائماً ممتع كالبخور يُنبئ بالأعراس.. ربما تهـــوى نجاة أن تشمّه عن بعد.. أرجوك ابعث عجوزاً.. إن بعثت فتاة من المدينة حضرية اللسان سيوقعها سريعاً دهاء عجائز قريتنا الشياطين.

بعكس ما كان حيّاً، أعاد موت الإقطاعي الهدوء إلى القرية، لمّ موتـــه شمل أهلها الموزعين على أكثر من مدينة وناحية. عاد من قُـــتل ابنه في وديان كردستان مع يتاماه يعتاش على راتب التقاعد الضئيل لجندي، بعضهم لم يلق حتفه بلغم أو طلقة آتية من الجبال، إنّمـــا اكتشف قذارة هذه الحرب التي أراد مشعلوها أن تحدث بين الشـــعب الواحـــد إلى أن تتطاول المقابر أعلى من هامات الجبال وتنضـــب دموع الفرات من كثر نوحه.. عاجلوه بطلق ناري من الخلف.

كانـــت التوابيت المربوطة فوق سيارات الأجرة لافتات تنبىء بقدومهـــا مـــن الشمال. تضاعفت المآتم في القرية كأنّما ليس في الجيش من جنود غير أهل هذه القرية.. الندّابات في المآتم لا يغفلن مـــن ذكـــر مناقـــب الإقطاعي راعي القرية وفقيدها، يغدق عليهن

أولاده بالمال سرّاً. يبدأن المآتم ويختمنها برثاء الحسين فيه يتفاعل السنواح جميلا كأنه يطهر النفس يطلبون الأجر على كل دمعة صادقة خرجت من الجفون.. آه يا إمامنا الحسين.. تحضر مرادفاً لكل شهيد أو ميت.. لو جمعنا دموعنا التي سفحناها لك لفاقت بكثرتها ما في الفرات من ماء وما في السماء من غيوم.

أصبحت كل السيارات القادمة من الشمال تحمل رائحة الجثث. كتم سرحان صراعا مع نفسه:

- لو تقابلت مع أحد أبناء قريتي عند كمين أو في مواجهة هل أقتله أم أتركه يقتلني؟ أنا ورفاقي في موقف الدفاع.. تقتل أخاك أو تهرب منه حفظاً على سلامته.. يوقفك الجبل عن الهروب، على سفوحه لا بد أن تلقى أخاك.. هل حدث مثل هذا لهابيل وقابيل ثم قالوا لهما:

- قابيل ماذا فعلت بأخيك هابيل؟!

فكر أن يهرب.. لن يوقفه الجبل إذا ما علم بنواياه.. سوف يخبّئه بين ثنايا طرقاته الحلزونية، لا يستطيعون تتبع آثاره إذ لا يجدون غير حوافر البغال هنا وهناك تشتت طرقهم، كما أن الطرق إلى الجبل صعبة مكسوّة بالجثث.

نام العالم تحت سقف السماء.. نظر سرحان إلى هذا السقف الموشّى يناجي نجومه:

- أيتها النجوم اللامعة املأي قلبي بالأحلام الليلية الجميلة.. لا أريدها كوابيس دماء أخوتي الذين قتلوا أو الذين ربما يقتلون على يدي...

قطع عليه رفيقه المناوب حواره مع السماء:

- اذهب للنوم.. سحبت منه نفسي بالقوة.. أحب أن أحتضنه طوال الليل.

- عد إلى النوم، سأكمل نوبتك.
رفض رفيقه شاكراً عرض سرحان:
- اذهب إلى فراشك، ضع رأسك باتجاه الريح يتلاشى أرقك.
جلسا يتحدثان أحدهما ينفض عنه النعاس والآخر يستقبله، تحدث سرحان:
- منذ أن كنت صغيراً أسمع صوت أمي في الصباح، كبرت وتزوجت، ظللت أسمعه في الصباح مع أن زوجتي هي التي توقظني.. هنا الآن وحيداً إلا من صوت أمي في الصباح الباكر.
ضحك صاحبه:
- لا تخدعني.. تسمع الآن صوت نجاة.
- نعم أسمعه في النهار والليل عدا لحظات الصباح فإنها لأمي.
- لا تحزن على زوجتك.. المرأة دائما تنتظر والرجل يعود.
- هي التي تنتظر وعليها أن تعود هذه المرة.
رفيقه مخضرم منذ أيام الباشا، يرى في سرحان نفسه قبل عشرات السنين، من فراق الأهل وما يخلّفه من وساوس، لم يشأ أن يسمعه القول الجاهز:
- المبادئ أولاً والعائلة ثانياً.
وضع يده على كتف سرحان يترك لمسة من حنان أبوي:
- رحلتنا مع النساء يا ولدي طويلة لا تنتهي بالزواج فهم كآلة موسيقية يقتضي العزف عليها وقتاً وصبراً.
- هي كل أحلامي التي صبرت عليها وقتاً طويلاً.
- الأحلام لا تتحقق إن قلتها عالياً.
أوصل الرسول إلى أصحابه في العاصمة طلب سرحان مع الموافقة من قادتهم في الشمال:

- اعملــوا على تسهيل وصولها بأسرع وقت، وجود العنصر النسائي ضرورة.

أجابوهم :

- لا داعـــي لانـــتظار عاشوراء ففي الجنوب يمتد عاشوراء طـــول الســـنة.. الملايـــة مطلوبة للنواح دائماً.. اقتراحكم بإرسال عجوز ينم عن معرفة، سنفعل ذلك.

طرقت العجوز باب الملاية، رأتها من فتحة الباب بملابس رثّة:

- ليس عندي صدقة.

- جلبت لك يا خادمة الحسين (نذر).

أســـرعت بتقديم دجاجة وسلّة بيض وقطعة قماش سوداء.. فُتح الباب على مصراعيه يطل منه وجه الملاية البشوش للهدايا.

أسرعت العجوز إلى المطبخ تعدّ الشاي مع الفطور للملاية التي شـــكت لها من آلام الروماتيزم في رجليها الغليظتين. بعد الإفطار قامـــت العجوز بتدليكها، اعتذرت لها الملاية عن قرب رحيلها إلى القرية:

- بعد ساعة ستأتي سيارة تقلّني إلى القرية، عندهم قتيل جاء من الشمال.

رحّبـــت الملايـــة بعرض العجوز الذهاب معها. سار كل شيء حسب الخطة.

مانعت العجوز كثيراً قبل أن ترضخ لأصحاب سرحان:

- دائما تطلبون مني.. افعلي هذا الشيء.. عمل إنساني.. بعد أن أتمّه لا أجدكم عند حاجتي.. أنا إنسانة أيضاً. هذه المرة تطلبون أن أخطـــف امرأة من مأتم الحسين، كم صلاة يقتضي أداءها كي يغفر لي الله؟

ابتسم الرجل:

- لديك خيار ان أحدهما ليس خياراً، زوجة سرحان سبيّه بتحريرها تتناقص ذنوبك.

في القرية يواجه الفضول الوجوه الغريبة مع أن العجوز متمرسة إلا أن أسئلة العجائز التي لا تخطر على بال أفقدتها توازنها، ترد عليهن كيفما اتفق شرط ألا تصمت، فالهراء ينقذ الإنسان أحياناً.

سألت العجوز صاحبها:

- كيف أعرف نجاة؟ أفي وجهها علامات فارقة.

- تعرفينها من كثرة نواحها.. تبكي اثنين المتوفي وسرحان الذي تحمل جنازته في مخيّلتها، اجلسي قرب عجوز مثلك ثرثارة ستعطيك أسماءهن وأسماء أسلافهن في بضع دقائق، والد نجاة اسمه حمود وأمها فاطمة.

حكى لها بعض التفاصيل الدقيقة في حياة سرحان ونجاة.. البئر.. هروبهما الأول.. الزواج.. والدته.... أعطاها بعض الكلمات الحميمة الخاصة جداً بينهما كي تطمئن نجاة لها كرسول بعثه سرحان.

دون أن تسأل شاهدت العجوز امرأة ترتدي السواد لا تولول كبقية النساء، تنهمر دموعها صامتة:

- أنت اسمك نجاة.

- نعم يا خالة.

عادت إلى صمتها، قالت العجوز في سرّها:

- آه يا ابنتي.. كم هو حزنك عميق، قتل الفضول الذي لا يفارقنا نحن معشر النساء.

- لماذا لم ترافقي زوجك؟

كتمت نجاة وخزة في القلب لسماع ذكر زوجها:

- تخليت عن حياتي من أجل أن يواصل هو الرحلة.
- أراك أكثر ألماً.
- تألمت في الوداع وأتألم الآن في البقاء.
- بماذا تذكرك الطيور المهاجرة وقطارات الليل وحمالات الصدر ومحطة أور؟.

أزال بريق عيني نجاة المنطفئ منذ زمن الدموع تتأمل العجوز، واصلت العجوز:

- الأعراس الخفية، رقص الحضريات الماجن.. لوه أو لوه أولوّة.. أو شوف إيحالي اشسوّه.

شهقت نجاة تمسك بالعجوز:

- أهو حي؟
- نعم وهذه صورته بالملابس الكردية، اسمعي يا ابنتي هناك في الجبل أحيانا طعامهم على الجذور كسكّان الأدغال تلاحقهم الحوامات مثل الجراد.. فكّري..
- مع سرحان ليكن طعامي التراب ومصيري القتل.
- متى تأتين معي.
- يا خالة لا أستطيع الذهاب معك، لا أقول ذلك عن شكوك، أعطني عنوان في العاصمة، أخبريهم أن عبد القادر هو من يوصلني لهم.. عبد القادر وحده الذي أقبله ضمانة للخروج من قريتي سرّاً.. لبس خوفاً على حياتي إنّما صيانة لشرفي.
- من هو عبد القادر؟
- يعرفونه جيداً.. هو منتم ولا منتم معاً.

حملت الرياح الشرقية أنباء قرب وصول نجاة إلى الجبل، سرحان يدعوها أن تسرع بحمل زوجته فحيث تعبر الريح يستطيع الإنسان أن يصل وإذا ما استدارت أحيانا نقطعها من دون شراع.

فـــي أيـــام وصـــوله الأولـــى وقف سرحان بطول قامته التي اســـتطالت كرقـــبة زرافـــة يقطف ثمر الحرية اليانع على أشجار الجبل:

- لا بـــد مـــن زراعـــة هـــذا على أهوار الجنوب لكي يبدد أوكسجينه عفن السنين.

لكـــنه لم يجد معارك للتحرر بل وجد معارك للبكاء، يجلس في مآتمها القاتل و القتيل ينتحبان معاً دون أن ينهيا نزاعهما.

أصـــبحت سمعة العسكريين في الحضيض، ينقسمون سرّاً إلى مؤيّد لاستمرار الحرب يمولها البترول الذي لا يبخل على جيوبهم، ومؤيّد يضلل الأكراد بقرب الانقلاب على السلطة كي لا يفاوضها، فطالمـــا ظلّـــت الجثـــث الـــباردة تسخّن كراهيّة الناس للسياسيين تتضاعف فرص سقوطهم.

حاور سرحان أحد هؤلاء الضباط سرّاً:

- ألا يمكن افتداء هذا العدد الكبير من الجثث الباردة بكم جثة ساخنه من عندكم.

فـــي الحملـــة الصـــيفية قبل وصول نجاة التهب الجبل. دفعت الســـلطة بـــأفواه النار وأسراب الجراد من الحوامات، كانوا على مستوى الأفق. استعد الطرفان لواحدة من أشرس معارك الدموع، طـــرق النمل السرية حملت للأكراد ومناصريهم الجنوبيين آر بي جي 7 ومبيدات الجراد من (الستريلا) المحمولة على الأكتاف.

تطايرت الدروع كصفيح علب الطعام المحفوظ.. تمرّدت القرى المســـيحية الشـــمالية علـــى نبيّها يسوع ترفض أن تدير له خدّها الأيسر، استبدلوا الصليب بالسلاح يرطن بالكردي :

- ني.. ني.. ني..

استمرت الاشتباكات الضارية أياماً.. نيران معاركها بلون الدم يســودُ علــى الأرض التــي يطؤهــا، يفسد تربتها كبقع المقابر تستعصي على الإصلاح، تمحق الكثير من كنوز الطبيعة المخبئة، الفردوس الذي أرسله الله إلى الأرض كي يداوي به وحشة آدم لم يفتــنهم بــنظره. شــلالات الماء الجاري تصطبغ بالدماء دون أن تغسل جثة. يطارد الموت الحيوانات والطيور الهاربة كما يفعل مع الناس، حفيفها بين الأشجار والوديان يصوب النيران نحوها تفتدي بها المليشيات، هكذا أوعز الجبل لكل كائناته بالمقاومة.

ذخــيرة الجــيش النظامي الليلية تتبعثر علي أصوات الجنادب، غــيوم الجــبل تقف فوق الحرائق دخّاناً رمادياً بارداً يطفئ ألسنة اللهب، ينثر ماءه مثل (دُش) منعش بعد حمام تركي.

يمزح أصحاب سرحان من الأكراد قائلين:

– أنظــر إلــى الجبل كم هو جميل، لو أرسلوا ربع هذا لكم لاكتست سهولكم بالرصاص المذاب.

– لــو أرســلوا لكــم ربــع عدد رجال الأمن الجاثمين على صدورنا لأصبحت جبالكم كالسديم.

– إن تعذر الوصول إلى الجبل أين تذهبون من بطش رجال الأمن؟

– نركب الغيوم!

أكمل سرحان ضاحكاً:

– مــا دامت الثلوج تحرس قممه لن يستطيعوا منعنا، خطوط الدفــاع الأخيرة التي لن يذيبها الرصاص، مع ذلك لنا جبل مسطح تغمره المياه، تتشابك أشجاره من القصب والبردي بأشد من كثافة غاباتكم.

– أين هذا الجبل الغريب!

- أهــوار الجــنوب.. مع فارق الإثارة، كائناتها تتشابه في العــيش، يتســاوى فيها الآدمي مع الجاموس والأسماك والطيور والــبعوض، لا يكلّــون عــن الأكــل النهم. وإذا حيل بيننا وبين الوصول إلى الأهوار نلتجئ إلى الصحراء، تخبّئنا الرياح والرمال.

قال أحدهم ممتعضاً:

- الصحراء الجرداء؟!

رد سرحان يتذكر:

- ليست الصحراء مجرّدة من الخيال، إنها تمتلك ليلاً جميلاً.

شــرعت الســلطة تبحث الوسائل للالتفاف على صمود الجبل. أصدرت قوانين الحكم الذاتي تُصر على إسناد تطبيقه لنفوس هشّة تملك فزع العصفور واهتزاز سيقانه، ترفرف خائفة على طاولات واسعة تأتي خلسة إلى المناطق الكردية القريبة لعقد الاجتماعات، أولى مهامها تعريب أسماء الأماكن.. قاعة عبد الله كوران الثقافية أصــبحت قاعــة ابــن رشــد.. تمــثال الفلاح الكردي بالشروال الفضــفاض اســتبدل بصلاح الدين الأيوبي مرتدياً اللباس العربي على صهوة جواده شاهراً سيفه نحو الجبل، وكأن صلاح الدين عاد لينتقم من أحفاده.. أفواج المليشيات الكردية المتعاونة مع الحكومة تنهمر عليها الأموال، مرتب كل فرد أضعاف ما يعطونه للجنود، يتسرب سلاحهم وذخيرتهم إلى إخوانهم في أعلى الجبل.. ينضمون مــرات عديدة بأسلحتهم وعتادهم إلى (البيشمركة) ثم يعودون إلى الســلطة، بعد حين يكررون ما فعلوه دون أن يوصموا بالخيانة أو ينالوا أي عقاب فقط تتغير تسميتهم ما بين الفرسان والجحوش.

مســؤولو الحكــم الذاتــي يكتمون في ذاتهم خوفاً مزدوجاً من طلبات السلطة التي لا تنتهي عند حدود، وتنزع في كل يوم قطعة مــن ورقــة التوت التي لا تكاد تستر عوراتهم إلى أن تخلوا عن

خجلهم، يشتمونهم في الشوارع، لا تعطيهم سيارات المرسيدس احترام المارة أسوة بغيرهم من راكبيها. خوفهم الآخر من بني قومهم، يتوعدونهم بالقصاص:

- دائماً يرحل الجلاد الغازي ويبقى الخائن جالساً على السندان ينتظر متى تهوي عليه المطارق.

في غرابتها تنثر الحياة آلاف الأسئلة التي لا نجد لها جواباً:

- ما الذي يجعل الإنسان يختار مكانا كهذا يجاور الموت المهين ولا يستطيع الجلوس فيه طويلاً.

الحكومة ترغب في إرباك هؤلاء المساكين، كل شيء يجب أن يكون صورياً عدا سلطة رأس الدولة ورجال الأمن الذين لهم وحدهم تفويض بشتم الرئيس لإظهار جبروت سلطتهم على روح الضحية المستنجد، والذي لا يحميه من جبروتهم سوى الرضوخ. في الجلسات الخاصة يتشاور مسئولو الحكم الذاتي فيما بينهم:

- أين نذهب لو اتفقت الحكومة مع خصومنا؟

- نسكن العاصمة، لن تتخلّى الحكومة عنّا. تعُدّنا لجولة جديدة، نفس الحكومات قصير.

- لكل اتفاق كبش فداء، ستقول الحكومة إن بعضاً من مسئولي الحكم الذاتي ضلّلونا، معلوماتهم تفيد بعمالة زعماء الحركة الكردية للأجنبي وكأن إذاعة بغداد تصفهم بالملائكة.

- لا أعتقد أن اتفاقاً دائماً سوف يعقد، هذه الحرب مفروضة، في أحسن الأحوال تكون هدنة لالتقاط الأنفاس والإعداد لجولة جديدة أشد ضراوة.

- ترقبوا في أي لحظة يأتي دورنا للهروب، في هذه الجبال وحدها البغال لا تهرب، نحتاج إلى عقل بغل لكي لا نبالي.

ليس هناك أمان مطلقاً ما دمت كردياً، يافطات المباني تتغير كلما عقدت السلطة اتفاقاً مؤقتاً مع فصيل كردي، وحدها اليافطة التي لا تتغير والمرفوعة على باب دائرة الأمن والشرطة:

(الشرطة في خدمة الشعب)

تتمثل هذه الخدمة بإطباقهم كالنمور على فرائسها عند حافات المياه، تتحسس ضعفهم واستعدادهم للسقوط. يضحك المواطنون منها كأطول نكتة عرفها التاريخ، فضحك البلاء لا تنقطع مهازله.. يودّون أن يقوموا هم بخدمة الشرطة لو كفّوا عنهم الأذى. يتوسل المواطنون:

- لا أسألك إطلاق سراح ابني ولا رؤيته، فقط قل لي هل هو حي؟

يأتيه الجواب الجاف المعهود:

- غير موجود عندنا.

تعددت الأورام في رأس السلطة لمناطحتها الجبل، جنود الجيش النظامي يخطون بصعوبة، خلفهم وأمامهم الخوف، مقاتلو المليشيات (البيشمركه) ظهورهم إلى الجبل لا تصيبهم طلقات الأوامر القسرية، ينطلقون متى ما أرادوا، يصيبون الطريدة بغتة ثم يعودون كذئاب مسرعة إلى مغاراتها في بطون الجبال، لكن هذه الطريدة البائسة محرّم أكلها حتى على الضباع.

أعطوها بندقية وقالوا لها:

- قاتلْ إن أردت أن تطعم عيالك.

يودع زوجته:

- ربما لا أعود حياً.. يعرضون عملاً لا ينتهي إلا بموتي، سيطعمكم التقاعد خبزاً بعد أن سلبوا منا الأرض.

صـــوبت السلطة، يعتمل في صدرها الغيظ مدافعها وطائراتها الحربية على القرى الوادعة التي تنتشر كبيض وضعه الجبل قرب الينابـــيع، لتصنع على الأرض آلافاً من جورنيكا بيكاسو لم يتسن لرسام أن يعلنها.

طبعوها على صفحات صحف لندن ونيويورك بمانشيت كبير:

(السيد الرئيس يؤدب الأكراد)

من المؤكد أن صحف لندن و برلين كتبت نفس المانشيت الكبير آنذاك عن (فرانكو)، لكن لا أحد الآن يتذكر ما كتبت، إنّما يعلقون (الجورنيكا) شاهداً يستمر وقوفه على المنصة طالما بقي ظلم.

قامت السلطة بترحيل القرى الجريحة.. القرى الميتة ظلت دون دفن تنتشر عظامها كالمحار تتلاقطه الأجيال.

مـــن عيون الجبل يشاهد المقاتلون سباقات الموت تجري على أرض قـــراهم بيـــن النســـاء والشـــيوخ والأطفـــال والحـــيوانات والرصـــاص.. يركضـــون بشتى الاتجاهات والرصاص يلاحقهم.

العداءون يتهيئون لدخول السباق لكن الجبل يسمّر أرجلهم:

– مهلاً.. إن لم تتعلموا صبري فلن تكونوا أكراداً.

شـــتم بعضـــهم صـــلاح الديـــن الأيوبي، امتعض سرحان من الشتيمة، راحوا يعتذرون له، شكرهم قائلاً:

– لا تفرق السلطة بين كردي وعربي. كلنا مطلوبون للقتل.

تسلل المقاتلون تلك الليلة لأخذ الثأر بفصائل صغيرة متفرقة من الأفراد، يصطادون بعض ربايا الجيش الثابتة.

استكشـــف الفصيل الذي يضم سرحان موقع الربيّة.. مداخلها.. عدد الجنود.. سلاحها.. المرتفعات المطلة.. أقرب الربايا..

كانـــت لـــيلة حالكة السواد كالليالي التي تعقب القتل.. اقتربوا كثيراً من الربية وسمعوا حوار الجنود:

- وصــلتني اليوم رسالة من زوجتي.. ولدي ناجح.. يطلب دراجة هوائية.

- رسائلي تتأخر.. أرسلها على عنوان القرية.. يبقيها ساعي البريد سامحه الله أياماً قبل أن يعطيها إلى دلال سيارات الأجرة.. فمــنذ غــياب الحاج عبد الواحد صاحب الدكان لا تصل الرسائل بانتظام.

قفز سرحان يوقف أصحابه:

- أستحلفكم بالله أن تتركوا هذه الربيّة.

- كاكا بعد الذي حلّ بقرانا تطلب رحمة!

عاد يلح:

- إنهم مساكين..

- كاكا غداً سيطلق هؤلاء المساكين النار علينا.

توسل لهم:

- بحق الرب والأنبياء...

ردّوا عليه:

- لا تشــارك معنا.. نتفهم مشاعرك لكنك لا تتفهم مشاعرنا الليلة.

قــبل أن يــتم أصحابه استعدادهم للهجوم توجّه سرحان بوجهه صوب قلاع الجيش البعيدة صارخاً:

- جبناء......

بعثرت قذائف الآر بي جي 7 ساتر الربيّة الضعيف يدفن موتاه المنسيين.

في ظلام الليل البارد كتب سرحان إلى عبد القادر:

- إرسلْ نجاة بمفردها، لا تأت إلى هنا... هاجرْ خارج الوطن إذا ما ترصّدوك... إنها ليست حرباً تحررية... هي كالديمقراطية مليئة بالعيوب لكن لا يوجد أفضل منها

ختم رسالته وأعطاها للرسول طالباً توصيلها كشيء شخصي.

القرى الجريحة نقلوها تنزف دون تضميد جراحها.. طوّقوها أولاً.. أفردوا قوائم بأسماء الملتحقين بالجبل أعدتها المخابرات بمساعدة بعض من يعمل في دوائر الحكم الذاتي، أخذوا نساءهم رهائن يوصدون عليهن الأبواب المحكمة في قلاع خلفية أُعدت لهن بعد فصلهن عن الأبناء.

في أول ليلة انقض عليهن رجال الأمن والمخابرات يمارسون الفحشاء، يوثقون من تقاوم.. ما بين نهار وليلة قُتل غالبية أهالي هؤلاء النسوة المنكوبات.. كان لهذا الاغتصاب أكثر من معنى، أراد فاعلوه إهانة خصمهم، وليس أكبر من الفعل بعرضه للتنكيل بشرفه، كما أن أجساد الكرديّات البيضاء الفاتنة جعلتهم يؤدون مهامهم بشغف، لكنهم لم يفكروا أنهم كانوا يمارسون الجنس مع أخواتهم.. تكوّمت الأجساد فوقهن تغرس سكاكينها تعلن هزيمتهن في حلبة المصارعة بالأكتاف.. سوائل المغتصبين شربنها نفطاً يثير الغثيان يهيئ الأبدان للاشتعال.. أزواجهن يعوون كالذئاب الجريحة في أعالي الجبال يهمّون بأكل بعضهم بعضاً من شدّة العار.

أدرك سرحان عمق الألم الذي يقضم أصحابه.. يتخيّل أن يقبض تجّار الرقيق على نجاة عند آخر معبر يضيفونها حلقة في سلسلة العبيد وهي التي رفضت الزواج بغيره على شرع الله، ارتجف لمثل هذه الأفكار مستنكراً:

- أيصـــدق أن يأخذ الصراع بين من كانوا رفاق سلاح يوماً ما ضد الأجنبي هذا الحد المخزي؟

أزواج المغتصبات ناكسو الرؤوس يتمثلون صراخ الاستغاثة.. تجـوع.. تعرى.. تسأل أباها الحاجة أحياناً.. إنّما عرضها مكفول عند زوجها بمثابة مؤخر صداق لا تسدده أموال بل دماء لا ينتهي سفحها.

أخـــبروا رفـــاقهم بأنهم سينزلون غداً في وضح النهار حاملين بنادقهم جهارا يقابلون الأوغاد ليغسلوا قذاراتهم بالدماء.

رفـــيق ســـرحان المخضـــرم وحـــده الهادئ الصامت من بين المسلحين.. تكلم بعبارات متقطعة كمن يطفئ ناراً تلتهب من فوهة بئر بترول يقترب منها شيئاً فشيئاً:

- يـــا إخـــوان.. يومـــاً ما في المعتقل سمعت صراخ امرأة يتعاقـــب على اغتصابها عدد من رجال الأمن.. أخرجوها عارية تلطخهـــا الدمـــاء.. كنت أنتظر دوري للتحقيق، استغاثت بي، أنا المكـــبل بقـــيود الحديد المرتجف من الخوف.. سحبوها في الممر تلوي عنقها نحوي تصرخ:

- وين أهل الغيرة والشهامة.

شاء الله أن أبقى حياً، بحثت عنها حتى وجدتها قلت لها:

- أتذكرينني؟

أجابت ضاحكة:

- نعم.. أنت الذي لم يجب استغاثتي.

دعوتها إلى بيتي، جاءت معي وبقيت إلى الأبد.

- تزوجتها؟

- نعـــم.. في نظري هي عذراء كسيدتنا مريم.. رجال الأمن ليســـوا بشـــراً.. أشـــبه بمسلسلات الخيال العلمي، يسقونهم عقاراً

يحيلهم أجهزة أوتوماتيكية للتدمير.. ارحموا الضحية التي تنزف.. جلادها من نوع آخر لا يقارن بالمفاهيم السائدة.. انتشلوهن كقدّيسات ذقن من العذاب ما لا يمكن تصوره.

انهمرت دموع الأزواج المحبوسة يبكون بأعظم من بكاء الثكالى. رفعوا رؤوسهم على امتداد الأفق الذي ينسدل ما وراء الجبال كأنه خيمة إنعاش يرقدون تحتها بعد عملية كبرى.

سافرت إلى العاصمة وحدي أستطلع طريق نجاة الصاعد إلى الشمال، آخر ما قالته لي:

- نفسي عندك وديعة توصلني إلى سرحان كما عاهدتني.

العجوز التي أرسلها رفاق سرحان أنهت حكايتها مع الملّاية بالشجار، نفذ صبرها من المعاملة الدونية لها. بعد أن أيقنت العجوز أنها أتمت مهمتها راح الغيظ يعتمل في صدرها. طلبت الملاية منها غسل قدميها، أجابتها:

- متى كنت خادمة عند الذين خلّفوك؟

فاجأ الملاية الجواب العدواني:

- قومي يا كلبة.

- اخجلي يا بقرة القذارة لولا ذكر الحسين لقطعت أذنك.

أسرعت نجاة تخرج العجوز التي قلبت كلمات التزلف بأسوأ أنواع الشتم:

- استرينا يا خالة، لا تفضحينا.

- دجّالة، لا تعرف الدين، تتكسب به.

- حرام يا خالة، عرفتِها ليوم واحد.

- تذهب للسينما وابنها عاطل يشرب العرق.. عرفت هذا بأقل من يوم، ما الذي سوف أعرفه لو بقيت معها شهراً؟

جلست في مقهى (شريف وحداد) في يدي اليمنى مسبحة صفراء وفي اليسرى جريدة كما اتفقت مع العجوز على الساعة السادسة عصراً. بعد دقائق جاء شخص يسأل:

- أين مقهى البرازيلية؟

أجبته:

- في علاوي الحلة.

انتحينا في أحد أركان المقهى نعيد السير في طريق نجاة الحلزوني المليء بالمطبات والمفاجآت:

- رافقها حد العاصمة ثم دع الباقي لنا.

- كلا.. لا يخدعك ارتدائي للملابس الإفرنجية.. تحتها فلاح لا يترك امرأة.

- لنجعلها إلى كركوك فهي أشبه بمنطقة الحياد منها يغادر المسافرون بدون تصاريح سفر.

- لا أرجع إلا بتسليمها لسرحان باليد.

- أنت غير حزبي.. اعذرني لو قلت..

قاطعته:

- الثقة.. تخافون أن أشي بكم.. تعملون في صفوف الشعب ولا تثقون بأفراده... هل كانت العجوز التي أرسلتموها حزبية؟ كم من الحزبيين ومن عامة الناس آووكم غير عابئين بانتقام السلطة؟ مع ذلك لدي التزكية.. سرحان وزوجته.

- آسف لإزعاجك لكن هذا غير مسموح في العمل التنظيمي أن تطّلع على أوكار في العاصمة ومدن أخرى.. لو راقبوك لسدّوا علينا المنافذ.

- صحيح أنني لست حزبياً لكن أحمل موقفاً ثابتاً في الحياة.. ضد الفاشية في كل الأماكن والعصور.. ثم لماذا تنظر إلى الأمر

مـــن زاويـــتك الضـــيقة؟ ألم تدرك خطورة قيامي بتهريب نجاة؟ سيذبحني أخوتها قبل رجال الأمن إن علموا بذلك.

وافق محدثي على العودة غداً في نفس الموعد لإعلامي بجواب أصحابه، مثل هذا لا يمكن إقراره بمفرده، افترقنا أحذره:

- إذا رفضتم فان نجاة لن تقبل الذهاب معكم.

عدنا نتقابل مرة أخرى في اليوم التالي، حاول الرجل أن ينمق كلامه قاطعته:

- رفض أصحابك؟

- لـــم يرفضوا ولم يوافقوا.. راهنت على صدق كلامك.. لا يمكن أن تكون ممثلا هكذا لكنهم..

- رفضـــوا الـــرهان! متى كانت رهانات السياسيين صائبة؟ عيـــبكم أنكـــم لا تحسنون المقامرة مع أنها لعبة أساسية من لعب الحـــياة.. رفـــاقك القـــياديون الذين أمضوا أغلب سني حياتهم في المخابـــئ السرية لم يجلسوا على طاولة (بوكر).. لا يرغبون في المغامـــرة بـــأوراق الشعب كما يقولون، تركوها لمن ارتضى أن يلعب بأوراق مغشوشة.

- ســـهرت الـــبارحة أجادلهم، انتهينا إلى حل لعله يرضيك، نكتب إلى سرحان.

- عجيـــب! تفكرون كالسلطة، عقل أمني، إن ظهرت خيانتي تقبضون على سرحان.. بين أيديكم.

ضحك الرجل بمودة:

- بدأت تفهمنا.

- لا مانع سوى أننا نزيد مِن طول عذابات نجاة وزوجها.

بعـــد انتظار.. وصلت نجاة تُزف مرة أخرى لزوجها بملابس كـــردية فضفاضة كاتساع الحرية التي وجدتها يتخلله إطلاق نيران

الفــرح كمــا فـــي أعراس القرية التي افتقدتها في زواجها الأول السري.

مــن بيــن كــل رهانـــات السلطة المركزية الخاسرة في شتى المجالات نجحت واحدة هنا في كردستان حين أجبروا الجبل على الـبكاء.. راهنوا على العشائرية والطاعة العمياء.. العشائرية التي من الصعب كسب ثقتها ومن السهل فقدانها.. يحركها الطموح ليس لكســب الميدالــيات من مواطنيهم إنّما لإنجاز مجدهم الشخصي.. كــالأب الذي يأمر أولاده بقتل بعضهم، كي تتعزز سلطته بدلا من تقويضها تحت هول الجريمة.

ســماء كردســتان تنقسم إلى شطرين، لكل منهما مجرّة واحدة يتوسطها كوكب مضيء تدور حوله أجرام صغيرة، بعضها يندثر والآخــر يغيب ثم يعود من جديد، تتفرد بميزة الانتقال من مجرة إلـــى أخـــرى تـــبعاً لفصول السنة. هذان الكوكبان كسائر كواكب الفضاء السحيق البهيّة في نورها عندما يأتينا من بعيد، لكن العيش فيها يقتضي ارتداء ملابس رجال فضاء.

تســودّ صفحة هذه السماء أحياناً لندرة وجود الأجرام الصغيرة المضـــيئة المتساقطة كالشهب ما بين المجرتين. في مرات أخرى يصـــيب كوكبها الكبير المضيء الخسوف لدى مصافحته لأصابع أيادي السلطة الناعمة كبطون الأفاعي والحاملة لخطرها.

نأى سرحان عن هذه الصراعات يتوسط بينهم:

- دعونا نقاتل الفاشية معاً، بعدها اقتلوا أنفسكم أو توبوا إلى بارئكم.

يـــنجح قليلاً ويفشل كثيراً.. وجدهم كالحكومة لا يريدون أحداً مستقلاً:

- الحياد خدعة سافلة.

- من ليس معنا فهو ضدّنا.

يجيبهم سرحان:

- مقولة المرحوم جون فوستر دالاس.. لماذا تلعنونه إذن؟

نجاة ابنة السهول والمخابئ سحرتها ذرى كردستان مثل أخ من أبـيك تلتقيه أول مرة.. تطرد أحلامها المرعبة في سواد الليالي، تضع بيدها بندقية ما عادت شاة تمد يدها لسكين الحكومة.

أمضـت نجـاة وقتاً قصيراً مع زوجها، استدعوها إلى قاعدة أخـرى لتدريـبها على أعمال التمريض وتجبير الكسور. سهرت ليلتها مع زوجها، يفترقان برضائهما لأول مرة دون أن يطاردهما الخوف، مع أن الفراق في كلا الحالين يخلف الحزن.

دعاها إلى الفراش، اعتذرت:

- ما لك ترتجفين؟

وضع فوقها بطّانية:

- التصق بي كي أدفأ.

- لكنك رفضت.

ابتسمت:

- قـربك حياتـي.. فقط لا أستطيع هذه الليلة.. أرى الجبل ينظر إلينا.

تقرفصـا تحـت الغطـاء يشاهدان القمر يُلبس الأشجار أردية فضّـية. نجاة ساهمة لا تصغي جيداً إلى زوجها، أنكر عليها ذلك. تطلعت له تنهمر دموعها، ضحك سرحان:

- غـداً تصبحين من ملائكة الرحمة.. تجففين دموع ودماء المرضى.. يبكيك الفراق؟ نرى بعضنا متى شئنا.. ليس هذا بفراق إنّما تسخين لعواطفنا.

- أفكر بشيء آخر لم تلمسه. أنا على يقين انه سوف يقع.

- حامل؟
- سنواتنا العجاف سوف تستمر، يتباعد يوم الولادة.
- لا تيأسي.. انظري إلى الجبل تتكور بطنه كالحامل.. لا نعرف متى يلد.
- سرحان.. عشنا دائماً متجاورين مع الموت وقتها لم أفكر أنك ستُقتل.. ربما تُعذّب، تُسجن لكن لا تموت.. الآن خائفة جداً عليك تنتابني الهواجس.
- مثل ماذا؟
- أغلب ظنّي أنك ستُقتل.
- لا يوجد تأمين على الحياة من رصاص الحكومة في هذا المكان أو في غيره.
- لا أعني الحكومة.. أنت لا تعرف المكائد.. هنا تتبدل الفصول بأكثر من شهور السنة وأنت يوم قائظ من أيام تمّوز الجنوبية.. لا تحصل في النهاية إلا على عداوة الجميع.
- نبقى ضيوفهم.. لا يقتل صاحب الدار ضيفه.
- الذي يتجاوز مدة الضيافة يصبح دخيلاً.
- نحن في وطننا.. لا تتشاءمي كثيراً.
- يذكرني الأغوات بإقطاعي قريتنا.
- لا تسرعي في ظنونك.. كنت مثلك، شككت بفائدتهم.. في الظاهر لهم السلطة المطلقة إنما تحت كل آغا جيش من المستشارين والمكاتب المتخصصة لا يملك مثلها رئيس الجمهورية، يفوق عددهم عدد مسلّحيه.. بعضهم يعمل في الخارج بما يشبه السفارات.
- غطاء رأسهم خليط من عمامة الشيخ طاهر وكوفية الإقطاعي .

- (الجـراوية) نسجها عمرو بن العاص بحيلته وألبسها لهم معاوية بن أبي سفيان بدهائه.. الشيخ طاهر والإقطاعي أُميان أمام هؤلاء الدهاقنة.

- شعبهم بسيط.. مفرط في الطيبة.. من أين خرج الأغوات؟

- جمعـوا حصص شعبهم من الدهاء، أخذوها لهم وتركوهم مساكين.

اسـتيقظ رفاقهم على ضحك سرحان ونجاة ظانّين أنهما قضيا ليلة رومانسية جميلة.

انتظمت نجاة حال وصولها لمكانها الجديد في دورة التمريض.. أول الدروس عن الود المتبادل بين المريض والطبيب:

- المـريض يرى كل من يرتدي (مريول) أبيض بمثابة لقمان الحكيم.. إيمان المريض بالشفاء أفضل مفعولا من العقاقير.. ابدأوا بالروح ثم في تفاصيل الجسد.

طبيـب الـدورة (مريولـه) متّسخ كنادل مقهى يشكو من قلّة الأدوية، يتشاجر مع المسؤولين السياسيين والعسكريين:

- تولون جهدكم لجلب البنادق والذخيرة فقط.. نرمي البندقية المعطوبة، هل نستطيع إهمال إنسان؟ لا أحد يتطوع في التمريض وكأنـه عمـل مُهيـن.. جمـيعهم يريدون القتال.. أين تثقيفكم يا سياسيين!

طلبـت نجاة من الطبيب إعطاءها المريول المتّسخ كي تغسله، رفـض لانشـغاله بالعمل على مدار اليوم لا يجد الفرصة لخلعه قائلاً:

- اتركيه.. كل شيء من حولي متّسخ إلا حظّنا، غُسل بكافة المساحيق.

الأطـــباء القليلون يستحقون كل أوسمة (أبيقراط) هم كل شيء للمـــريض، الطبيب والممرض والفراش والطباخ والأهل. أفرغوا غطرسة أطبّاء الحكومة في المزابل، يتندرون مع مرضاهم:

– ليس عندنا مضاد حيوي لرصاص الحكومة التي لا تستثني طبيباً، ربما في الغد أكون أنا مريضك.

جمـــيعهم يشـــتركون فـــي المعارك، يحملون البندقية التي عن طريقها عرفوا حقيقة ما يعانيه المصاب. إعداد الممرضين في هذه الـــبقاع المعـــزولة يجـــري بكفاءة عالية. المدرسون من الأطباء يعطـــون كـــل ما لديهم خشية أن يكونوا في الغد مرضى طلابهم. كـــثرة المصابين تسارع باكتساب المهارات. فاجأ سرحان زوجته بزيارة:

– الرُســـل بينـــنا يأتون ويذهبون يومياً. لم يعلموني بقدومك الوشيك!

كـــان مظهـــرها أخّاذاً.. مريولها الأبيض النظيف: بدلة عرس يومية.

سحبها من يدها باتجاه غرفة نومها:

– مرضاي ينتظرون تبديل غياراتهم.

– قلبي هو الذي تراكمت جروحه.. لا يستطيع الانتظار.

في المساء رأته يتأهب للذهاب دون إعلامها:

– ما هو سبب قدومك وذهابك السريع؟

– ذاهـــب لاســـتقبال (ســـلمان) مع وجبة من رفاقنا يعبرون الحـــدود هذه الليلة. أتذكرين (سلمان) الذي آوانا ببيته في هروبنا الأول؟

– كيف أنسى من حمانا أيام الخوف.. عبد القادر أخبرني أنه مسيحي.. أحبه أكثر من أخي ، دعني أذهب معك لملاقاته.

- لو علموا أنني أخبرتك لغضبوا.. ربما أحالوني للتحقيق.. عملية عبورهم تجري بسرّية تامة. لو تفشى الخبر لقبض عليهم حرس الحدود الأتراك، إذ أن لجان المعلومات المشتركة تتبادل الإشارات سريعاً.

- تخشى الوشاية؟ أمن المعقول أن يخون شخص من هذا المكان؟

- المال والسلطة أغريا رجلاً طيباً كبروتس.

كمن سرحان واثنان من أصحابه قرب الحدود التركية القريبة عما يفصلها عن الحدود السورية منذ أول الليل يتحسسون بآذانهم مجيء سلمان وجماعته .

الحراسة التركية تتركز على أنابيب النفط، بعد عبورهم الحدود قادمين من سوريا عليهم أن يقطعوا في طريق رحلتهم منطقة مكشوفة.. مصيدة للموت.. تحول دون الوصول إلى أرض الوطن.. مرتبات الجنود الأتراك من الليرات أقل مما يعطى لمن يقوم بأعمال السخرة، يترصدون المار عبر أنابيب النفط، يردونه قتيلا دون السؤال عن وجهته، لقاء ذلك تصرف لهم مكافأة بالدولار مع نقلهم من هذا المكان النائي إلى مكان آخر قرب أهاليهم، فأنبوب النفط لا يدفع إلا بالدولار مع أن الضحية جاء للمرور فقط.. تنكشف الأسرار حيث توجد الحرية التي لا تستطيع حماية نفسها بالغموض حتى في أوقات الصراع.. هذا ما حدث لسلمان الحاصل على دكتوراه الهندسة وأصحابه.. يتحدثون بزهو عن قرب انتقالهم إلى أرض الوطن لمواجهة الفاشية متناسين قول تشرشل:

(يجب إحاطة الحقيقة بسلسلة من الأكاذيب)

سلمان ليس بمقدوره الكذب حتى من أجل الحقيقة كأبي ذر الغفاري، يقول الحقيقة ولا يكذب من أجلها.. تلك النفس الزكية ليست معدة للصراع المليء طريقه بالخداع والشراك القاتلة.. على أكتافه مسوح راهب وفي روحه يكمن قديس، رأى عجز الرهبان عن إزاحة الظلم فانتضى بندقية (جيفارا) الذي آمن أن العمليات الجراحية تجريها البندقية وليس مشرط الطبيب.

الأكراد الموجودون على الجانب التركي يتسترون على المتسللين، يقومون بعمل الأدلاء لهم، سرعة العبور تحددها البغال المرافقة الحاملة للذخيرة والسلاح والمؤن، عند تبادل إطلاق النار بين حراس الحدود الأتراك والقافلة تفرّ البغال مبتعدة، يخبئها الأهالي في بيوتهم ثم يعيدونها لأصحابها، في مرات كثيرة تسببت هذه البغال في مقتل العديد ممن يسوقونها ومعاقبة الأهالي الذين لم يردعهم العقاب عن مناصرة من يقاتلون الفاشية في الجانب الآخر، متخلين عن فرص نجاتهم بالعبور إلى أرض الوطن كي يعيدوا البغال بحمولتها.. هودج في داخله عروس لا تؤخذ إلا بقتل الفارس.

انصرم نصف الليل في ليلة حالكة السواد.. حدقات سرحان وأصحابه تتسع.. ألفوا الرؤية في الظلام تقودهم آذانهم تلتقط البعيد في سكون الليل.

لعلع رصاص كثيف يتخلله نهيق البغال كالاستغاثة. نهض سرحان لنجدة أصحابه، أوقفه مرافقه الكردي الخبير:

– كاكا.. إطلاق النار بعيد عنا كثيراً.

– لا يهم.. إنه سلمان.. له دَيْنٍ علي تغاضى عنه كل هذه المدة.. الليلة يطالبني به.. أتوسل إليك قُدنا إلى الطريق.

- كاكـــا.. عملكم (مو مضبوط) كيف عرفت أن سلمان قادم الليلة.. غيرك الذي عرف نصب شركاً لهم وآخر في انتظارنا.

ألـــح سرحان يبكي ويتوسل كلما زادت كثافة النيران وصراخ البغال :

- كاكـــا.. الأوامـــر تقول انتظروا في الجانب الآخر.. لست جـــباناً.. حملت البندقية منذ أول طلقة في الجبال، رأيت الكثير من التهور والشجاعة، لا يفصل بينهما غير التوقيت.

- الآن التوقيت بغية إنقاذهم من الذبح.

- كاكا.. سابقاً كنت صغيراً أتكلم مثلك.

- ليتك لم تكبر.

صمتوا يسمعون إطلاق النار يخفت.. يتقطع كنزاع الروح في نهاياتها ومعه يشتد بكاء سرحان الغاضب المقهور.

همّ أن يوجه البندقية نحو الدليل الذي بادره:

- كاكـــا.. رفاقنا مسلحون ربما هم من قتلوا الأتراك وربما مجرد نار كثيفة في ظلام السماء. على الأرض تجري.. رفاقنا لا يفارقون بغالهم.

أشـــرقت شـــمس ذلك اليوم لكن الفضاء ظل مظلماً في عيني سرحان.

الدلـــيل لديه منظار، عبثاً حاول أن يتبين ما يجري في الجانب الآخـــر.. حـــركة آلـــيات غير عادية تدل على أن شيئاً ما حدث البارحة على جانبي أنبوب النفط.

سأل سرحان الدليل:

- ما العمل؟

- ننتظر حلول الظلام. يأتينا دليل من الجانب الآخر بالأخبار السيئة.

- كنت متفائلا ليلة البارحة!
- حركة حرس الحدود الأتراك تنبئ أنهم عثروا على شيء.
ما أطول ذلك النهار.. توقفت فيه الأرض عن الدوران.. رفاق سرحان غطّوا في نومهم إلى المساء.
حث سرحان الدليل بالإسراع لملاقاة رفيقه من الجانب الآخر، أجابه:
- كاكا.. الموعد محدد سلفاً في مكان وساعة معينة.. أذهب له وحدي.
- متى؟
- عند اشتداد الظلام.. أرجوك أنِ تهدأ.
عاد الدليل من اجتماعه بالآخر منكّس الرأس. فرّ قلب سرحان لمرآه:
- المجموعــة كانت ثمانية.. قبضوا على خمسة منهم (ثلاثة قــتلى واثــنان أحياء) الثلاثة الباقون مختبئون في بيوت الأهالي.. الحمولــة ثلاثــة بغــال، قتلوا واحداً منها.. تفجرت به الذخيرة.. الاثــنان مــع الســلاح في عهدة الأهالي.. طمروا السلاح وأفلتوا البغال ترعى مع الدواب.. الجنود الأتراك يفتشون البيوت.. الدليل أخبرنــي ألا نقلق.. سيتدبرون أمر جماعتنا.. اتفقنا على اللقاء بعد يومين يصطحب معه رفاقنا والذخيرة.
- سلمان من الناجين؟
- كلا.
- من القتلى؟
- كلا.
- من الأسرى؟
- كلا.

- إذن تخلف في الشام.
- كلا.
- ما الأمر يا رجل، تكلمني بالأحاجي، أفصح بربك؟!
- صاحبك قبضوا عليه جريحاً مع شخص آخر.. همّوا بتسليمهما حالاً إلى الجانب العراقي.. لكنه أراد مصيراً آخر.. أبقوه وأرسلوا صاحبه مخفوراً إلى رجال الأمن العراقيين.
- لماذا أبقوه؟
- شتم أتاتورك.. سمّروا يديه ورجليه تخترقها قضبان الحديد كصليب سيدنا المسيح.. وضعوا خازوقاً من صناعة القرون الوسطى يدخل نصله في بطنه مسافة قصيرة في كل ساعة.. يطيلون في موته.. غداً في الظهيرة يتم الخازوق اختراق ظهره.

لاح سرحان خيالاً يترنح وراء أصحابه. ركضت نجاة نحوه، حسبته جريحاً، أفزعها شحوبه الحاد كأنه نزف جميع دمائه.

أمسكت به تتحسس جراحه.. عيناه كمرآة أعطبتها كثرة الوجوه.

- قتلوا سلمان.
- من؟ الأمن العراقي؟
- الجيش التركي.

احتضنت نجاة زوجها تنتحب.. تبكي رفيقاً لم يحصل على قبر، لكن دماءه المسفوحة قرب أنابيب النفط ستكون مزاراً يوماً ما.

كان موت سلمان جرحاً إضافياً عميقاً في نفس سرحان التي أخذت تتوالى عليها الطعنات، فقد بدأ وجه كردستان يكفهر.. الجبل الهادئ الهازئ من مدافع السلطة وطائراتها أخذ يزأر كالأسد الجريح بسبب اختلال نظام المحمية التي أنشأها منذ القدم.. يرى أبناءه يبدلونها بشرائع الغاب.. مكشرين أنيابهم يعوون:

- البقاء لأطول ناب!

هبطوا من سماء كردستان إلى أرضها بعضهم لبعض عدو: كلتا المجرتين مع توابعها تساقطت كالشهب، فطالما ظلت الأجرام في سماءها كان بهاؤها أخّاذاً.. ما إن تلامس الأرض حتى يتحول جمالها إلى قبح.. تحرق الأرض التي تطأها.. تجلب معاً كائنات خرافية بجبروت (إنكيدو) وخبث الثعالب.. بعض الأدلاء في مسالك كردستان الوعرة تخصصوا حديثاً في نصب الكمائن لإخوانهم.. رهان السلطة المدفوع الثمن أصبح تمويلا لأميّة وعلي في آن واحد.. معركة (صفّين) يجب ألا تنتهي رغم أنها تميل إلى معاوية.. اغتالوا أبا موسى الأشعري بكاتم صوت لتبقى في ساحة المبارزة شجاعة مالك الأشتر وعورة عمرو بن العاص.. لا يسمحون لمن أراد البقاء على التل أن يقف عليه.

مع ذلك بقي الجبل قبلة العشاق السريين، يتوافدون عليه من أرجاء البلاد، يشهرون علانية عشقهم، لكنهم يظلون ككل العشاق معذبين دائماً، يضنيهم الوجد وإن اختلفت الأماكن، عدا أن الجبل يهبهم اكتمال اللقاء الذي يسلب الخوف بعضا من مواعيده.

انتهت فترة دورة التمريض بغير ما كان يأمل سرحان من عودة زوجته لقاعدتهم.. أرسلوها إلى مكان آخر قرب الحدود الإيرانية.

ذهب لزيارتها في آخر أيام دورة التدريب. المسؤول السياسي خمّن ما يدور في خاطره:

- الممرضات يوجدن حيث يكون الخطر.

- إنها نصف ممرضة ونصف مقاتلة.. هل رأيت من قبل ممرضة تحمل بندقية؟

- لا يكســد عملهــا طالما تحمل بندقية.. إذا لم تجد جريحاً تطلق النار على أحدهم.

- أغلــب الظن أن مزاحك هذا سوف يحصل.. يقع في يديها جــندي نظامــي مصاب برصاص بندقيتها تسعفه دون أن تشعر بالذنب.

تدخلت نجاة:

- أشعر بالأذى والأسف.

أوى ســرحان وزوجته مبكرين إلى النوم في ليلة بهيّة.. القمر يتلصــص من خروم الخيمة على عناقهما، مستديراً في ليلة الرابع عشر.. ليلة الأعراس في العمر اليانع، أعطى كل منهما الآخر من العواطف المشبوبة ما لم يألفاه من قبل فإن لسحر المكان وإيحاءات الليل قوى غامضة تتجاوز الجسد والروح.

بعــد هــذه الليلة الفريدة بأسابيع بانت مظاهر الحمل على نجاة يسألونها:

- مضــى أغلب سني حياتكم في المخابئ ولم تحملي.. عادة الفئران تتكاثر في الجحور.

- نحن بلابل.. والبلبل لا ينسل في قفص.

تكمل ضاحكة:

- نذرت للجبل واستجاب.

تقاطعها عجوز كردية:

- بل لمولانا النقشبندي.

ابتهج سرحان يطلق النار.. أولم لأصحابه بما ادخره يجلب لهم حلــوى (المــن والسلوى) التي لا تثير شهيتهم كثيراً لوفرتها في الجبال، يطالبونه:

- إدفع لأحد الرسل يشتري لنا حلوى العاصمة المحرمة من (نعّوش) و (جواد الشكرجي).

- أتستبدلون الذي أدنى بالذي هو خير؟ اخشوا ربكم.

وحدها نجاة كأم موسى فؤادها فارغ.. حملته ليأخذوا أباه بدله.. تناجي ربها:

- لا أريـــده إن كـــان (فدية) لسرحان.. أهو تأكيد لظنوني؟ أســألك أن تأخذنـــي وطفلي قبله إذا كان قدره الموت القريب لئلا أشـــرك بك.. أنقذني يا رب من هذه المعصية التي لا تغفرها لأحد وتغفر ما دونها.

تعود العجوز الكردية تذكرها بإلحاح:

- انـــذري لمولانا صاحب الطريقة النقشبندية، يجعل البركة تحل على ما في بطنك.

توقفها نجاة:

- يا خالة.. عندنا سيدنا الكاظم وسيدنا العباس يعطيانك باليد، من هو هذا النقشبندي صاحب الاسم المريب!

عجائـــز الكـــرد يفهمن قليلاً في اللغة العربية أو لا يفهمنها لذا مـــرّت كلمـــة (المريب) دون أن تلحظها العجوز وإلا اشتبكت مع نجـــاة حـــول الأولياء الصالحين غير عابئة بتثقيف السياسيين. مع ذلـــك قامت العجوز بدور الأم التي تحرص على نمو جنين بنتها، تجـــبرها على شرب الحليب، جلبت لها تعويذة من أحد الملالي لو أعطـــتها لها قبل الحمل لما قبلتها، فبعد أن استقر الجنين في بطنها عاهدت نفسها على حمايته ولو استعانت بالمنجمين:

- لِتنمُ يا بذرة سرحان تحت سماء كردستان.. لا أعرف متى تعود إلى ديارك في القرية.. ربما ينقضي كل عمرنا القصير. هنا نـــتلقى الرصاص بدلاً من عزرائيل.. ربما تكبر وتتزوج كردية..

يكســو عظــامك لحــم كردستان، لكن دمك سيبقى جنوبياً أسمر اللون.. إذا توقف الرصاص ورجعنا على عكاز هل تأتي معنا إلى قــرية أجدادك؟ أم أن روحك يسلبها الجبل؟ سوف تقف في دائرة الطباشير القوقازية.. لك أمّان، كل واحدة تسحبك نحوها.. سحبني أبــوك.. ساعده الأسمر أقوى من سواعد أبي وأمي وأخوتي، فإذا تعــاون الجــبل وعيــنا فــتاتك الكــردية سيسحبونك بخيط رفيع كالعصفور.

أخــذت الــتوترات بيــن المعسكرين داخل الجبل منحى ينذر بالتصــادمات الدمويــة.. كــلا الطرفين يعمدان إلى رهن أنفسهم لفترات زمنية عند مصارف الحكومة، كما يرهن الشخص العادي مصاغ زوجته من الذهب عند مصرف الرهون، يستردها إذا أعاد تسديد ثمنها.. الثمن دائماً مزيد من دماء الاخوة.. فالزعامات حتى لو كانت على رأس ثورات تحررية تسلك مسلك الحكام مما يسهل مهمة الحكومات المركزية في التصدي لها.

ســرحان وجماعــته العرب الجنوبيون يجدون أنفسهم وحيدين أحــياناً، تقترب أهدافهم وتبتعد مع مضيفيهم من أخوتهم الأكراد. خافوا أن يكونوا موضع مساومة يوماً ما. ففي كل مكان يوجد عدد مــن الأوغاد مع فارق أنهم هنا أوغاد شرفاء، قبل أن يعملوا عملاً قذراً يخبرونك بذلك.

اختلى سرحان بأحد رفاقه في السلاح من الأكراد:

- كيف تحاورون سلطة قطعت كل روابطها مع شعبها؟ .

- كاكا.. الأتراك والإيرانيون يطبقون علينا.. ظهورنا عارية إلا من الجبل.

- انبذوا الصراعات بينكم ستكونون أكثر قوة.

- وحدتنا تؤدي إلى فنائنا.. من يقبل أن يتوحد الأكراد؟

- أبسبب هذا وأغلبية مذهب سكان الجنوب غير المريحة سُلطت علينا الدكتاتوريات المتعاقبة؟

- بالضبط.

- لكن هذا لن يوقف النضال، إنما يجعله أكثر شراسة، يتطلب مضاعفة الاستعداد له.

- كاكا.. نحن نريد البندقية جسراً نعبر به الأنهار للتفاوض.

- أردنا البندقية جسراً نعبره للمّ الشمل.

- كاكا.. نحن غير معنيين بنوع الحكام كثيراً من ناحية التفاوض.. أيهما نحصل منه على حقوقنا المهضومة.. لا نضمن أن الحاكم الديمقراطي يعطينا أفضل من الحاكم الفرد.

- العقل الفردي عقل مؤذ لا تحصلون منه على غير المآسي، انظر لاتساع المقابر.

- كاكا.. تريدون كل شيء على رؤوسنا.

- إذا لم تحملها رؤوسكم فسوف تحملها ضمائركم.

افترقا على غير وفاق.. شخصية رفيق سرحان مزيج مميت من المكر والحقد والجاذبية. ينقض برجاله في الليالي المظلمة على ربايا الجيش كأجرأ مقاتل يتقدم رجاله، لكنه بعد أن توغّل في خبايا السياسة تضاءلت جرأته.. يحسن الكلام بأكثر مما يمسك البندقية.

استنفر سرحان رفاقه. أصر المعاقون منهم على حمل السلاح، أحدهم فقد ساقه، احتج على عدم تزويده ببندقية:

- الرماية كالعزف إذا فقد الموسيقي ساقه. هل نطلب منه التوقف عن العزف؟

أثار موقف هذا الشخص العجب في نفس نجاة، فقد دأبت أشهراً بعد قطع ساقه تطهو له طعامه المفضل، تعد له الشاي متى طلب

ذلـــك، لم تسمع منه كلمة شكر واحدة. فاجأها اليوم بظهوره إنساناً غير مجرد من الإحساس. سألت نجاة زوجها:

– تظن وجود متعة عنده بإطلاق النار أم هي الحاجة التي لا بد منها لكل يد؟

– ربما كلاهما.. متعة لا يشاطرها فيها الجميع كمتعة تسلّق الجبال الجرداء.

رفـــض معســـكرا الأكـــراد بإباء أي مساومة مع السلطة على رفـــاقهم الجنوبيين، يحذرونهم من الكمائن.. آوتهم بيوت كردستان التي لا تتشابه جدرانها إلا من ناحية الطلاء.

عزلت هجمات السلطة المتكررة بعض قواعدهم. تطوعت نجاة لإيصـــال المؤن والذخيرة لهم مع أحد الادلاء من رفاقها الأكراد، فلقـــد بقى الجبل لا يفتح دروبه إلا للكردي وبغاله، يغلقها في وجه الدبابـــات التي لا تحسن مخاطبته.. فإن أردت رؤية كردي اسأل الجـــبل، وإن وددت الذهاب للجبل اصطحب كردياً لتمر في دروبه التي تمحو آثار الغزاة من الأرض والذاكرة.

تتساءل نجاة:

– لا شيء يدل على أن التاريخ قد صُنع هنا عدة مرات.

تقاســـمت النســـاء حمـــل أعباء الجهاد.. يُحسنّ بعض فروضه بأفضـــل مـــن رجالهـــن كتربية الوليد.. لكننا لا نفهم مطلقاً وسط الـــتذمر أن حملهـــن هو الأثقل.. يستقر دائماً وسط الروح.. يكفي أنهن الثكالى.

جرى تقاسم على الأرض بين معسكري الأكراد المتنافسين على الـــنفوذ. بدايـــة انقســـامهم حـــاول كـــل طرف أن يظهر الخلاف أيديولوجـــياً.. لا يعدمون الوسيلة بتحرير النشرات النظرية وعقد المؤتمـــرات المعدة أوراقها سلفاً.. كل منهما يتهم الآخر بالخروج

عــن الأهــداف الــتحررية والتعامل مع هذا و ذاك من الأطراف الأجنبية ومع السلطة.. بمرور الزمن تبادلوا التعامل مع هذا وذاك والسلطة مسقطين ما رفعوه من شعارات نظرية، عائدين إلى راية العشــائرية التــي حملهــا أجدادهم، يحرمون وجود غيرهم على الأرض حتى لو حمل منجلاً.

ازداد الضــغط على سرحان وجماعته من كلا الجانبين، فحيث ترفع البنادق لا مكان لأحد على الحياد.

اســتغرب ســرحان انقــلاب هؤلاء القوم المسالمين إلى ذئاب شرسة.. عدوى البارود أصابتهم بأمراض الحساسية المفرطة منذ أن كفّت الثورات عن أكل القطط والفئران وأخذت تأكل الهمبركر من مطاعم ماكدونالد وتظهر عل شاشات (السي أن أن).

عقــد ســرحان وجماعــته اجتماعات مطولة لبحث مأزقهم.. توصّلوا إلى قرار بدا لهم صوابه، عمموه على أفرادهم:

- ا لــنقاتل الســلطة الفاشــية لا لنساعد طرفاً على آخر في نــزاعات محلــية مؤسفة هدفها تأخير بزوغ الفجر الذي انتظرناه طويــلاً.. إن فُــرض علينا القتال مع أو ضد أحد الطرفين فلنقاتلْ مرغميــن بقلوب ملؤها القيح ضد الطرف الذي يتعاون مع السلطة الفاشية.

لــم ينقطع الرسل السريين بين السلطة وكلا المعسكرين يؤلبون كلا منهما على الآخر، يغرونه بالزعامة.. يساعدون الضعيف منهم ليستأســد ثــم ينقلــبون إلى غريمه.. يراوحون بينهما كي تستبدل شلالات كردستان لونها الأبيض بالأحمر القاني.

برز سرحان كقائد ميداني يتبعه أصحابه.. ساعدته بذلك نشأته القــروية التي لا تخاف الظلام.. برع باستخدام البندقية رغم كرهه

لهـــا.. البندقية التي تطرد الخوف عند إمساكها وتضاعف الخوف عندما تكون أعزل.

أتقن طرق الجبال ومغاراتها بالفطرة كطرق القرى.. استطالت نــباتاتها الصغيرة أحراشاً وارتفعت بيادرها تضاهي قممٍ الجبال.. مكانه الدائم في الخطوط الأمامية يتقابل مع الموت يومياً.. لا يراه ملكــاً غــير مرئـــي إنمـــا تجســـد على شكل قذيفة مدفع هاوتزر وصواريخ أرض أرض وقنابل نابالم.

في زيارته الأخيرة، لاحظت نجاة عنف زوجها.. طرحها على الفراش كمن يصارع أحداً.. أحست به يغتصبها:

- أين شاعرية الأزواج الغائبين؟

تنبه لقولها:

- المعــذرة.. اعــتدت مؤخراً أن أنجز الأشياء سريعاً وإلا أهلك.

- لست في الخطوط الأمامية الآن.. معي في الخلف.

- مــرأى المــوت المتواصــل سلب مني شاعريتي.. لعلي أســتردها إن بقيت أياماً معك.. سأغادر في الصباح، بالكاد جئت لأراك بعــد غياب شهور.. نحن الأدلاء من غير الأكراد قليلون، نتواجد في الأماكن الأشد خطورة.

- انتبه لنفسك.. لا تجعل القتال يأخذ روحك.

أجابها ضاحكاً:

- تغيب روحي في خطوط القتال ثم أستعيدها بمرآك.

لــم يعلم سرحان أن روحه سوف لن يستعيدها أبداً.. ترحل مع نجاة التي يخبئ لها القدر نهاية تسبق زوجها.

أتـــوا لكردســـتان يحملـــون الســـلاح ليعودوا منتصرين كعادة المحاربين، لكن الوسائل أضلت الطريق، تبتعد عن الهدف.. تسافر في محيطات الغربة الباردة.

ســـهرا تلـــك الليلة إلى الصباح يطمئن على طفله المعبأ داخل بطنها:

– سنسميه سلمان.

– كدت تقتله في أول الليل.

تجاهل ملاحظتها خجلا:

– أراك كالكنغر.. أين اختفت غزالة البراري وعنزة الجبال؟

– أحمل روحاً.. روحك.. أود لو أستلقي على ظهري سفينة يقفـــز منها طفلي إلى الحياة لكن صيحات الجرحى تفزع الجنين.. أحسه يضطرب مع كل آهة وأنين.. أي هدية ستقدمها له الحياة إذ يولد بين الجرحى والأموات؟

تقـــع قاعدة نجاة على خطوط التماس بين المعسكرين الكرديين المتنافســـين، أحدهمـــا في ذلك الوقت راح ينسق سراً مع السلطة. أثـــارت أعمالــــه اســـتياء باقي الجماعات، وصفوها في نشراتهم الدوريـــة كعمل لا وطني. من ضمن هذه الجماعات الفصيل الذي تنتمي إليه نجاة.

غضبوا من هذه الاتهامات مبيتين الانتقام.. لكي تكون بطشتهم قويـــة اخـــتاروا أضعف الرؤوس.. قاعدة خلفية تمتلئ بالجرحى وأنصاف المقاتلين والممرضات، تسندهم حراسة ضعيفة.

فـــي منتصف الليل تم تطويق القاعدة من ثلاث جهات، الجهة الرابعة منيعة يحرسها الجبل بدأ الهجوم سريعاً أوائل الرؤية، قبل طلوع الشمس.

الجميع في القاعدة نيام بجانب السلاح خوفاً من قيام السلطة بإنزال جوي.

صرعوا الحراس بأوائل الطلقات.. صرخ المعاقون يحذرون رفاقهم:

- اهربوا جهة الجبل.

رفض غير المعاقين:

- نحملكم معن .

- فات الأوان، أصبحنا في مرمى نيرانهم، سنقتل جميعاً، اهربوا بأرجلكم.

أعاق المعوقون من حاملي السلاح تقدم خصومهم المهاجمين، يدافعون عن آخر حصن ليس وراءهم حتى بحر يستطيعون قطعه سباحة.. سيقانهم المقطوعة أمدتهم بعزم وشجاعة لم تتوفر للأصحاء منهم.

فاجأت المهاجمين الذين اشتهروا بسادة الاقتحام المقاومة الضارية لحفنة من أيادي وصدور. اصطبغت الشراويل البيضاء التي كانت دائماً شعاراً للسلام في كردستان العراق بدم العبث الأحمر، تطفئ نجمة مضيئة في ليل كردستان.

وصل بعض المقاتلين الهاربين إلى قمة الجبل ينظرون للرصاص يتكاثر على رفاقهم المعاقين، خاطب بعضهم الآخر:

- ماذا نقول لرفاقنا؟ حمى هروبنا أخوتنا المعاقون! قاتلوا حتى الموت ونحن آثرنا الفرار!

- الأوامر تشدد على تجنب القتال معهم.

- هذا عار.. لتذهب الأوامر إلى الجحيم.

نزل عدد من المسلحين يعودون لمساندة رفاقهم المحاصرين.

جلـب المهاجمون عدداً من الهاونات والقنابل اليدوية.. اتضح أنهـا معـركة لا تنتهي إلا بموت المحاصرين جميعاً وإيقاع أكبر الخسائر بالمهاجمين الذين سوف يتندر عليهم رفاقهم إن هم عادوا دون اقتحام القاعدة التي يدافع عنها معاقون.

يوقـف المـتقاتلون نيرانهم قليلاً كمن يأخذ نفساً قبل القفز من منصة عالية ثم يعودون يحرق بعضهم بعضاً.

أصرت نجاة على البقاء قائلة:

- سيسمع سرحان صرخات ابنه في بطني ويهرع لنجدتنا.

رفاقها يتوسلون لها:

- من أجل ابنك الذي لا تملكين الحق بإعدامه، اصعدي إلى الجبل يعصمك منهم.

رضـخت لإلحـاح رفاقها فيما راح طوق النار يضيق حولهم. أسرعت إلى الجبل تارة تبطئ خوفاً على الجنين من ارتجاج بطنها وأخـرى تسارع يدفعها الخوف عليه من الرصاص الذي يتساقط حولها كزخات المطر.

اخـتلط عـزف رفاقهـا المعاقين على البنادق مع دقات طبول المهاجميـن. ارتقـت قليلاً تتسلق الجبل، بانت لعيون المهاجمين، توجه نحوها عدد منهم. أطلقوا عليها سيلاً من النار.

حماها الجبل كما وعدها رفاقها، وضعها بين صخرتين تحولان دون عـزم المهاجمين باقتناصها. ظلت ساكنة لا تستطيع مواصلة صعودها.

تنبه رفاقها يرونها محشورة بين الصخور والنار. زحف اثنان منهم، اشتبكوا مع المهاجمين يشاغلونهم. لوّحوا لها بالصعود.

أتـــت الطائـــرات المروحـــية علـــى صوت إطلاق الرصاص كالغـــربان يدعوها النعيق، لكنها لم تلق بقنابلها وصواريخها مثلما تفعل عادة بل رجعت دون ذلك إذ وجدت ما تحتها خراباً.

أســـرعت نجـــاة تـــزحف باتجـــاه الجـــبل خوفاً من أن ينالها الرصـــاص. قتلوا رفيقيها اللذين حاولا صد المهاجمين عن اللحاق بها.

تـــبعها عدد من المهاجمين. أدار أصحابها بنادقهم باتجاه الجبل يطلقـــون الـــنار على ملاحقيها غير عابئين بالرصاص الذي راح يحصدهم من الخلف.

مـــدّ الجـــبل يـــده باتجـــاه نجاة لكن يدها القصيرة حالت دون الـــتقاطها. انحـــنى الجبل قليلاً، سبقته رصاصة المهاجمين تخترق ظهر نجاة. استقامت واقفة على طولها تدير وجهها نحو أصحابها وقاتلـــيها الذين كفّوا عن إطلاق النار نحوها. سقطت تتدحرج إلى أســـفل الجـــبل. هبّ أصحابها واقفين يشتبكون مع مهاجميهم دون الاحتماء بساتر كعادة الشجعان الأوائل، يلتقون وجها لوجه.

صـــرعوا نجاة.. أعاقها ثقل الجنين، فالقناص يصطاد الغزلان الشاردة عند ورودها الماء وامتلاء بطونها.

فقـــد ســـرحان بعد مقتل نجاة صلته بالحياة. جراحه المفتوحة ضاعفت شراسته، صنعت منه قائداً عسكرياً لا يهاب، يقوم بأخطر المهمـــات العســـكرية ضـــد الجيش ومعسكراته، يتجاوز برعونته المهام المحددة، يرد على استفسارات رفاقه:

- المبادرة...لا تقررها خطط الأركان.

لكنه لم يفقد رؤيته.. لم ينتقم من قاتليها.

زاره أحـــد قادة مناوئيه ممن قاتل معه سابقاً يعتذر عن الخطأ قائلاً:

– عـــندما تغيب عقولنا نحتكم إلى السلاح رغم أن السلاح لا يملك الحكمة.. لكن على النساء! ومع من؟ مع نجاة التي تشهد لها عظامنا المكسورة.. قلبي ينزف معك... الأمور تسيرها الحماقات رغـــم أن كل طرف يدعي الموعظة.. لا أعرف أين تنتهي.. قاتل الله السلطة سبب كل هذه الخطايا.

عـــانق سرحان رفيقه في السلاح، انتحب الاثنان طويلاً. ودعه سرحان قائلاً:

– لن أحيد عن طريقي الذي تعاهدنا أنا ونجاة معاً على السير فـــيه. مقتلها لن يجعلني أغير اتجاه بندقيتي، كأنها قُتلت بيد أخوتها فـــي القـــرية رافضين زواجها مني. أنتم أخوتها الذين لم تستطع الهـــروب مـــنكم كمـــا فعلت مع أشقائها سابقاً. كنت أظن أنني لا أســـتطيع الـــبقاء حياً بعد نجاة فهي كل شيء، لكني الآن أعلم أن غـــيرها أكـــبر.. الوطن.. هو كل شيء. طوردنا، تعرضنا للقتل، هجـــرنا أرضـــنا، ابتعدنا عن الفرات نحيي سفوحه على البعد، لا نحضـــر جـــنائز آبائنا. في سبيل من؟.. في سبيل الوطن.. الذي أوجعنا كثيراً. لكن الحياة فقدت نضارتها.. روحي كنبتة يبست لن تخضر أبداً.

عاد الوئام بين حاملي السلاح، يترحمون على قتلاهم. اشتركوا معاً في عملية اقتحام كبرى لأحد المعسكرات الخلفية الكبيرة.

تمت العملية بيسر أدهشت واضعيها.. تنكر الجنوبيون يتقدمهم ســـرحان بملابس الجنود النظاميين الذين أغلب أفراده من الجنوب يصاحبهم عدد من الأكراد بملابسهم العادية كمتعاونين مع السلطة، إذ أن التـــنكر بملابـــس الجـــنود يفضحهم. مروا من أمام الربايا حامليـــن أسلحتهم عصراً. لم يفطن أحد لتنكرهم قاصدين معسكراً خلفـــياً يضم سجناً رهيباً محققوه من أقسى أزلام السلطة، انتظروا

حلول الظلام على أبوابه إذ أن عيون المحققين الفاحصة تكشفهم على ضوء النهار.

طرقوا الباب، رد عليهم عريف الخفر:

– كلمة السر.

فوجئوا بهذا الطلب الذي لم يحسبوه، أجابه سرحان بلهجته القروية الجنوبية:

– ولك هيّه لو بيها أسرار جان ضربنه بالتخت رمل، احنه كاطعنه الجوع والعطش.. شايفين بينه البارزاني ولا الطالباني.

ضحك العريف من الداخل يفتح الباب لهم.

دفعه سرحان لغرفة المناوبة، أغلق فمه:

– لن نقتل أي أحد من الجنود سوى الأنذال مغتصبي النساء.

قيّدوا الحرس، وقف بدلهم أصحابه، سيطروا على الحصن، أطلقوا سراح سجنائه، بعضهم لا يقوى على السير. أركبوهم في سيارات الحكومة المصادرة، وجدوا عدداً كبيراً من النساء يربو على الثلاثين امرأة مع عشرات الأطفال من كل الأعمار، أكبرهم في سن السابعة عشرة. قالت إحداهن:

– هل أعطى الرئيس عفواً عاماً؟

ابتسم سرحان الذي لم يضحك منذ مقتل نجاة قائلاً:

– الرئيس أعطى عشرات من العفو العام ولم يلتزم بواحد منها.

تشاجر سرحان مع رفاقه الأكراد الذين أرادوا أن يطلقوا النيران على هؤلاء اللقطاء.. بذرة المحققين الفاسدة. منعهم قائلاً:

– هذه الروح وردة في ماء آسن. خذوها إلى الجبل تطهرها مياه ينابيعه.

ركبوا سيارات الحكومة عائدين إلى قواعدهم بعد أن هدموا جوانب من الحصن حاملين معهم كل السلاح والذخيرة والسجلات.

لم يتفهم أغلب الناس مأساة العائدات من الأسر، عاملوهن باحتقار وكأنهن استمرأن الفاحشة، يدوسون على عذاباتهن وآلامهن التي ليس بمقدورهم تصور عمق التدمير في نفوس هؤلاء الضحايا اللواتي حصلن على أسوأ المعاملة من الجانبين، رغم أن العقلاء يوصون بهن خيراً لكن العامة يخاطبونهن بعقلية الدهماء:

- لماذا لم تنتحرن؟ قتلوا أهاليكن.. استباحوكن.. لم تعدن لنا وحدكن.. جلبتنّ معكن فصيلاً من اللقطاء.. جراء الكلاب المسعورة التي كانت تنزو عليكن..

وأوكلوا لأولادهن الأعمال الدونية، يسوطونهم بلا سبب، يتفنّنون في ضربهم، يضعون على ظهورهم أثقل الأحمال، يوصون بعضهم:

- استخدموا السوط فالبغال لا تسحب العربة لمجرد التريض.

أحد اللقطاء ابن السابعة عشرة يشتغل عامل مقهى، يسمعونه أصناف الإهانات يومياً.

البعض يعطف عليه كسرحان الذي يبتاع له أحياناً الملابس والحاجيات. جاءت والدته يوماً، استبطأت رجوعه لتأخره في إغلاق المقهى. شاهدها بعض الزبائن المخمورين. خاطبها أحدهم بصوت عال:

- كيف وجدت فحولة كلاب السلطة يا عاهرة؟

انتفض ولدها يشتبك معه باللكمات، تكاثروا عليه. ألقت أمه بنفسها عليه.. لم يوقفهم كونها امرأة. حصلت هي الأخرى على أكثر من كف.

تغيّب الولد يومين عن المقهى.. ذهب إلى كركوك دون علم أمه.

دخل على دائرة الأمن صباحاً، خرج منها بعد الظهر يحمل قارورة عصير مجفف.

أعطوه في البداية قائمة بأسماء القادة العسكريين الأكراد والعرب، لكنهم مزقوها عندما علموا أنه أمّي لا يحسن القراءة والكتابة إذ أنه عاش في الحصن كبهيمة، كانوا يلقون فقط بالعلف والماء له. اضطروا لتحفيظه بعض الأسماء الهامة قائلين:

- عدْ لنا بعد القضاء على هذه الأسماء نزودك بغيرها.

وجدوا فيه ثوراً هائجاً يرغب بالمناطحة فشحذوا له قرنيه. أصروا في تأكيداتهم:

- لا تخبر أمك.

علموا بخبثهم أن الأم ستكون له كالطوق الموضوع على رقبة الثور يعيقه عن الجري. فبعد الذي حصل لها لا تفكر بالانتقام إذ أن الذين تود الانتقام منهم قد أعدمهم محرروها.. ذنب أفعى تم قطعه، أما رأسها فبعيد المنال تحرسه ألوية الحرس الجمهوري.. أما قومها فحتى لعيشة الهوان لذّة ومذاق طيب معهم.

استفسر صاحب المقهى من الفتى عن تغيبه أجابه:

- كنت مريضاً.

- أمك سألت عنك هنا وفي المخافر والمستشفيات، أين كنت أيها الولد العاق؟

- عند أحد أصحابي.

همّ صاحب المقهى أن يسأله عن اسم صاحبه لكن أحد الزبائن دعاه لجلب الشاي له.

لاح سرحان مع قائد ميليشيا آخر مقبلين على المقهى.

انحنى فتى المقهى يسأل بهمس:

- ما اسم القائد المصاحب لسرحان؟

أعلمه صاحب المقهى باسم المذكور. قال الفتى في داخله:

- إنه أحد الأسماء.

جلـــب ســـرحان للفتى (فروة صدر) تقيه البرد القارص. لاحظ سرحان كثرة تحديق الفتى برفيقه. شكره الفتى قائلاً:

- أنـــت أكـــثر من عم. سأعد لك الشاي فأنت جنوبي تحبه (ســنكين)، أحـــتفظ لصـــاحبك بعصـــير خاص نخبئه، نسقيه فقط للوجهاء.

عـــاد لهمـــا الفتى يضع شرابهما على الطاولة الصغيرة. شعر رفيق سرحان بالصداع، قال لسرحان:

- اعطني الشاي وخذ العصير.

رد سرحان:

- موافق، فمنذ يوم أمس لم أشرب الماء.

تجمـــد الفتى يشاهد سرحان وقد أتى بعطشه على قدح العصير دفعة واحدة. استدار راكضاً إلى محطة الباصات يستقل أول باص ذاهب لكركوك.

غادر سرحان ورفيقه المقهى إلى معسكرهما في الجبل، تغوص أرجلهما في الثلج المتراكم، يرفعانها بصعوبة.

الفتى في اضطرابه زاد من جرعة السم المخلوطة مع العصير المجفـــف بأكثر مما أشار عليه رجال الأمن. ظهر الإرهاق سريعاً علـــى سرحان، ضاق تنفسه.. تقيأ كثيراً.. لا يملك أصحابه وسيلة إســـعاف غير مشاركته الألم.. خرج الدم من فمه يتجمد على ثلوج

كردســتان، يســقي الأزهار الحمراء التي تنمو وحدها في فصل الشتاء.

دفنوا سرحان قرب نجاة.. زرعوا شجرتي حور عند قبريهما.. رفاتهما ينتظر مع الملايين الأحياء والأموات أن يعودوا يوماً إلى ديارهم.

الفصل الخامس

توترات الحدود الشرقية وصلت في الخريف نقطة الانفجار. التهبت سنوات النار، فتحت شرعية القتل تختلط فيها جثة الشهيد القادمة من غرف التعذيب وجثة الآفاق وجثة الجندي المقتول من الأمام برصاص الجانب الآخر وغيره المقتول من الخلف بواسطة فرق الإعدام التي تعدم الجبان والشجاع.

وقفت الجيوش عند شريط ضيق تنظر بدهشة لتبادل الطرفين تدمير منشآت الآخر الاقتصادية دون أن يخوضا معارك عسكرية كعادة الحروب.

اشتعلت الحرائق تمتد ما بين عبادان والرميلة.. تضيء الرمال والنخيل.. تحرق وجه شط العرب.. السفن البحرية التي طالما امتطاها راكبو البحار توصلهم إلى شواطئ البرازيل واليابان

وهونـــغ كونـــغ وإلى كل مرسى في ميناء تكومت في مجرى شط العــرب الضــيق الــذي لا يتسع لتنفسها، تصدأ في مياهه، أفسد طلاءهـــا الــدم المســفوح كأنـــه السم يتسرب إلى صفائح الحديد والخشــب يسلب منه الروح ببطء إلى أن تفسخت محيلةً مياه الشط بركاً آسنة تبرز منها جثث السفن.

غادرتهـــا النوارس راحلة، يجعل منها جنود الجيش العاطلون على الجبهة أهدافا تتساقط وسط الماء.

بدأت الحرب كمن أراد أن يرفس غريمه لكن الغريم قبض على ساق الفاعل يرفض تركها. ظلاً متلازمين لا يفترقان يأكل أحدهما عظــم الآخــر، يـــناديان بأعلى الأصوات على أعوانهم وحلفائهم لينصـــروهم.. بدت سنوات كردستان الدموية كحرارة شمعة أمام أفران الصلب الهائلة.

سعى الأعوان والحلفاء لنصرة كل طرف في السر والعلانية.. مرات ينصرون الطرفين في آن واحد شرط أن تبقى الساق معلقة في رقبة الغريم، لا يتفاكان، لكن المسافة بين الساق والرقبة اتسعت لمـــئات الألوف من القبور، توشك انحناءات القبور أن تسقط أحد المتصـــارعين، يهب أعوانه، يوازنون وقوفه ولو على ساق واحدة بإضافة المزيد من القبور التي تغلق الانحناءات.

نزعـــت النخيل قبعاتها الأرجوانية إذ غادرها الفجر آخذاً معه شرائطه الملونة.. تنفش شعرها كالأمهات الثكالى.

عجـــز ماء الشط أن يغسل السخام عن وجهها الذي أنبأ الجميع دون غيره عن عمق الكارثة. تخاطب المتحاربين:

- عثوقي كضروع ناقة صالح إن شربتم منها تأكلون طعاماً مقدســـا أنزله الرب وإن قتلتموها ستحل عليكم كل أيام النحس في هبوب ريحها تحيلكم أعجازاً خاوية. أما أنا فسيتطاير شعري فقط..

جذوري يمسكها شط العرب يمنعني من السقوط ثم يجري ماؤه في عـودي كعقار للصلع لم يتم اكتشافه بعد.. ينبت شعري من جديد كثـيفا أخضـر اللـون.. أعـود ناقة أحياها الرب لا تهب حليبها للجاحدين.

هـذه النخـيل التي نمت وحدها على ماء الفرات ودجلة دون مسـاعدة البشر تقف شاهدة الآن على صبيانية الأعمال الحمقاء.. تمـد يداً لهارب تستره، يتلقي جذعها طلقات النار بدلاً منه إلا أنها لم تكف عن بقائها مكاناً جميلاً يلتقي تحت ظله العشاق.

آذان الناس مشدودة إلى الراديو المستمر في عروضه كسيرك، حـتى لـو سقط بعض لاعبيه فإنه يبقى مكاناً يقصده البشر، ينقل أخـبار المعارك التي لا يغطيها المراسلون.. النيران ترسل حممها بواسطة المدافع والطائرات والدبابات على المباني والمنشآت فيما تسترخي الجيوش على الجبهات.

لـم يتدخل أحد لإيقافها أو يعرض وساطة جادة فكلا الطرفين مكـروه.. الكثيرون لم يكتموا فرحهم وتشفيهم لما حصل. أيقنّا أنه مـا من جماعة سوف تقول كلمة شريفة لإيقاف الدماء.. الكلمات الوحيدة التي يمكن أن تقال هي الصلوات والدعاء للرب.

لكنها بعدما أمطرت شلالات من الدم اتسعت وطالت الآخرين، هـرعوا للوسـاطات بعـد فوات الأوان يحملونها كإبريق مكسور يصب في كأس سليمة.

الـراديو يعلـن يومـياً استدعاء وجبات جديدة من المجنّدين، يأخذون خمسة أو ستة مواليد دفعة واحدة.

أولى الدفعات شملت ياسين، جاره الضابط المتزوج حديثاً وعده بمكان خلف الجبهة. اتّضح بعدها أن الخطوط الأمامية أكثر أماناً، تحصـيناتها القويـة المعـدة سـلفاً تحمي شاغليها من القصف..

الخطـوط خالـية مـن التحصينات يطالها القصف بالمدافع بعيدة المدى.

اختصـروا فترة التدريب على السلاح إلى ثلاثة أسابيع، نصف المدة لكيفية تسليم الرسالة إلى الضابط والتحية له. يرى ياسين في تزمت وقسوة ضباطه وجه بسمارك يطل عليه حالقاً لحيته.

أثـار حدثـان الفـرح والحزن في نفس ياسين قبل ذهابه إلى الجـبهة. أشـد ما أدهشه وأبهجه لقاؤه بالحاج عبد الواحد صاحب الدكـان فـي معسكر التدريب.. ابن السبعين عاماً الذي انقطعت أخـباره منذ القبض عليه في العاصمة قبل سنوات كثيرة. اعتقدت عائلته ومعارفه أنه ميت، عاد يبدد اليأس، سأله ياسين:

- أين كنت كل هذه السنين؟

- رقماً في معتقل دائرة الأمن.

- المحكومـون في (أبو غريب) يسمحون لعوائلهم ومعارفهم بالزيارة.

- لم أحاكم حتى أذهب إلى أبو غريب.

- كيف بقيت كل هذه السنين معتقلا! ألم تطالبهم بمحاكمة ؟

ضحك الحاج عبد الواحد:

- أُطالـب! صـفعوني أول يوم اعتقالي ثم ألقوا بي كل هذه السـنين في (الطامورة).. شعري نما أشيب.. تمزقت ثيابي، أستر عورتي فقط أشبه بأسلافنا في العصر الحجري.

قـبل ثلاثـة أيام حلقوا شعرنا، ألبسونا الدشاديش ثم أغمضوا عيوننا و كتفونا، أدخلونا في سيارة لا نعرف لونها، سارت بنا إلى سـاحة السـجن المركزي، جلسنا على الأرض أمام منصة تعلوها المـيكرفونات تصدح بأناشيد الحرب، تتغنى بالسيد الرئيس قبل أن يأتي أحد نوابه الذي سبق أن أرسل الكثير من الأبرياء إلى الموت

فـــي محاكمات صورية، يرتدي بدلة الميدان... بدأ خطابه بالثناء والشـــكر للســـيد الرئيس على إشعاله هذه الحرب التي تعيد أمجاد (القعقـــاع)، اخـــتلط الأمر علي، كنت أظن هذا الاسم فارسياً وأن نائـــب الرئيس سيعدمونه على المنصة على هذا الخطأ، ثم أسهب فـــي تذكـــيرنا بأننا أصحاب كرامة!.. تطلع أحدنا في وجه الآخر مستغربين ذكر الكرامة!.. أي كرامة تلك التي أحملها بعد رزوحي ســـنين طويلة في سرداب أظلم لا أسمع غير الإهانات والشتائم.. وصـــفنا بالأشـــاوس الشجعان في حين كنا نرتعد رعباً خائفين أن يعدمونـــنا جماعـــياً، نتمنى فرحين لو يعيدوننا إلى المعتقل، تأخذنا الأفكار المرعبة تقطع إنصاتنا له... الشيء الوحيد الذي لم يخطر ببالـــنا هو إطلاق السراح.. أسبغ علينا جميع أوصاف العظماء ثم خـــتمها بتســـميتنا (أبـــناء الملحـــة). صفق الحرس تتبعهم أيادينا المرتعشـــة. طلـــب أحد الجالسين معنا الكلام، دعوه إلى المنصة بتبجيل: (اتفضل أخونا أبو مجاهد). لم أشاهد هذا الوجه من قبل، عليه آثار النعمة لا يشبه وجوهنا الصفراء المطلية ببياض السجون كوجـــوه موتى ثلاجات حفظ الجثث. مسك الميكروفون بيده قائلاً: باســـمي واســـم كل الموقوفين والسجناء نطلب التطوع في الجيش الشعبي لمقاتلة العدو الباغي، نتوسل للقيادة السياسية التكرم بقبول طلبـــنا تكفيراً للذنوب التي ارتكبناها بحق الوطن والثورة. أول من صفق نائب الرئيس قائلاً: أود أن أسعدكم بأن القيادة السياسية قبلت طلـــبكم وهـــي إذ تحيي روحكم الوطنية الوثابة وعودتكم للصف الوطنـــي تتمـــنى عليكم التضحية بالروح. رأيت رشيد معهم، سلم علي قائلاً: الحمد لله على السلامة. أجبته في سري: الله لا يسلمك.

الحادث الآخر أضاف حلقة في مسلسل الأحزان المتلاحق عند ياســـين فـــبعد أن هُدمـــت مباني ومنشآت الطرفين بدأت معارك

الجيوش.. تعمل المصانع فيما وراء البحار بورديات كاملة على مدار اليوم، يصنعون أجيالاً جديدة من القنابل والصواريخ وأدوات الدمار، تدك باطن الأرض، تقتلع الجذور والناس من كلا الجانبين.

صوبت آلة النار قذائفها من بعيد على رؤوس الجنود، عاجزين أمام الموت لا يحميهم الهرب ولا الالتجاء إلى المخابئ ولا الرد على النار ببنادقهم.

جار ياسين الضابط الذي وعد بحمايته عاد من ثاني إجازة له كالشبح مع أنه لم يغب غير ثلاثة أسابيع قضاها في الخطوط الأمامية.. زوجته باهرة الجمال لم يمض على زواجهما غير شهرين.. أسبوع وتداركتهما الحرب.. لعلها أجمل بنات المدينة، أمها فارسية وأبوها عربي.. أنجبا بشرة فريدة ببهائها.. زوجها الشاب له صفات فارس جاءها يركب سيارة بيضاء تخيلتها الحصان الأبيض، على كتفه تلمع نجمة ذهبية فوق قماش الكاكي تأسر الفتيات.

ثار إعصار الحب يدفع أحدهما تجاه الآخر. له قصف الرعد لدى التقاء الغيوم، يشعل نيران الصواعق.. عاشا عشقهما الجارف القصير كمن يجلس داخل باص على سطحه تيار الكهرباء الصاعق.. تموت إن مددت يدك خارجه.. يتملك أحدهما الآخر، لا يسمح بنظرة عابرة لغيره.

استقبلته الزوجة بالأحضان التي لا تلتصق بسواه، أعدت له عشاء مميزاً، أعادت له تدفق الدم الحار في عروقه.

زاره ياسين، وقفا على باب الدار، لم يدع ياسين إلى الدخول، كلمه باقتضاب:

– بعد أسبوع تنتهي الدورة ولا أعلم إلى أي فوج يتم تنسيبي، اعطني رقم لواء المشاة المنتسب له.

رد الضابط بصوت خائر:

- لا أعتقد أنني سوف أحيا كي أقوم بنقلك إلى لوائي.

- الأعمار بيد الله.

صمت الضابط ثم استأذن بدخول داره.

في الصباح استبطأ أهلهما الاستيقاظ يبتسمون:

- شباب.

عند الظهيرة قرعوا عليهما الباب، وجدوه مفتوحاً، رأوه يتكوم فوقها ببدلة العرس وهي تحته مرتدية فستان عرسها وقد فارقا الحياة بطلقتين في الرأس من مسدس عسكري ملقى بينهما.

استعجل الموت كي لا يأخذه وحده وتبقى حبيبته بركاناً خامداً، ربما استطاع أحدهم أن يعيد ثورته.

أرسلوا ياسين إلى الجبهة الوسطى ذات الجبال القليلة الارتفاع والمليئة بالمغارات، أصحابهم في السهول لا يستطيعون نصب الخيام لتقيهم الحر والأمطار والرياح.. سرعان ما تصبح هدفاً للقصف البعيد.

الحاج عبد الواحد صاحب الدكان الذي فقد دكانه منذ زمن بعيد أرسلوه مع جماعته المنهكين إلى نفس قاطع ياسين، كونهم تدربوا معاً. التلال صعبة الصعود على الحاج عبد الواحد. رق لحاله الضابط، وبعثه إلى أركان اللواء في الخلف. ودع ياسين قائلاً:

- لو قُتلت في الخلف هناك من يوصل جثتي إلى الأهل.

في الجانب الآخر إلى الشرق أعاد الله تنزيل رسالاته على الضعفاء من الناس، خلقت المعجزات على الأرض كما هو شأنه إن أراد شيئاً يقول له كن فيكون، هكذا كان أن تحولت آلات النار الرهيبة بأعدادها التي لا تحصى والمصوبة لصدور هؤلاء العُزل إلى خردة حديد مرمية في ساحات السكراب.

خلق هذا الألق الإلهي سناً يجمع ما بين حرارة الشمس الساطعة، الآتية من السماء وبين رماد النار الكامن في النفوس، كلما سطعت الشمس ظهر بهاء الرسالات وكلما حجبت الغيوم أجزاء منها ازداد اشتعال النار المرادف يحرق شيئاً ما.. مرة توقد في المزابل وأخرى في الزروع.

بعث نزول الرسالات من جديد الشهداء إلى الحياة يقودون عربة التاريخ، يجردون سائقيها من سيوفهم، يعبدون الطرق للماشين خلفهم، يكسونها بطبقات سميكة من دمائهم كأن الله اختار سيدنا إسماعيل ذبيحاً ليرسله مع جمهرة الشهداء، لكن من الذي يفتدي الشهداء إذا كان عددهم يفوق عدد الأكباش على الأرض؟ لقد عشق الشهداء كأكثر الصوفيين ربهم بدرجة واحدة لا تكتمل إلا بالموت.

حدثت الحرب و هم في أشد حالات هيمانهم، ينفرون من حمل البندقية كونها تدنس طهارة الشهادة.. يحيا بينهم بأعظم من الأحياء، ينادونه بارتعاش الفؤاد والعويل والدموع، وربما لا يأخذون بثأره لكنهم لا يقبلون بأي (ديّة) ثمناً له.

في أول أيام الحرب عند الجبهة الوسطى يتقابل طريقان يؤديان إلى تلّة صغيرة في مكان ناء يتنازع عليها الطرفان، أحرقت الآلاف وكأنها بركان تأتيه الحمم من الخارج.

مكتوب في الجانب الشرقي على دليل الطريق:

- إن سرت غرباً فسوف يقودك الطريق إلى الجنة.

يقابله في الجانب الآخر ما هو مكتوب عل صدور الجنود:

- إن مشيت نحو الشرق فسيكون يومك قصيراً.

كلا الطريقين مليئ بالألغام والقذائف الملتهبة فالدخول إلى الجنة له طريق جبري يمر عبر النار.

فـــي يـــوم ممطر حجبت غيومه الرمادية الكثيفة السماء، لاحت أفـــواج النوارس البيضاء تهرول على الأرض كالطيور الصغيرة تبتغي التحليق، لا تنبت أجنحتها إلا بتمزيقها بالرصاص لتطير إلى بحارها المنشودة في ملكوت السموات، يصرخون:

- الله أكبر..

ريشـــهم الأبـــيض أكفـــان يركبون عليها لدى مماتهم كالبساط يحملهم إلى الفردوس.. كم من المعارج ستلتقيها هذه الروح بعد أن تـــنفض جســـدها المثقب بالرصاص. جاءوا دون قذيفة تسبقهم، لا يحملون شيئا غير بعض العصي يتوكأ عليها الشيوخ منهم وبعض الهدايـــا الصـــغيرة فـــي يد الفتيان حملوها من أمهاتهم.. تهيجها العوائق كهيجان المجرات لا يكتمل شكلها الجديد إلا بالتصادم.

أصـــبحوا علـــى مرمى البنادق، ياسين وأفراد لوائه ينظرون مشـــدوهين على مد الأفق لهذه الجموع القادمة تهرول في لباسها الأبيض:

- لبيك اللهم لبيك...

لم تقع تلك التلّة الصغيرة في مكة ولا كان ذلك اليوم التاسع من عـــرفة.. لكـــنه من المؤكد أن الله قد سمع ذلك النداء بحزن إذ أن إرادته دائماً أن يأخذ هو لا غيره بيد محبيه إلى السماء.

انهمـــر الرصاص يصبغ الأكفان البيضاء، تُحوّل النوارس إلى بـــط أحمـــر، تتهـــيأ أجنحته استعداداً للطيران تتبعها أفواج جديدة تتجاوزها قليلا لتسقط هي الأخرى حمراء في ميدان التلبية.

خـــزانات البنادق الممتلئة تفرغ سريعاً، يعيدون ملئها وتفرغ، أصـــابع الـــرماة المتخندقين كلّت من الضغط على الزناد.. آلاف القـــتلى العُزّل حُملوا على إصبع في ذلك اليوم الذي تصادمت فيه الدنيا والآخرة.

انهمــرت الدمــوع مــن عيون ياسين وأصحابه.. قاتلٌ يبكي ضحاياه.. أرعبهم انتحار الشهادة. ذهب الموتى إلى بارئهم تاركين الأحياء يرتجفون، يتراءى لهم الموت بتفاصيله.. انتفاضة الجسد.. آخر الكلمات تدعو الإله..

آلاف الجثث المستلقية في العراء لا تجد من يدفنها فهي الحرب الوحــيدة التــي لم يتواجد على أرض معاركها صليب أحمر ولا هلال.

هطــل المطر بغزارة يغسل الأجساد الميتة، يعيد أكفانها بيضاء كريش النورس، يصلح من لفها على الأجساد. ياسين وجنود اللواء يحلقون بهذه الطيور التي غيرت عند موتها من لونها عدة مرات والتي لم ترمهم بأي حجارة كأن الله أرسلها للسلام.

انقضـــى النهار في وجوم.. استغرق قتل هذا العدد الذي يربو على الثلاثين ألف روح ساعات قليلة، خلّف أعمق الحزن في قلوب منفذيه لكنه زرع الفزع لدى قادتهم الكبار.. كان أكبر جرس إنذار يقرع لتسمعه كل الدنيا:

- لا استسلام مهما كان حجم التضحيات.

أرســلوا ثلاثيــن ألــف رسالة مختومة بالدم دفعة واحدة لكل صندوق بريد في العالم.

توقفــت الأمطــار في الليل، الغيوم تكسو وجه السماء بطبقات كثــيفة، تضــاعف من اسوداد تلك الليلة، كتل الظلام تتراكم فوق بعــض، توقف أضواء النجوم الآتية من مجرات الفضاء السحيق، تلبس الأرض ثوب السواد حداداً على قتلاها.

ســهر ياســين تلك الليلة، الظلام من حوله كأكوام الفحم ينتظر اشــتعاله، أوقدته الشمس الحمراء.. يقطر شعاعها القاني نزيفاً في عيون الجنود المسهدة.

فــرح ياسين بالضياء يبدد عنه وحشة المكان.. اختفت الأجساد الملفوفــة بأكفانها في العراء، أخذها الظلام معه، كان مصدر راحة لياســين ألا يجد جثث القتلى أمام عينيه. طلب من الضابط السماح لـــه بـــزيارة الحـــاج عبد الواحد الذي ما زالوا يسمونه بصاحب الدكـــان، هـــذه التسمية خدمته كثيراً إذ عهدوا له بمسؤولية خزن وتوزيـــع الأرزاق العـــائدة للواء. أظهر الحاج عبد الواحد كخبير دكاكين براعة في عمله، لا تنفذ منه كميات الأكل والشرب حتى لو تأخـــر عـــنهم التمويـــن من قيادة الفرقة نتيجة لقصف القوافل في الطريق. نال عن ذلك ثناء القائد، أوصى بمعاملته أسوة بالضباط، هـــذا الـــتكريم المميـــز حـــرمه من التمتع بالإجازات الدورية، لا يســـتغنون عـــنه لعدم توفر البديل. أرسلت له عائلته أغطية شتوية تقيه البرد، أعادها لهم قائلاً:

- تحت تصرفي أغطية لواء من الجيش.

فزع الحاج عبد الواحد لمشاهدته ياسين مغبر الوجه، عيناه بلون الدم، همّ بحمله:

- جريح.. دعني أنقلك إلى الوحدة الطبية.
- كلا.. قتلنا يوم أمس خلقاً كثيراً.
- سمعنا إطلاق بنادق فقط.. كنا نظنه تدريباً على الرماية.
- من الذي يتدرب في الخطوط الأمامية؟
- قل لي ما الذي جعلك هكذا؟
- جاءونا بأكفانهم.. يهتفون باسم الله.. كيف أقتل أعزل يدعو الإله.

ضج ياسين ينتحب. وضع رأسه بين ركبتيه، اصفر وجه الحاج عـــبد الواحد، قام يغلي الشاي، قدمه بصمت لياسين، أطرق يمسك رأسه بيديه:

- تجــاوزت السبعين، لا زلت غير قادر على معرفة الفارق بيــن الفوز بالشهادة والذهاب إلى التهلكة، لكن في ظروفنا الحالية الـــتهلكة و الشهادة لهما نفس الأجر.. جميعها نفوس تذهب إلى الله رغم إرادتها.

- يا عم عبد الواحد لن ننتصر بهذه الحرب. إذا كان الأعزل قـــد تركـــنا بهـــذا الاضـــطراب فكيف يكون أثر المسلح منهم؟ لا يحســـبونها بمقياس الربح والخسارة، ربما يجدون حلاوة في مذاق الخسارة.

اقشـــعر بدن الحاج عبد الواحد الناظر بعين العجوز التي تحمل ذاكرة الزمن:

- كارثـــة يا ولدي.. لا يعلم مداها إلا الله.. ستطول يا ولدي فالشـــجاعة والتضحية وحدهما لا يهزمان قوة النار.. كلنا مقبلون على أنهار من الدماء والدموع.

واصل الحاج عبد الواحد حديثه مبتسماً:

- أنـــا خـــير واســـطة في مقر اللواء، بيدي التموين، دعني أحصـــل لـــك على أسبوع إجازة تقضيها مع زوجتك تنسيك شجن الجبهة، لا داعي للرجوع إلى مقر الفوج، نرسل نسخة من الإجازة مـــع المراسل، في المساء استقل سيارة التموين توصلك إلى أقرب بلدة.

شكر ياسين صاحبه مازحاً:

- بالأمس كنتَ مفقوداً في سجون السلطة والآن واسطة على كبار الضباط!

احتضـــنت زوجة ياسين بعلها تبكي على كتفه، حرر نفسه من قبضتها المتشبثة:

- دعيني أغتسل.. أحمل رائحة حصان إسطبل.

غمزته ملمحة:

– المرأة تحب رائحة الحصان على جسم زوجها.

جـرت المواجهات كالطقوس الدينية، تذهب القرابين إلى ربها طائعـة للذبح تصيب المشاهدين بالذعر، يفرون دون دفنها أحياناً، تُطمر في قبر جماعي واحد يمتد طوله عشرات الأمتار، لا يُنصب علـيه شاهد، مجهول. ربما خلّدوه بعد ذلك بتمثال من خيال فنان يظهـرهم منتفضـي السلاح في ملامحهم قساوة الأبطال. لا أحد سـوف يروي عن الأجساد المتلاصقة والمبتورة الأطراف المتكوم بعضـها فـوق بعـض، لكن أثرها كان أبلغ من الرواة، خلفته في الـنعرات الأثنـية المتنامـية.. في التشتت المذهبي.. في استيقاظ التعصب الذي خلناه مدفوناً منذ أيام الجاهلية. جاء بحصان امرىء القيس يحمل ليلاً ربطوا نجومه بحبال متينة إلى ظهر جبل ليس له فجـر، امـتطاه عبد الله بن رواحة يوزع فتنته ما وراء الحدود.. ثياب زاهية يختفي تحتها قاتل.. تمهد له في الإذاعات بذاءة عمرو بـن أبـي ربيعة الذي تحول في عصرنا من العهر إلى الوطنية.. يقف القعقاع وحيداً يتلفت، أنكره أصحابه، لباسه البدوي لا يتماشى مـع الموضة، يمضي نهاره بين دوائر الدولة، أنهكه روتين متابعة أمر تعيينه.

المقابـر الجماعـية... الآلة التي أرجعتنا إلى ما قبل عصور الجاهلـية.. إلى العصور الهمجية، حيث لا نجدها في كتب التاريخ الزاخـرة بالحضـارات فقط، تؤرخ للأطلال متجاهلةً عظام الناس المدفونة بجانبها.

عـاد ياسـين إلـى الجـبهة يدفعه الخوف من بنادق الشرطة العسكرية، يحصون السيارات والبيوت.. السيارات أصبحت جنوداً هاربـة من الخدمة العسكرية، يفتشون عنها الأماكن. في المعارك

الكبرى تعجز سيارات الجبهة عن حمل توابيت القتلى تماماً كما تحتاج الجيوش للاحتياط.

اشتد القصف والمطر في ذلك اليوم من أواخر الشتاء. استوقدت البرودة حديد المدافع كحاجة المقرور إلى الدفء يشعلها لتحرق بيته، يفرون عنها هاربين تلاحقهم ألسنتها داخل المغارات.

احتمى ياسين وعدد من رفاقه الجنود في جحور داخل الجبل، ابتعد أحدهم إلى داخل المغارة يتقي خطورة الشظايا المتطايرة من صخور الجبل، أشد من مقلاع الحروب البدائية.. يكتم الجبل صوت القذائف.. يأمن خوف صوتها المفزع.

صمتت المدافع فجأة عند صلاة الظهر.. يرفعون جميعاً أيديهم بالدعاء:

- اللهم انصرنا على القوم الكافرين.

أراد الضابط أن يؤمهم قائما بالصلاة. اعترض ياسين:

- سيدي.. لسنا في ميدان قتال.. نحن بين يدي الرب.. يؤمنا من يحسن الصلاة.

اختلفوا على من يحسن الصلاة.. في النهاية أقاموها فرادى.

تخلف الجندي داخل المغارة، نادوا عليه لم يجب، بحثوا عنه على ضوء كشاف، وجدوه منكفئاً على وجهه، حسبوه نائماً:

- استيقظ.. لا غرابة أن تنام فقد فطمتك أمك على حجر الرحى.

سمع أصحابه فحيحاً قرب جسد الجندي، سلطوا ضوء الكشاف، انسابت الحية مبتعدة. شَهَرَ أحدهم مسدسه مذعوراً يطلق النار عشوائياً.

لم يوقظ الصوت زميلهم النائم. حمله ياسين دامعاً إلى أركان اللواء:

- يـــا حاج عبد الواحد.. على خط النار الأول ويموت بلدغة أفعى!؟
- تعـددت الأسـباب.. ثـم إن الأفاعي هي من نثرت هذه السموم.

شكك القائد برواية ياسين:
- الجندي هارب.. عقوبة التستر مماثلة للفرار.
- سـيدي القـائد اتصـلْ لاسـلكياً بضابطنا المسؤول يؤكد روايتي، معي عدد من الجنود الشهود، انظر إلى أنياب الأفعى.
- ما أدراني أنها أنياب أفعى.
- سيدي أحاول حماية رجل ميت، كنا معاً في المغارة، اسأل الضابط.

لـو لم يتدخل الحاج عبد الواحد لربما فقدت عائلة هذا الجندي راتـبه الـتقاعدي وسيارة التويوتا بسبب غرابة موته وضيق عقل القائد.

بعـض الأرامل الشابات وجدن أزواجاً من إخواننا المصريين الذيـن توافدوا بالملايين إثر قيام السادات بزيارة إسرائيل يخففون مـن أعباء البطالة على عاتقه. بعد انتهاء الحرب عادت الزوجات أرامل مرة أخرى، لحق أزواجهن الجدد بسابقيهم تدعسهم السيارات المجهولـة علـى الطـرق الوهمية، بعضهم نفذ بجلده ليس بسبب براءته، إنما كان سعيد الحظ. قائد اللواء كان مستاء من القدر لوفاة أحـد جـنوده بغير الرصاص. في النهاية ألان الحاج عبد الواحد تصلبه، يردد على مسامع الحاج قول الرئيس:
- التضحية هي التي تصنع القائد !

علـى طـول طريق الدم الطويل المحسوب بعدد السنين برز العشـرات مـن القادة بسبب تضحياتهم، كوفئوا أيام السلام بما لا

يليق بهذه التضحيات، حردوا في بيوتهم لا يخرجون منها معتقدين أن ذلك يبعدهم عن الخطر كما ظن النمل أن بيوته ستحميه من جبروت سليمان وجنوده. جميعهم كانوا يحملون قلوباً فظة لكن بعضهم كان يملك روحاً نقية. لم يقده التعاطف مع القتلة إلى أن يكون قاتلاً فعندما تقترب الجيوش من حدود الوطن يتساوى الظالم والمظلوم في الدفاع رغم أن لوحة الاشمئزاز البغيض التي لا يمكن محو خطوطها تظل فاصلاً بينهما، فالمظلوم دائماً متعود على الهزائم، لا يمكنه الإقرار بالانتصار لذا فإن ثمن دمه يقبضه الظالم.

على الضد من حسابات الجميع، طال زمن الحرب، كل يوم إضافي يحمل معه فتكاً أشد من سابقه.. المدافع النمساوية تهدم التحصينات.. تبحث عن الأرواح المختبئة في أوجار الذئاب.

علقت زوجة ياسين على رقبته تميمة قائلة:

- لأول مرة أطلبها من أجل راشد.. كنت أسأل (الملا) عمل التمائم للصغار فقط.

- من أجل الحظ؟ أتعلمين أن هذه التميمة هدف لإطلاق النار؟

- كفاك الله شر النار.

- سُلّم الحياة الذي أستعد لارتقائه عال وغير مستو. تحته وفوقه لا أرى غير النار.. أدخله دون عدة الإطفاء! من الصعب الخروج منه بمستقبل.

- ما يبدو لك مستحيلاً هو عند الله ممكن.. حافظ على التميمة.

- آمنت بالله.. في مخيلتي صور الجنود تحمّصهم النيران، يقفزون كحبات الفاصوليا.

- ليس هناك شيء أسوأ من فقدان الأمل.. أنت كالجدات ينتظرن أن نقع في ورطة.

- رحم الله الجدات.. فعندما يتعلق الأمر بالأرواح كلنا نذهب إلى المشعوذين.

طوقت امرأة ياسين زوجها:

- الكتاب وليس المشعوذون من نقل عرش بلقيس قبل أن ترمش الجفون.

زُرعت الألغام على طول الجبهة فالذي تقتله الألغام يحمل شعوراً بالذنب أقل من الذي تقتله برصاص بندقيتك.

تسابق الكثير نحو تلك الحقول التي لا ينبت زرع على أرضها كأنها خط نهاية الجائزة الكبرى لماراثون حياتهم. متسابقوها من الشيوخ العجائز والأطفال الصغار العنيدين، تفوقوا على الشباب في عزيمتهم، كانوا أقوى مما نظن، يلقون بأنفسهم على شراك الموت. من ينفذ منهم إلى الجانب الآخر يؤخذ أسيراً، يبكي، ليس خوف القبض عليه إنما حزناً لعدم موته، يعبّد الطرق بإسفلت دمائه لمرور الدبابة، حديدها أثمن من حياته.

في الجانب الآخر يقف أيضاً الشيوخ العجائز مثل الحاج عبد الواحد وأطفال دون السادسة عشرة مساقين للجبهة، يمسكون البنادق. لكن مشاعر الطرفين تختلف تماماً، فالذي يفتش عن الألغام بقدميه غير الذي يحتمي بالبنادق. يشتركون بميزة واحدة كون الطرفين فصيلة مهددة بالانقراض.

عبروا الكثير من مقاطعات حقول الألغام التي ليس لها خرائط مواقع. الطائرات والمدافع والدبابات ظلت تضرب سنينا ثم أدركوا أن ضرب الناس لا يجعل المرء صلباً بقدر ما يحيله ضعيفاً، عندها راحوا يفتشون عن أية صفقة توصلهم إلى السكون.

استقروا زمناً قليلاً في قصورهم ثم أعلنوا أن القصور تدعو للضجر.

طهرت الأجساد السهول من العوائق تعدها لمبارزة الدبابات.. التحم الفولاذ سيئ الأداء.. يمتطيها الراكبون كالبغال لا يعطون متعة الاستعراض.

أعدم عدد من قادة الدبابات لوقوعهم في مشاهد دراماتيكية.

توغلوا بها في السهول المنبسطة كسيارات (الجيب) نحو بيوت القرويين في الجانب الآخر، يفطرون عندهم على البيض والخبز متجنبين الالتحام المباشر مع خطوط الدفاع القوية إلى الشرق منهم. فلاحو القرية تجمعوا في الصباح الباكر كعادتهم عند سدود المياه البعيدة نسبياً عن بيوتهم، يحجز ماؤها المحبوس ذو المنسوب العالي نواظم قوية تعيق تدفقه وإغراق ما تحته، يفتحون بوابات المياه قدر الحاجة.

شاهدوا الدبابات تدخل بيوتهم فالجار عندما يصبح عدواً يوقع أشد الضرر، لا سيما أنهم جميعاً يلبسون الكاكي مثل أكفان المومياء العفنة، يدفنون به كشاهد على موت الخزي الذي لم تدفعه شجاعة.

لاح أولاد الفلاحين يجرون لاهثين، أخبروهم باحتلال القوات المناوئة لأهاليهم. فتح الفلاحون بوابات المياه تنطلق كسيول الأعاصير تجرف ما يقابلها. حملت النساء أطفالهن يركبن على أي شيء عائم، يحضن في الماء حد الرقبة. غمرت المياه الدبابات توقف حركتها. غادرها أصحابها عائدين يتسابقون مع طوفان سيدنا نوح الذي لم يترك سفينة حتى ولو لحفنة من المؤمنين.

هزم تفكير الفلاحين البدائي خطط العسكريين المحترفين فالأرض دائما تجد من يحميها ولو أرسلت (القمل) على الغزاة.

نـــال عدد من الفلاحين الأميين أنواط النصر عند سدود المياه فيما أعدم قادة الدبابات الميدانيين فوراً.

من مغارته على المرتفع شاهد ياسين المياه تغمر السهول على مد الأفق.. الضباط والجنود يركبون على الأخشاب العائمة تقودهم إلـــى النجاة بأفضل من دباباتهم، فيضان صامت لا يتخلله صراخ الــرجال لإنقـــاذ حاجياتهم من الغرق.. كل ما عندهم غطس إلى القرار دفعة واحدة.

أوقــف المـــاء إطـــلاق الـــنار لحيـــن تغيير إحداثيات المدافع النمساوية.

أعلموني أن ياسين عاد من الجبهة يسأل عني، استغربت عودته السريعة، زرته في البيت وقبل السلام سألته:

- هربت من الجبهة؟

- كـــلا.. أيـــن أذهب؟ البلد كلها جبهة، أسوأها المؤخرة، في الأمام لديك فرصة للنجاة، ربما تخطئك الرصاصة، أما في الخلف فتكون قريبة منك جداً، إصابتها مؤكدة.

- الله يطول في عمرك ويحفظك.

- الله غير راض عما يحصل.. لم تشرح لنا الشرائع واجباتنا فـــي مـــثل هذه الأمور.. الفراعنة لا يربون وليداً.. يجلسون على عروشهم العالية تعصمهم من الطوفان.. نحن المساكين من يغرق في اليم كل يوم، لا نجد من يفرق لنا البحر بعصا.. نراها بدلاً من ذلك تنزل على هاماتنا.

- أخبرنـــي عـــن سبب عودتك من الجبهة.. لا أراك فرحاً بالإجازة كعادتك، تراني بعد يومين من مكوثك مع أم العيال.

واصلت حديثي استفزه:

- منحوك إجازة لقتلك عدداً من الجانب الآخر.

- عبد القادر.. عقلي يتخلى عني، الآن فهمت دوافع جاري الضابط المنتحر.

- تقره على ما قام به!؟

- نعم.

- تريد أن تنتحر مثله؟!

- كلا.

- نعم وكلا لم أفهم!

- أحمد الله إني إلى الآن لم أقتل أحداً.

- ما أدراك أني يستقر الطلق الليلي؟

- أرفع فوهة بندقيتي إلى الأعلى.

- ما لك تتخبط هكذا مع أن ضميرك لم يُثقل بعد بقتيل؟

- جاري الضابط أراد الخلاص.. كان أنانياً في موته.. أخذ زوجته معه لكي لا يتزوجها غيره.

- يبدو لي أنك تريد الخلاص مثله.

- أنا أبحث عن الخلاص لذا جئت أستشيرك.

- أستطيع تهريبك إلى كردستان لكنهم يقبضون على عائلة الجندي الهارب.. زوجتك أم لثلاثة أطفال وأبواك شيخان.

- أنا جندي بسيط، لست خريج أكاديمية عسكرية.. الأمور في الجبهة من الجانبين لا تجري على أساس الكر والفر أو الربح والخسارة، الانسحاب الذي يجنبك الخسائر غبر مسموح به.. ضباطنا يقولون إن ما يجري عراك قبائل بدوية تشهر السيوف.. نخاف أن تطول كالبسوس وداحس والغبراء.

- أراك محاصراً بالأفكار.

- محاصر بالفعل.. إذا ما حوصر الإنسان إما يهاجم وإما يؤذي نفسه.

- اخترت أن تؤذي نفسك؟

- داخــل الخــنادق يتحدث رفاقي الجنود عن المشاعر غير واثقين أنها ستصل أبعد من ذلك.

- حدث لك شيء غريب. لم كل هذا الإحباط؟

- إنها الحرب.. لا تلبس غير السواد للروح والجسم.

- عليك أن تتعامل مع الأحداث القاسية بواقعية.

- أي واقعــية التي تتحدث عنها؟ سأطلعك على لوحة واحدة بــثلاثة أشكال.. بعد أن رجعت منكم شاهدت طوفان نوح.. صباح أمس نقلوني إلى القاطع الجنوبي حيث ينهمر الجحيم، يجفف باطن الأرض. أركــان اللــواء الجديد مشغولة بإحصاء القتلى، استلموا ورقــة نقلي، دونوني بالسجل ثم أرجعوني أحمل تابوتين مكشوفين مع جريح ينزف في عربة عسكرية.. أحد القتلى كتب عنوان بيته علـــى بطنه قبل أن يموت! الآخر وجدته قتيلاً وفي رجليه خلخال ذهب، نزعته بصعوبة من ساقيه المتورمتين.. لففته بقطعة قماش، أدخلــته في جيب بنطاله.. الجريح اطمأن لي في الطريق، أخبرني أنـــه مـــن أطلق النار على نفسه.. تقرير الوحدة الطبية في الجبهة يوصـــي بنقله سريعاً إلى المستشفى العسكري لبتر ساقه!.. أتسمي هذه أحداثاً قاسية فقط! علي أن أتعامل معها بواقعية!

- حيرتنـــي أنـــا الآخر.. لا أنصحك بالهروب ولا بالقتال.. أفضل الخيارات أن تكون ضحية.

ابتسم ياسين:

- أنت متى تكون ضحية؟

- إلـــى الآن نحن المدرسين لا يرسلوننا إلى الجبهة، يقومون بتدريبـــنا على السلاح، ربما يرسلوننا في العطلة الصيفية. لكن لا أنوي الذهاب إلى القتال.

- يعدمونك.. تنوي الالتحاق بأصدقائك في كردستان؟
- أنوي الهجرة.
- إلى سوريا.
- ربما إلى ما هو أبعد.
- يلاحقون عائلتك.
- عائلتي تتشاجر معي يومياً.. يصرون على رحيلي فوراً. علموا أن رشيد يتربص بي، تأتيني تلفونات مجهولة منتصف الليل بعضها يشتم ويسب وبعضها يهدد. منذ أسبوع تلفن أحدهم عند الفجر وقال بصوت خافت: اهرب، رشيد يقول إنه سيلحقك قريباً بأصدقائك الراحلين، اهرب الآن. أجبته ليس الآن لا تقلق سأسبقهم طالما وجدت من يهمس لي آخر الليل.

في ربيع ذلك العام تغيرت موازين الجبهة.. ذلك الميزان الذي قليلا ما يستقر.. ينقلب ميله ذات الغرب وذات الشرق كلما أضيف صاروخ أو طائرة أو دبابة لكفة من كفتيه. في الربيع تورق النباتات غضة كرؤوس الشباب المرسلين إلى الجبهة، يحصدهم أصغر منجل.. أيامه الجميلة موعد للقتل الجماعي مثل أيام تنزيلات البضائع الكبرى.

على الجانبين ينتشر المعاقون مهملين إلا من المسابقات الرياضية في دورات المعاقين الدولية، ينظرون بحسد إلى آلاف الدبابات المعاقة التي يجلبون لها قطع الغيار المشحونة بالطائرات من أبعد مناطق الأرض.. لا أحد يهديهم حتى عجلة كرسي.

مالت الكفة لصالح الشرق بعد أن توقف إرسالهم للنوارس البيضاء تسحق الألغام بأقدامها الضعيفة، أيقنوا أن الحرب خدعة، يكسبها من كان كيده عظيماً. ولما كان المؤمنون أتباع الله فإن

الشيطان يدور حولهم، يبتغي غوايتهم، تجده دائماً بالقرب منهم، فإذا أرادوا استعمال المكيدة استعاروها من الشيطان.

في ذلك الربيع حدثت واحدة من أكبر المعارك، أنفق فيها الطرفان ما لديهما من أموال لشراء أضخم آلات الدمار الرهيبة، بعضهم طلب المشورة من أعداء الأمس.. ألغوا إجازات الجنود، طلبوهم بالإذاعات للالتحاق بوحداتهم العسكرية.. جرى القتال على طول الجبهات للتمويه لكن الحشد الأكبر يجري على جبهة الجنوب، كل منهما يعرف نوايا الآخر فالأقمار الصناعية تكشف النوايا خصوصاً إذا كانت بدائية.. ترسل تقاريرها لهم من نسختين.

عند اندلاع المعركة الكبرى كان ياسين في إجازة، اضطر لقطعها، وصل بعد يومين بسبب تعذر المواصلات لأركان اللواء. في الخلف رأى أعدادا كبيرة من الجرحى ومعهم أعداد كبيرة أيضاً من الأحياء مقيدين. أمروه أن يقف على حراستهم مع عدد من الحراس. عاد آمر اللواء يحمل منظاراً كبيراً يتلفت صوب الشرق، يطل بمنظاره.. تتغير ملامحه.. رافقه شخص يرتدي البدلة الزيتوني بلا رتبة، وقف هذا الشخص على رأس جندي مقيد صارخاً:

- جبان.. هارب.

آمر اللواء متجهم ينظر بشيء من الخوف و الاحتقار لصاحب البدلة الزيتوني المتمنطق بمسدسين، أجابه الجندي:

- حملت جريحاً على ظهري، لو لم أفعل ذلك لمات.. القتال لا يزال مستمراً أعدني إلى الجبهة أقاتل حتى الموت.

- لو حمل كل جندي رفيقه الجريح وعاد إلى الخلف لخلت الجبهة من الجيش.. اصمد وقاتل أولا وبعده أسعف رفيقك.

- لا يوجد بعدها.. دمه يتدفق كالمضخات، يرقد الآن معافى، اسأل الطبيب أولا ثم اعدمني.

رد بغضب:

- أعدمك أولا ثم أسأل الطبيب.

أجابه الجندي وهو يرى نعومة جسم محدثه:

- هل خضت قتالاً من قبل يا سيدي!

سحب رجل المخابرات مسدسه سريعا أطلقه على رأس الجندي أمام قائد اللواء الصامت الذي أنزل المنظار ولم يعد ينظر صوب الشرق.

تمادى رجل المخابرات بالسب و الشتم على الجنود المقيدين، يتلفتون نحو قائدهم:

- سيدي.. أخبره أن السواتر أمامنا تهدمت من شدة القصف.. لم نتراجع أمام جنود مثلنا.

قائد اللواء جالس على الكرسي دونما حراك كأنه غاب عن الحياة. إن تكلم سيمثل به قبل موته. نهض يتأبط ذراع رجل المخابرات، اختلى به بعيداً. صوت القائد خفيض لا يسمعه الجنود المتعلقون بشفاهه بينما صوت الآخر يعلو بالصراخ. استغرق حديثهما نصف ساعة في نهايته اقترب آمر اللواء يقبل رجل المخابرات، يستعطفه..

انتفض يدفع الآمر بعيداً:

- كلا.. كلا.. يجب أن يكونوا عبرة لغيرهم.

رفض الجنود الوقوف صفاً لإعدامهم الفوري، طلبوا محاكمة عسكرية. هزأ منهم:

- الأحكام العرفية تبيح الإعدام بلا محاكمة.

كـــان ضــــابط المخابرات يحمل كل الصلاحيات العائدة للقتل.. يســـتوي عـــنده الجندي والجنرال.. أينما ذهب في طريقه السالك خلف الجبهات يترك وراءه رائحة الضباع.

أمـــر أفـــراد مفـــرزته من منتسبي المخابرات أن يستعدوا لإطلاق النار على الجنود الجالسين على الأرض.

انســـحب ياســـين يقـــف خلـــف قـــائد اللواء. صاح به رجل المخابرات:

- عد إلى مكانك.. تهيأ لإطلاق النار.

رد ياسين:

- تقصدني.. سيدي.
- نعم.. شارك بإطلاق النار على الجبناء.
- يا سيدي.. أنا لست من فرق الإعدام.
- اعتبر هذا أمراً.

نظر ياسين إلى قائده:

- سيدي.. ليس من واجبي رمي رفاقي.

قاطعه المخابراتي:

- اصطف مع جنودي.. صوّب نحو الهدف.

رد ياسين بحزم:

- أوامري من القائد.. هكذا العسكرية.

تدخل القائد الصموت بازدراء:

- لمـــاذا تصـــر على مشاركة الجندي ياسين؟ لديك ما يكفي لإعدام فرقة.

عكف رجل المخابرات يشرح بإسهاب وكأن القائد تلميذ صغير فائدة إطلاق ياسين النار على زملائه كي يقسو بعدها قلبه ولا يعود يلين لأحد، ختمها:

- ممـــنوع الرفق بأحد.. ممنوع الشفاعة.. إن ظفروا بنا لن يرحمونا.

رد القائد:

- من الذي لا يرحمك؟ الجنود المساكين!
- الأعداء.. الأعداء.
- من هم؟
- كـــل مـــن نشـــك به لا نعطيه فرصة التآمر.. نسبقه قبل التنفيذ.
- أناشدك بالشرف والمروءة أن تترك هذا الجندي البسيط.
- ســيادة القــائد.. لا تــتدخل بغير عملك.. تكفيك متاعب الجبهة،لا سيما أن أغلب الجنود المزمع إعدامهم اليوم من لوائك.. مـــع ذلك لا مانع عندي لو أردت أن أرفع كتاباً بما تطلبه للمراجع العليا.

خفض القائد رأسه صاغراً:

أردت هذا الحديث بيني وبينك فقط.

بعـــد إذعـــان القائد لأوامر رجل المخابرات أوقع بيد ياسين.. تذكـــر عائلـــته.. أمامه جنود مقيدون يتطلعون إلى فوهات البنادق المصوبة نحوهم وخلفه فوهات أخرى مصوبة نحو الرماة.

كـــاد أن يقـــع مـــن شدة الإعياء لولا أن رأى شبح عبد القادر يكلمه:

- لا تـــريد الفـــرار ولا أن تصبح قاتلاً.. خيارك الوحيد أن تكون الضحية.

صاح رجل المخابرات:

- تهيأ.. سدد.

صـــوبت البنادقٍ نحو رؤوس الجنود الجالسين إلا بندقية ياسين يتكـــئ علــيها واقفاً. نظر رجل المخابرات خلف ياسين هز رأسه بإشارة، صرخ:

- إطلق.

ومضـــت أصوات النيران من الأمام.. طلقة واحدة جاءت من الخلــف تستقر فٍي رأس ياسين.. مات واقفاً.. قبل أن يسقط على الأرض..محتضناً في موته بندقيته التي كرهها في حياته.

اســتلم والـــد ياسين جثة ولده من مركز المحافظة. أمروه ألا يعمل عزاء وإلا تعرض للعقاب الصارم. أجابهم العجوز:

- هل عندكم عقاب مخفف وعقاب صارم!

رافقه رٍجل أمن.. دفنوه دون تشييع في أحد مراقد الأولياء الذي كـــان يوماً ما قتيلاً مثله. رابط عدد من رجال الأمن أمام بيته في المدينة خشية أن يقيم عزاء.

قفـــل والـــد ياســين بابه، استأجر باصاً كبيراً قاصداً القرية.. اســتقبله أهالــيها بـــالدموع يتقدمهم أولاد الإقطاعي جاعلين من (مضيفهم) الكبير محلاً للعزاء.

التحقـــت بعائلـــة ياسين.. كنت متوتراً، ظهرت بعض الجوانب الســلبية في سلوكي كادت تؤدي بي إلى الهلاك فالتحكم بالمشاعر فـــي الأوقـــات الحـــرجة أصعب من التحكم في النيران والمياه.. أصيح عالياً:

- علي اللعنة إذا لم أصرخ وإذا صرخت.

غـــاب صوت الضحك من المنازل.. تبرز عدد السنين الحزينة علـــى وجه والد ياسين وأمثاله كحلقات متيبسة على جذع شجرة.. أما الأرض فقد وجدتها جافة تفكر بالصيف دائماً.. الشباب الصغار الذيـــن لم تطالهم العسكرية بعد ولم تسوقهم مفارز الجيش الشعبي

لـبعدهم عـن المدينة يجلسون بصحة جيدة، لكنهم يفكرون بحياة عاجـز حيـث تغـير ماء الفرات من لونه الأرجواني إلى بياض المـوت.. بقائـي في القرية أياماً خفف من حزني.. أحب الأماكن التي تبقينا أطفالا.. أود لو أعوم بماء النهر أسترجع متعة السباحة به.. يبعث بي شعوراً مشابها للعوم في الفضاء.. تطفو دون أيدي تـرفعك.. انطبعت القرية في عقلي وقلبي صورة تنبض.. ظللت أحلم بها طوال حياتي.

فـي المضيف عكفت على قراءة القرآن الذي هو كالخاتمة لكل حياة إنسان ينبئ بالحكمة والصبر.. انتهى مسلسل العناء والحزن.. ذهب هذا المظلوم إلى ربه... رُفع عنه القصاص.

ختم شيخ الدين دعاءه بآية من القرآن الكريم:

(ربـنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصـرا كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لـنا بـه واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين)

تلفتـت الوجـوه عـند ذكر (القوم الكافرين). جاري الجالس بجانبي مال ناحيتي:

– القـوم الكافرين؟ سامح الله الشيخ. لماذا لم يقرأ الآية التي توصي بإطاعة ولي الأمر؟

أجبته معترضاً:

– إنها آية قرآنية.. تريد الانتقاء من القرآن، عندها نصل إلى (ولا تقربوا الصلاة) خوفاً من بطش السكارى.

خجل الرجل من جبنه وهو في حضرة الموت، مال ناحيتي مرة أخرى:

- نحب أولادنا حتى لو أثاروا جنوننا بالاستلقاء على الفراش بـدلا من الذهاب مبكرين إلى الحقول.. ما هو ثمن حياتهم مقابل سـمعة رجل سيئ؟ لا يحبون أن يصبحوا فلاحين مثلنا.. أعتبرهم محظوظيـن لو منحوا نفس الفرصة.. يبتعدون بها على الأقل عن مشاهدة الوجوه القبيحة المملة.. حديثنا معهم يسمعونه كوخز الإبر الطبية لا أحد يرغبها رغم فائدتها.

التقيـت بعـد العزاء سراً بأحد أولاد الشيخ طاهر الهارب من العسكرية والمحتمي عند أولاد الإقطاعي، قلت في سري:

- يا لله.. التاريخ يعيد نفسه عدة مرات.

جمـيع أهالـي القـرية يعلمون بوجوده.. يدعونه على الولائم دوريـا..أخفوه أيام العزاء لتوافد الكثير من ناس المدينة.. بعض الوجـوه الغريـبة جديـدة لا نشـاهدها فـي سـيارات الأمـن (اللاندكروزر).

بعـض أهالي القتلى من المدينة الذين لم يتسن لهم إقامة عزاء بسـبب المـنع مـن الحكومة أتوا بسيارات مستأجرة مع عوائلهم يجلـبون معهـم الذبـائح.. توصي نسائهم الندابات بذكر أولادهن القتلى حيث يقمن بتقطيع أنفسهن لطماً وعويلاً.

مكثـت بعد العزاء عدة أيام أشد من أزر ابن الشيخ طاهر كما فعلت سابقا مع والده.

بث لي همومه:

- لو أماتني الله لارتحت من سقمي.. خوفي أعظم على حياة من يتستر علي.

قـبل حديثـي معه أعلمني أكبر أولاد الإقطاعي أن ابن الشيخ طاهـر لـو رغب بتهريبه خارج الحدود فإنه سيتكفل بذلك، لكنه يخجـل من مفاتحته لئلا يظن أنهم متثاقلون من ضيافته. أيقنت أن

المكـــان يفرض طقوسه فالقروي وساكن الصحراء البدوي يملكان أصـــالة الأخلاق من الشهامة والكرم ونصرة الضعيف طالما بقيا ساكني القرية والصحارى، يتخليان عنها عند سكنهما المدن.

أسررت للفتى:

- لـــيس أســـهل من التيه في الصحارى.. يأخذك الدليل حبة رمل بين الكثبان.. تحملها الريح إلى بلد آخر.. الصحراء كالجبال تخفي الهاربين.

- يا ليت.

- كـــل شـــيء جاهـــز للتيه.. لكنني لا أضمن لك العودة بعد أربعين سنة.

رجعـــت إلى المدينة لألاقي نبأ سيئا آخر خالفني به بعض من الأصـــدقاء، اعتـــبروه نـــبأ طيباً.. وقع الحاج عبد الواحد صاحب الدكان في الأسر.. التف حولهم مناوئوهم من الخلف، أسروا أركان اللـــواء مع القائد والمؤونة كأن النار تفتح من شهية مصطليها فما أن تهدأ قليلا إلا وحتى بحث كل واحد عن الطعام.

ســـمعنا الحـــاج عبد الواحد يسلم على عائلته عبر الراديو.. لا يـــبدو عليه الاضطراب.. يتهرب من أسئلة المذيع بلباقة.. لم يشتم أحداً حتى الذين آذوه طويلاً.

ودعت أهل القرية أشد على يد فرحان السليمة مازحاً:

- كلانا نفذ من استدعاءات العسكرية، أنت بعاهتك وأنا بمهنة التدريس.. يا لها من عاهة تمكنني من العيش.

أجاب دون أن يبتسم:

- غـــدا الفحـــص الســـنوي للعسكرية.. اللجنة الطبية تعتمد عاهتـــي كل سنة.. سألتهم لماذا سنة واحدة؟ هل ستبرأ عاهتي في العام القادم؟

صمت ثم أضاف:

- لا أعتبر ذكرك لهذا الآن فألا حسناً.

اقتربــت الجــبهات مــن الحــدود تتداخل، كل طرف يصيح بأصحابه:

- اقتلوني ومالك.

خلــت هــذه الحرب طوال قيامها من معنى، ابتدأت بلا أهداف تعــرض مشاهد للقتل الجماعي، ولما كان الله قد خلق النار شرهة لا يمــتلىء جوفها فإنها تطالب دائما بالمزيد.. تستمرئ وقود بني آدم، فمــا بيــن لحمــه وعظامــه ودمائه حطب سريع الاشتعال مخصــص لمواقــد قصــور النخبة فالجبهة أخذت تطلب أنصاف الرجال.

نودي على فرحان:

- اسمك.

- فرحان زغيّر.

نــاول رئــيس اللجــنة الطبية لفرحان أوراقه، قرأ تقييم اللجنة بالخط الأحمر:

(سالم مسلحٍ)

اعترض مستفهما:

- كــيف أكون سالم البنية، جاهزاً لحمل السلاح ويدي اليمنى معطوبة!

كشف لهم ذراع يده الأعضب أضاف:

- هذه اليد لا تصلح حتى لمدفع الإفطار!

حدق به رئيس اللجنة الهرم:

- اســتمع يــا بنــي، لــن نعفيك هذه المرة، الأوامر هكذا.. القوانيــن تحــرقها الحــروب... قبل دخولك تداولنا الأمر، أمامنا

خيار ان: إما نعتمدك (سالم غير مسلح) وهذه أقرب إلى وضعك حيث أنك تستطيع أن تقوم بأعمال بسيطة كناطور دون سلاح، ثم ارتأينا أن نجعلك (سالم مسلح) كي تحصل على بندقية تخيف بها من يراك!

شكك فرحان بنواياهم:

- (سالم مسلح)! يعني جندي كغيري من الأصحاء، لا يمنع الضابط من إرسالي إلى الخط الأول.

أجابه الطبيب بلهجة الأمر:

- انصرف.

مر بي فرحان مكفهر الوجه. قال معاتباً وكأني من أمر بسوقه إلى العسكرية:

- عبد القادر.. من يوم رؤياك تشاءمت.

أوقع سوء الحظ الدليل الذي وافق على تهريب ابن الشيخ طاهر عبر الصحراء في قبضة رجال الأمن. قام بتهريب سكاير أجنبية أوصلها لشريكه ممول الصفقة، اختلفا على تقاسم الأرباح، تشابكا بالأيدي، قبض عليهما رجال الأمن.. علقوهما على المراوح ثم أبقوهما عدة أيام يتناوب على أرجلهما وظهورهما (الكيروان) والعصي المطاطية.

اعترفا بتفاصيل كل شيء.

الممول شريك الدليل خرج من المعتقل، أحال نسبة الدليل من الأرباح لرجال الأمن.

أدخل اعتقال الدليل الخوف المريع في نفس ابن الشيخ طاهر خشية اعتراف الدليل بنيته في تهريبه، فالنوايا وإن ظلت حبيسة النفس كافية لإنزال العقاب.

أخبر مضيفيه نيته المغادرة حالاً:

- أفضل الهجرة إلى الخارج لكن الوقت يسابقنا، ربما كبسونا في أي لحظة.. علي أن أغادر إلى الأهوار، عيشها شاق على أبناء المدن.

تــنكر ابــن الشــيخ يقــوده اثنان من المسلحين إلى مشارف الأهوار.. مدن مائية إلى نهاية الأفق.. تنفتح و تنغلق على بوابات القصب والبردي، شوارعها المائية تنساب فوقها الزوارق الصغيرة أبهى من أنهار (فينسيا)، تنتشر الأزهار على الجوانب وفي القاع.

وصــل ابن الشيخ طاهر في الصباح الباكر، رحبوا به بحفاوة، أخــذوه في جولة، سحره هذا المنظر الخلاب كأنه ملتقيٍ للعشاق. عجــب من إهمال السياحة لمكان رائع كهذا أصبح ملاذاً للهاربين مــن الخدمــة العســكرية والمعارضــين السياســيين وحفنة من المجرمين.

انقلب نهار الأهوار الجميل عند حلول الظلام إلى غول ليلي.. (البق) أضعف حشرات الأهوار وأكثرها إزعاجاً، يخترق الملابس و الأغطــية، يلســع الجسد بشدة خيزران رجال الأمن. أصوات الضــفادع وأخرى مجهولة تسيب الخوف لسامعها. كثافة القصب والــبردي وعلــوه تحجــب الأضواء عدا لمعان النجوم.. تغادرك الأســماك والطيور زينة النهارات وطعامها.. الخوف المرتقب من مواجهة خنزير بري حتى لو لم تصادفه.

تــألم ابــن الشيخ حد البكاء من لسع (البق) يأتونه من حيث لا يــراهم، يسلكون طرق الشيطان وأعوانه. قضى أطول ليل عرفه ساهراً.

دعاه مضيفه للإفطار ولاحظ احمرار عينيه:

- بعــد أيــام تعــتاد علــى ذلك.. ستستيقظ إذا توقف طنين الحشرات!

صاحب البيت يفتح صدره المسمر. من خليط الشمس والرطوبة ولسع الحشرات يكتسب درعاً خفيفة من الجلد يقيه اللدغ.

شيدت الأهوار حولها سوراً طبيعياً من القصب والبردي الكثيف يفصلها عن الأرض التي تحاصرها من جميع الجهات.

الأرض بدورها تبدو هدفاً مكشوفاً لقناصة الأهوار المتمرسين. كمائـــن المــياه أعاقت تقدم الدبابات للقضاء على المختبئين مثلما حمى الجبل الفارين له. تواصل الجبل مع الأهوار يرسل ثلوجه في رحلة طويلة تستقر عند مصبات الأهوار لتذود عن أهاليها، موهناً كيد السلطات في تلاحم أبدي لوحدة الشمال والجنوب.

الحوامـــات تبــث الرعب في الطيور والأسماك مثلما تفعل في ســماء كردســتان. تغــوص الأســماك مختبئة في شباك القصب والبردي.. الطيور المذعورة تلاحقها الحوامات كالعقبان الجارحة، يطلق عليها الطيار زخات من مدفعه الرشاش غاضباً إذ أنها أفقدته عــددا من الصواريخ قبل طيرانها، تحرك القصب للحظات خالها الطيار كميناً لمعارضي السلطة.

مكــث فرحان ثلاثة أسابيع يقشر البصل والبطاطا في مطابخ ثكــنات التدريــب. آخر يوم الدورة اصطف مع جماعته، سلموهم أوامــر التنســيب يــوم الخميس. كان هذا اليوم مخصصاً للأفكار الهامة والعطل الممتعة، أمروهم:

- السبت موعد نهائي لالتحاقكم بالوحدات.

مــر بـــي فرحان، استمع إلى موسيقى (الدانوب الأزرق) أذنه القروية لم تألفها، قال:

- لمـــاذا تستمع إلى موسيقى الكنائس؟ يقرعونها للأموات.. تتنبأ بنهايتي.

- لا تتشاءم هكذا.. تريد أن تعمل عزاءك وأنت حي.. لنستمع للموسيقى بدل النواح فهي أشهى لسلام الروح.

- عبد القادر.. حفظنا تأويلك للحرية التي تأتي بها التضحيات، الآن زاغت قلوبنا عن ذلك، ما لهذه الحرية لا تعبد طريقها الدماء المفروشة بأكثر من طبقات القار؟

- أين أرسلوك؟

- إلى فرقة المشاة الثالثة في أقصى الجنوب حيث يستوي الرطب والناس على عين الشمس.

تقع فرقة المشاة الثالثة في أسفل درجات الجحيم.. إما أن تكون رأس حربة للهجوم وإما درعاً تقطعها حراب الهجوم المضاد.

قدم فرحان أمر تنسيبه إلى (قلم الفرقة). أشار له العريف (عبد الزهرة) سكرتير القلم ليتبعه إلى (مشجب) السلاح، سلمه لوازمه، لاحظ العريف غرابة صاحبه:

- أشول! تمسك البندقية بيدك اليسرى.

- يدي اليمنى معطوبة.

- تستطيع الرمي بها؟

- منذ حادثة يدي أمسك عصا راع.

- في هذه الفرقة تلتحم الخطوط الأمامية بالخلفية، احتفظ بالبندقية علّها تنفعك.

خلال الحديث يجفل فرحان لشدة القصف، العريف عبد الزهرة غير مبال كأنها ألعاب نارية.

بعد صلاة العشاء رعدت الدنيا.. أرسل برقها سيولاً من نار يتبعها المشاة من الجانب الآخر كأن الدعاء بعد الصلاة يقود إلى جهنم.

طوقت الفرقة الثالثة بحلقات النار. أمروهم بالخروج من الخنادق والجلوس على الأرض على أن يمسك كل عسكري ببندقيته.

أسند فرحان بندقيته التي قادته إلى هذا المصير في درب الأسرى الطويل، لا يعرف له نهاية.. عناءه يتجدد مثل محكوم تنتهي مدة سجنه ثم تعاد مرات ومرات.

دخل عليهم الجنود من مناوئيهم يتحسسون بنادق فرحان وأصحابه الأسرى. عزلوهم فريقين.. ذهب العريف عبد الزهرة مع الفريق الآخر ينفصل عن فرحان. قبلها انحنى جندي يمسك بفوهة بندقية فرحان قال له بلغة سليمة:

– بندقيتك باردة.

أجابه فرحان:

– لم أطلق منها النار.

أركبوهم في باصات مكشوفة ينقلونهم إلى الخلف. السماء جميلة تعطي يوماً رائعاً للموت. إلى جانبهم تسير باصات أخرى تلتقط الجثث الملقاة على الطرقات، بعضها أحرقته سيول النار المستوردة بالديون ذات الفوائد الكبيرة. رهن كلا الطرفين أراضيهم لبقاء اشتعال النيران، ربما غداً يأمرهم المرابون:

– ارحلوا.. أنتم لا تملكون هذه الأرض.

أنزلوهم من الباصات في مخيم كبير. جاءهم مراسل الإذاعة:

– اتحب اتسلم على أهلك؟

– نعم.. أسلم على والدي ووالدتي وإخواني وزوجتي وأطفالي.. أوصيكم بالاهتمام في العيال أمانة الله ورسوله.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

مســاحة المعــتقل واســعة جداً لكن أسواره العالية والأسلاك الشــائكة على أعلى السور وأبوابه المغلقة تنبئك أنه ضيق جداً.. استيقاظ صلاة الفجر القسري لأناس سهروا معظم الليل، ثقيل على العيون إلا أن القلب سرعان ما يتفتح بالدعاء:

(اللهم فرّج عنا يا الله.. اللهم رد كل أسير إلى أهله)

يتكرر ذلك في كل شروق صبح عسى أن يكون جديداً.

أصــحابهم ممن سبقوهم في الأسر يبحلقون بهم كل يبحث في وجوه الجدد عن قريب أو معرفة. انبعث صوت:

- فرحان.. الحمد لله على السلامة.

أعاد هذا الصوت فرحان إلى الحياة، احتضنه يبكي فرحاً كأنما أطلقوا سراحه:

- الحاج عبد الواحد!.. أطال الله في عمرك.

يرســل القــدر الحاج عبد الواحد صاحب الدكان دائماً لأماكن الــيأس إن كــان طليقاً أو مختبئاً أو على الجبهة أو أسيراً لانتشال الضــعف، يوقفــه على قدميه، لكن ظهوره كدفان في بيت الموتى يواسي الضحايا ويصاحب القبور أذهل الجميع.

في أوائل أيام أسره زارهم ممثل الصليب الأحمر الدولي، طلب التقاط صورة له، رفض قائلاً:

- بلحيتي البيضاء وظهري المحدودب؟.. لا أرغب بصورة.. أريد أن أكون منسياً.

بــرزت حذاقــته فــي تنظيم مواد التموين وتقنينها لتسد نقص الطعــام المقدم لهم، إذ أن المعتقل يشوب نظامه التعقيد.. الحراسة الخارجــية موكلة للإيرانيين، أما إدارة السجن من نواحيه المتعددة فموكلة لعراقيين ممن اضطهدهم نظام بلدهم أو ممن انتقلوا بالولاء للجانب الآخر.

فــي الجانــب العراقــي يتماثل الحال تقريباً.. أعداد كبيرة من الإيرانييــن تحمل السلاح معهم كعادة الحروب تخلق متعاونين لا ينتهي عناؤهم بانتهائها إنما يظل مصيرهم مجهولاً.

استحضر الحاج عبد الواحد كل ما يعرفه أو يتخيله عن المرح، يلقي به على الأسرى.

الجدد منهم يتضايقون في البداية قائلين:

- هــذا العجــوز (بطــران) من يطلب الضحك في مواقف البكاء!

بعد أيام يبحثون عنه طلباً للتسلية، فالحياة تجعل من كبار السن إما مهمومين، عصبيين دائماً وإما مرحين كأنهم يملكون الدنيا.

التحقــيق مــع الأسرى يجريه بنو جلدتهم، مفتوحاً أمام أبصار الباقين، ينادونهم على الكشوفات:

- اسمك. ؟

- فرحان زغير.

- سكناك؟

- قرية سيحان.. محافظة الناصرية.

- هل أنت عضو في الحزب ؟

- كلا.

- ما هي رتبتك في المخابرات؟

- لست في المخابرات.. لا أحمل أي رتبة.. جندي مكلف في الخدمة الإجبارية.

- أنــت غــير قــادر علــى حمل السلاح.. أكيد تعمل في المخابرات؟

ســحب فــرحان دفــتر الخدمة العسكرية من جيبه، قدمه إلى المحقق:

- إقرأ الحالة.. سالم مسلح.

- ربمـــا هذا التمويه من عمل المخابرات كي يضاعفوا من نسيج العنكبوت.. اعترف وإلا.

تصفح المحقق دفتر الخدمة ورقة بعد أخرى رافعاً رأسه يحدق فـــي ملامـــح فـــرحان، يبحـــث عن فزع المريب. ارتعب فرحان يرتجف أمام المحقق:

- خـــائف مـــن افتضاح أمرك؟ كم شهيداً مات بسببك، نسيتم عقاب الله في الدنيا والآخرة.

عند ذكر الله تمالك فرحان نفسه، أشار بإصبعه إلى دفتر الخدمة العسكرية:

- إقـــرأ تـــاريخ إصـــداره، ما بين وقوعي في الأسر عندكم وتاريخ الإصدار 23 يوماً منها 21 يوماً مدة التدريب التي قضيتها فـــي تقشـــير البصـــل والـــبطاطا ويوم واحد راحة واليوم الثالث والعشرون كان العشاء الأخير الذي في صبحه كنت بين أيديكم.

دقـــق المحقـــق عدة مرات، قارن بين تواريخ الكشوفات ودفتر الخدمـــة العسكرية. أومأ لفرحان بالانصراف معلناً أنه سيستدعيه للتحقيق مرة أخرى لاحقاً.

تعـــاظم فرار الجنود إلى الأهوار مصطحبين أسلحة متنوعة، جلبوا قاذفات للصواريخ ومدافع مقاومة الطائرات.. كسروا حصار الأرض القريـــبة، يقودهـــم جوعهـــم إلى الانقضاض على الطرق القريـــبة.. يوقفون السيارات، لا يأخذون كل المتاع، يبقون بعضه.. عـــدد من المسافرين يعود لأهله بالملابس الداخلية أو نصف عار من دون ملابس داخلية، يسلبونها منهم معتذرين:

- لســـنا قطاع طرق.. لكن لا يوجد في الأهوار محلات لبيع الملابس.

ابتعدت الحوامات عاليا في طيرانها.. سقط عدد منها. الضباط والجنود النظاميون الفارون جعلوا من الأهوار مناطق عسكرية حصينة، جرى تقسيمها إلى قطاعات، تم تفاهم غير معلن مع رؤساء القرى القريبة من الأهوار من الذين أجبرتهم الظروف على التعاون مع الحكومة ومع الفارين في آن واحد دون أن يوصموا بالخيانة في حينها، فالحاجة تعطي شهادات عليا من التفاني في أداء الواجب.

ذعرت الحكومة من تنامي مقاتلي الأهوار فلو اتسع هذا الشق الصغير فإنه سيفتح بطونهم المملوءة برؤوس القتلى.

طرحت الحكومة مناقصة (تكثيف الفرات) وتحويل مجراه على دور الهندسة المحلية والعربية والعالمية بميزانية مفتوحة.

ابن الشيخ طاهر لبس حُلة أبيه.. تم تعميده رجل دين بمياه الأهوار المختلطة بدماء الحسين و يحيى بن زكريا.. أول رجل دين لا يخرج من النجف أو كربلاء.. لكنه حمل سيف علي ودماء الحسين تحيطه جموع القرامطة التواقون للتضحية.

أحد الظرفاء من المسلحين يضحك كلما نظر إلى عمامة ابن الشيخ طاهر، لا أحد غيره يعلم أنه قد سلبها من رجل دين مار، راكباً في إحدى الباصات التي أوقفوها على الطرق القريبة من الأهوار، لكنه ادعى أمام ابن الشيخ طاهر أنه تنكر ذاهباً للسوق لشرائها، حاصره ابن الشيخ متسائلاً:

– لا توجد عمامة جاهزة في أسواق المدن القريبة!

أوضح أنه ابتاع أمتاراً من القماش الأبيض أعطاها لرجل يعرف لف العمائم. لم تقنع الشيخ حجته لكن حاجته للعمامة جعلته يتجاهل مصدرها قائلاً:

ـ شكراً.. ألبستني عمامة!

ابـــتدأ الشـــيخ يعقد حالات الزواج، يمتنع عن الطلاق بحجة أن الـــناس يحاصرهم الخوف والضغط، وأن رمي الطلاق لا يعتد به في حالات عدم التوازن كالمجنون لا يؤاخذ بعمله.

نمت عقلية رجل الدين عند ابن الشيخ طاهر دون دراسة كتب الفقـــه والسنة.. اكتسبها من حجم التضحيات التي يلامسها في كل يـــوم، أعطـــته بلاغة المجاهدين الصابرين. يتذكر والده بالرحمة والمغفرة، يكلمه في سره:

- رحمـــك الله يا والدي، لولاك لما أصبحت رجل دين.. لن أســـلك دربـــك الـــذي كاد أن يخزيك لولا أن تداركك الله في آخر المحطات.

تقاطـــر أهالي القرى القريبة من الأهوار على ابن الشيخ طاهر يسألونه كتابة التعاويذ حاملين له هدايا الدجاج والبيض كعادتهم مع باقي الملالي. أعاد لهم هداياهم قائلاً:

- الفقير أولى بماله.

رفـــض كتابة التعاويذ، لكنه مسح على رؤوس أطفالهم يقرأ ما تيسر من القرآن:

(فيه شفاء للناس)

ثـــم ينضـــم للمقاتليـــن حاملا بندقيته في دروب الأهوار، خالعاً (الجـــبة والعمامـــة) مرتدياً الثياب القصيرة خفيفة الحركة. يقضي نصـــف يومـــه فـــي المـــناوبة و نصفه الآخر في صيد الأسماك والطيور.

ابـــتدأ هجـــوم الحلفـــاء في الداخل والخارج على الفرات، رئة الأهوار التي تتنفسها قبل خلق سيدنا آدم وما تبقى من طوفان سيدنا نوح. شاركت الدبابات لأول مرة في الهجوم على نهر ليس بقصد عبوره بل بمحاولة قتله.

تفتتــت كــتل الحجــر الكبــيرة التي يستعصي رفعها بقصف الدبابــات، تبنى بها السدود.. تكتفه من أرجله قرب الأهوار ومن وســطه عــند (سوق الشيوخ) وتقبض على رقبته في الناصرية.. يــتلوى الفــرات محتقــناً بلونه الأرجواني الذي اكتسبه من دماء الضــحايا الكثيف، يصارع جلاديه. على جانبيه تنوح النخيل وفي الأهــوار ينصت السمك والطيور واجمين كمن ينتظر النطق بحكم الإعدام، يسمعونه بارتعاشات أطراف الفرات المكتفة قربهم.

فــي موازاته حفروا نهراً آخر يقطع الصحراء، لم يكتسب اسماً مــع أنه حمل في قاعه نفس ماء الفرات إذ أن مجرى الأنهار هو الــذي يحــدد أســماءها، لكن ماء الفرات أينما حل يعطي الحياة والخضرة والتمرد.

رفــض المســلحون في الأهوار الجلوس متفرجين على خنق الفــرات، رئــته الكبيرة كمنفاخ يضخ الأوكسجين لهم، في توقفها هلاكهم جميعاً.

وضــع العسكريون من مناوئي السلطة المنضمون إلى مسلحي الأهــوار خططاً لتخفيف قبضة السلطة التي تضغط على الفرات. تســللوا إلى القرى المحيطة، من هناك حصلوا على بدل عسكرية برتب عالية وسيارة من التي تهديها الرئاسة إلى كبار الضباط.

فصــيل المقاتليــن المتنكر تكون من خمسة أشخاص، ضابطين يــرافق كل واحد حارس شخصي مع السائق. الحارسان يتقنان مد ونسف المتفجرات.

وصــلوا إلــى موقع العمل قبل غروب الشمس بقليل، هرع لهم جــنود الحراســة الحكومــيون يؤدون التحية مع عمال ومهندسي الطرق والجسور، سألوهم:

- أين المتفجرات؟

أجابه مهندس الطرق والجسور:

- في المخزن.

أومأ بيده صوب حاوية كبيرة كأنها حصن متنقل.

أمره الضابط المتنكر بلهجة حازمة:

- اعطني المفتاح.

تردد المهندس قائلاً:

- سيدي لا أستطيع تسليمك المتفجرات فهي لا تعود لنا، عناصر المخابرات وحدهم المخولون.

- من المسؤول منهم ؟

- بعد الظهر ينسحبون إلى داخل المدن، الآن لا يوجد بيننا واحد منهم.

أمر الضابط المتنكر جنود الحراسة أن يقبضوا على المهندس وجميع عمال الطرق والجسور وحبسهم في الغرف. همس أحد مرافقي الضابط له:

- احرص ألا يصاب المهندس بسوء فهو من قرية مجاورة، الإساءة له تستعدي علينا قريته وهم من المتعاونين معنا.

تقدم الضابط المتنكر نحو المهندس، انتزع منه المفتاح معتذراً عن عمله بأخذ الديناميت و حجزه مع عماله.

لم يشك المهندس بأن الضابط متنكر إذ أن الكثير من أمور الدولة حتى قبل نشوب الحرب لا تجري بطرق سليمة.

فتحوا الحاوية، أخرجوا جزءاً من كميات الديناميت مع ملحقاتها من أسلاك وغيرها يساعدهم بحملها جنود الحراسة. عند إتمام نقل الكمية المطلوبة أمر الضابط المتنكر جنود الحراسة بإلقاء أسلحتهم، استجابوا له دون اعتراض، قال معتذراً:

- لا أنوي حتى تقييد أيديكم.. أنتم أخوة لنا.. جئنا نحرر الفرات من قيوده وننسحب بهدوء بعد ضجيج المتفجرات.

صمت جنود الحراسة خائفين.. تكلم أحدهم:

- سيدي.. خذنا معكم إلى الأهوار.. حتماً سيعدموننا بتهمة التقصير إن بقينا.

قذفت المتفجرات بكتل الحجرِ و الصخور بعيداً، توسع لماء الفرات المحبوس، يندلق سريعاً، دويه كصوت المدافع تشعلها شرارة. فصيل ثان من المسلحين حل وثاقاً آخر أبعد منه يحرر جزءا من جسد الفرات المكتف.

صاح الضابط المتنكر مزهواً، يرى نتاج عمله:

- كل شيء يمكن دفنه مع تاريخه.. لا أحد يعلم أين دفن الإسكندر العظيم ولا قبور بعض الأنبياء.. إلا الفرات لا يمكن أن يموت.. مجرة سماوية هبطت على الأرض لا تنتهي إلا بالقيامة.

صرخ رفيقه يشنجه الانفعال:

- يحيا الفرات..

طلبت الحكومة المشورة العاجلة، ترتعد فرائصها لحدوث ثغرة في جدار الأمن الضخم العالي موقنة أن أي طابوقة ترفع من أي مكان في هذا الجدار سيؤدي إلى سقوطه دفعة واحدة كقصور الخورنق والسدير، لذلك أعدت نفسها لقتل آلاف البناءين ومساعديهم من سلالة سنمار.

قضت خطة الحكومة باستمالة رؤساء القرى المحيطة بالأهوار وغض النظر عن المتخلفين والهاربين من الخدمة العسكرية تمهيداً لعزل المسلحين داخل الأهوار عن إمداداتهم.

التقى وفد مسلح يقوده أحد المسؤولين الحزبيين مع أحد رؤساء القبائل في ديوانه بالقرية. قال المسؤول موجهاً كلامه لرئيس القرية:

- القيادة تحيي فيك الروح الوطنية.. لا شك أنك كأسلافك الذين قارعوا الاستعمار البريطاني.

رد عليه:

- (ممنون) لثنائك..أووه.. البريطانيون رحلوا منذ زمان!

- المطلوب منك القبض على العصاة.

- تلك مهمة الشرطة و الجيش.. مالي و مال العصاة !

أجاب المسؤول باستعلاء:

- أكلفك باسم القيادة تنفيذ ذلك وإلا نعتبرك متواطئا معهم، أظنك تعرف العقوبة.

غضب رئيس القرية من خشونة كلام محدثه لكنه ابتسم قائلاً:

- أعرف عقوبة واحدة لكل القضايا.. الإعدام.

ثار الجدال ساخناً بينهما، أشعله جهل المسؤول القادم من وسط البلاد تدعمه القوة بعادات الجنوبيين في مخاطبة رؤساء عشائرهم.

شتم المسؤول رئيس القرية، عاجله الابن الذي يقف متنمراً للانقضاض على المسؤول لسوء حديثه مع والده بطلقة مسدس لم يأخذ إذن والده بها. امتدت الأيدي سريعاً إلى السلاح، صرعوا القوة المرافقة للمسؤول ثم ركبوا زوارقهم مع عوائلهم قاصدين الأهوار التي لا تترك أثراً لدليل.

قامت الحكومة بتطويق باقي القرى المحاذية للأهوار. أعدموا عدداً من رؤساء القرى بتهمة الخيانة العظمى وتم ترحيل الباقين إلى جهات مجهولة.

ضربوا أجزاء من الأهوار بالسلاح الكيماوي شبيه بالذي فعلوه بمدينة كردية.. الرياح جعلتهم يتساقطون على سفوح الجبال كقوم ثمــود فـــي موت جماعي، لكن ساكني الأهوار لقوا بعض مصير إخوانهم في الجبال، فقد عمل الماء بغسل أدران الرياح، ينقيها من جراثيم الموت الأصفر.

الفصـــائل المـــتواجدة علـــى حافات المياه في نوبات الحراسة والكامنة بين القصب والبردي الكثيف تسللت لها الرياح الملوثة.

ضـــاق نفس بعضهم، العسكريون السابقون غطسوا تحت سيقان القصــب والبردي يحتمون بالماء، الأغرار منهم شعروا أن كثافة القصب والبردي تخنقهم، لا يستطيعون التنفس. سارعوا يخرجون منها إلى اليابسة خائري القوى مخلفين سلاحهم. التقطتهم دوريات السلطة، مات الكثير منهم في الطريق وقليل منهم نجا.

نقلوهـــم إلـــى العاصـــمة، أدخلوهم فرادى لغرفة التحقيق. رفع المحقق نظارته السوداء يتفرس في أحد الوجوه:

– أهلا.. أهلا.. الولد على سر أبيه، كان أبوك الخائن هنا منذ سنوات، لم يقبل التعاون، لا تكن أحمق مثله.. تعاون معنا وستخرج معززاً مكرماً.

– من أنت ؟

– فراستي لا تخطئ.. أنت ابن الشيخ طاهر.

– نعم أنا ابن الشيخ طاهر البكر ولكن من أنت؟

– أنا رشيد.. جاركم القديم..ألم تسمع بي؟

صمت ابن الشيخ طاهر يسمع حوار عقله وقلبه:

– قتلوا أبي المستكين.. يصفه هذا الجلاد بالخائن والأحمق.. فماذا يكون مصيري أنا حامل السلاح والمحرض ضدهم؟.

سـمع ابن الشيخ طاهر طوال رحلتهم من ضفاف الأهوار إلى مركـز الناصـرية ومـنها إلى بغداد الكثير من السباب والركل والبصـق علـى الوجوه بلعها بخوف لكن شتم رشيد لوالده أشعل الغـيظ والحقـد، أعطـاه القوة ليصارع هذا الوحش حتى لو كان أعزل.

سأله ابن الشيخ طاهر:

- أعرفك ضخم الجثة.. أراك الآن هزيلاً.

أومـأ رشيد بيده أن يصمت. لم يخبره أن غيظه الدائم المفرط على الناس وأكله الشره للحلوى أصاباه بمرض السكر.

أيقـن ابن الشيخ طاهر أنه لن يخرج حياً من هذا المكان، صمم على قتال الشهداء.

قال رشيد هازئاً:

- إما أن تكون غبياً أو واقعاً في الهوى.

- واقع في الهوى.

- أعماك الهوى عن رؤية آلة النار التي بيدنا؟ حتى الأعمى يحـس بسنا النار عن بعد. مجموعة لصوص في الأهوار تقلبون حكمـنا! نحـارب من هو أكبر منا بمرات ولم نعجز... مجانين.. خونة..

- فـي ضـعفنا قـوة.. كلما قتل واحد منا حل محله آخر.. نحـن فـي الأهـوار لسنا لصوصاً إنما نحارب لصوص المدن.. نحن موجودون في كل مكان.. نحن الشعب الذي لا يمكن القضاء علـيه، أما أنت يا سيدي القوي وأصحابك الأقوياء فإنكم مشتركون جمـيعاً في القتل والتعذيب والسرقات، إذا سقط رئيسكم تسقطون جميعاً كأحجار الدومينو، عكسنا تماماً في قوتكم ضعف.

طفح السكر عند رشيد يذيق مرارته لضحاياه:

- اخـــترت التعذيـــب المريع يا ابن الكلب.. كنت أرتب لك مكاناً في الحوزات الدينية تنال منه الشهرة والتكريم.

أجابه ابن الشيخ طاهر:

- لا أحب الشهرة والتكريم لأنها تجمعني مع بعض السيئين.

- ودع الدنـــيا إذن.. ينـــتظرك تعذيـــب لا يعرف فنونه أهل الجحيم.

- لقد فضّل هاروت وماروت وهما مارقان عذاب الدنيا على عذاب الآخرة.

- قبل أن تموت بأيدينا سندوس على كبريائك أولاً.

- كبرياء التعالي التي تفهمها وحش مجنون له نهاية.

- نحن باقون بأكثر من إرادة.

- ما يصعد يجب أن ينزل.

خـــتم رشـــيد تحقـــيقه بلطمــــة علـــى وجه ابن الشيخ صارخاً بأصحابه:

- اعدموا الكلب ابن الكلب.

أوقفـــت الغـــازات السامة والنار التي تلين الحديد الحرب فجأة دون أن يـــأخذ الواحـــد مـــن الآخر شيئاً على الأرض عدا مئات الألـــوف مـــن الأرواح التـــي أزهقت عبثاً، رافقها ضياع ثروات عشـــرات السنين. كسبوا المشوهين والأرامل والرجوع بآلة الزمن إلى الوراء.

عـــم الـــيأس الكثير ممن تطلعوا أن يكون ثمن فاتورة شلالات الدماء هو التغيير.

عـــادت الأمـــور بأشـــد ممـــا كانت تسحق الناس تحت حوافر وجنازير نصر زائف.

الأســرى.. الأحياء في بيوت الموتى يسألون مندوبي الصليب الأحمر:

- متى نعود إلى ديارنا؟

يجيبونهم:

- لا نعلم.

فــرحان يسهر الليالي في مهجعه مع الحاج عبد الواحد.. عمه ونديمه:

- انتهــت الحرب.. أسماؤنا في كشوفات الصليب الأحمر.. المبادلة قريبة إن شاء الله.

- الحــرب انتهت.. لكن السلام لم يعم.. سيطول انتظارنا يا بني.

- لمــاذا.. كل جانب يسترد أسراه بالمثل.. قسمة عادلة ليس فيها خاسر.

- لو كانوا يهتمون بنا لما قتل كل هذا العدد الهائل من الناس عبثاً.

- تقول إن مصيرنا كالأموات منسيين؟

- ربما نخرج غداً أو بعد عام أو عشرة أو لا نخرج أبداً.

أصاب اليأس فرحان من كلام الحاج عبد الواحد مستغرباً ذلك من رجل درج على بث الأمل والتفاؤل في نفس فرحان وغيره في أحلك المواقف عند اشتداد نيران الحرب وفي أعوام الأسر.

بعد توقف الحرب بدا الحاج عبد الواحد متشائماً لا ينام الليالي، يقوده تنفسه الصعب إلى تعرق جسمه في ليالي الشتاء الباردة.

فــي لــيلة (الوحشة) الحادي عشر من محرم (عاشوراء) اليوم الــذي يلي مقتل سيدنا الحسين، جلس رجل دين جاءوا به منذ أول أيــام شــهر محرم يقرأ تعزية عاشوراء على الأسرى.. موضوع

المحاضـــرة.. عن سبي أهل الحسين بعد أن فقدوا وليهم وأصحابه ممن يذودون عنهم.. تفاعل رجل الدين بصوت حنين على وصف المأساة.. يلمعها بأبيات الشعر الشعبي التي تلامس شغاف القلوب. ضـــجت القاعة بالنواح والدموع يبكون أنفسهم.. سبايا في جموع الحســين.. صـــوت الحاج عبد الواحد يعلو على الآخرين.. يجعر ماسكا ثديه الأيسر.

غـــادر الملا مع الحرس. استلقى الحاج عبد الواحد بلا حراك كجثة يغسلها العرق.

فـــي الثلـــث الأخير من الليل فحصه أحد الأطباء من الأسرى وأعلن أنه يمر بنوبة قلبية حادة تتطلب نقله إلى المستشفى.

هرع فرحان يدق على الحديد، يصرخ بهستيريا:

- أسعفوا الحاج عبد الواحد بالله عليكم.

ظـــل يصـــرخ و يصـــرخ إلى أن فقد صوته. أمسك به أحد زملائه الأسرى قائلاً:

(البقية في حياتك)

عاد صوت فرحان يصرخ:

- مات الحاج عبد الواحد.. مات الحاج عبد الواحد.. حرام.. حرام..

وقـــع فـــرحان ينشج على جثة الحاج عبد الواحد، تتقطع أنفاسه بالكلام:

- كنـــت أتكئ على مرفقك يا عم.. لا أجدك الآن.. تتركني وحيداً.

انزوى فرحان يؤنسه البكاء، يتناول جرعات منتظمة من حبوب الأسبرين غير عابئ بملاحقة الأخبار مثل زملائه، يتجاذبهم الأمل والقنوط.

اعتـــنى به أحد رفاقه ممن أسر في الأيام الأولى للحرب يقول له:

- دعني أعمل ممرضاً لك فالمريض الذي يبرأ من المرض يداوي خيرا من الطبيب. داؤنا يسكن الروح والأطباء يتعاملون مع الجسد.

عـــاد بعـــض الهـــدوء إلى روح فرحان، تعاون الزمن ورفيقه الأسير المجرب على مداواة جزء من جراحه.

أخـــبرتهم إدارة المعـــتقل أن مندوبا من الصليب الأحمر سيقوم بـــزيارتهم للتفتيش. أوصوهم بالاغتسال والاعتناء بهندامهم. مرت عدة أيام ولم يظهر أحد.

أخـــرجوهم للـــتريض.. لاح مندوب الصليب الأحمر من بعيد يحـــيط بـــه الحـــراس. شاهده فرحان، اندفع كالمجنون يعدو نحوه ملوحاً بقبضة يديه صارخاً:

- أين كنت ؟.. لو جئت مبكراً لما مات الحاج عبد الواحد.. مات الحاج عبد الواحد.. مات الحاج عبد الواحد صاحب الدكان...

لـــم يفهم الحراس لغة قوله ولا نواياه، أطلق عليه حارس زخة رصاص من رشاشه.

وقـــع مقـــتولاً تحـــت أبصار مندوب الصليب الأحمر الدولي وذهوله.

الفصل السادس

رن تلفون أواخر الليل، قال بصوت خفيض:

- عبد القادر.. اهرب قبل أن يدركك رشيد.

وضـــعت بعـــض الملابس القليلة في شنطة يدوية، خرجت من الباب الخلفي، لقد كنت في الأزمات أخرج دائماً من الباب الخلفي. اســـتقليت سيارة أجرة قاصداً القرية.. حضن أمي الذي أهرع إليه صغيراً وكبيراً.

وصلت عند الشفق. المضيف خال إلا من القهوجي. جاءني ابن الإقطاعي حاسر الرأس يتقدم القهوجي، احتضنني يقبلني:

- خير إن شاء الله؟

- إن شاء الله كل الخير.

لم يصدق عدم حملي لخبر سيئ ففي السنوات الماضية لا يوجد غير أخبار القتل والاعتقال. ألح في السؤال متعجلاً الخبر السيئ، أشار للقهوجي بالابتعاد:

- في هذه القرية جذوري.. نويت الهجرة.. سأكون أول نخلة تـنقل بـلا جـذور. ربما تصفر وتموت.. تدبر أمر رحيلي عبر الصحراء الآن، ثاني مكان يكبسه رشيد بعد غرفتي في المدينة هنا في القرية.

- حظك حسن.. المهرب، دليل الصحراء موجود في القرية.

بعث القهوجي يدعوه:

- قـل له يأتـي حـالاً للفطور معنا. لا تذكر شيئاً عن عبد القادر.

اتفقـت مع صاحبي أن نكتم الخبر، لا يعلمه بعد الله غير ثلاثة أنا وابن الإقطاعي والمهرب.

بعـد الغـداء أذهب سيراً على الأقدام إلى محطة القطار، قبل الوصـول لها ينتظرني المهرب على بعير، أعلن أمام الحاضرين نيتـي السـفر إلـى العاصمة بالقطار، يتعلل ابن الإقطاعي بعطل سـيارته الوحيدة في القرية.. عملنا هذا ليس خوفاً من إفشائهم سر هروبي إنما تحسباً من آلة رشيد الرهيبة التي تتكلم حيث أراد.

ودعني ابن الإقطاعي قائلاً:

- متى نراك؟

- لا أعلم.

- متى يستغفر هذا الرئيس ربه؟

- كيف يستغفر ربه من كان غير مؤمن.

امتطيــت البعــير قبل وصولي المحطة، معنا ثمانية أشخاص هــاربون مثلـــي، بعضهم من المدينة، أحدهم مدرس للغة العربية أعرفه من قبل.

أولـــى مصـــاعب طريقنا، الخوف من ذكور الجمال الهائجة، تخـــرج مـــن جوفهـــا شيئاً أرجوانياً يختلط بالزبد، تهاجم كل من يعترضها. ألقت براكبها من سكان المدينة، لا يعرف كيف يتشبث بســنامها، أصـــابته برضـــوض. قام البدوي (بعقل) بعيره، أخافنا بصـــوته يخرج من أحشائه كالمقهور، نتخيله يثور في أي لحظة، بـــركان أعمى لا توقفه الحواجز. في الليل شعرنا بالبرد القارص، دليلـــنا (عقـــل) الجمـــال ونام ملتحفا (فروة) من الصوف والجلد. أعطانا قليلاً من الأغطية التي كان يضعها على ظهور الجمال.

تكورنـــا عدة أشخاص تحت غطاء واحد. أراد زميل لنا إشعال نار، صاح به الدليل:

- يا غشيم.. أطفئ نارك قبل أن تراها دوريات البادية، هذه أول لـــيلة وآخر ليلة في طريقنا تنامون فيها.. غداً نصل الحدود، يكـــون مسيرنا ليلاً ونومنا نهاراً.. اعملوا بما أشير به عليكم فإن من ينقذ حياتك سيبقى مسؤولاً عنك.

كـــان الـــبدوي أمياً غير أنه يحمل فراسة لا تخيب.. ينظر إلى امـــتداد الصـــحراء كمن يتأمل راحة يده، كلما أكثر النظر اكتشف خطوطـــاً جديدة ومسارات مستقبلية في هذا الانبساط الواضح في شكله والشديد الغموض في تكوينه.

مـــن حـــركة الـــرياح.. شدتها.. اتجاهاتها.. يعرف أين ترحل الكثـــبان الرملية، تسير مثل كائن متحرك بماكنة الرياح فيتبعها.. نـــندس بينها، تخفينا عن عيون دوريات الحدود من كلا الجانبين.

الـــرمال المحمولـــة بيـــن طـــيات الرياح تغمرنا، تحيلنا سحالي صحراوية كبيرة الحجم.

مـــنذ أول يوم نفذ طعامنا رغم وفرته، فإن لم نأكله كله فسوف يفسد بفعل حرارة النهار. البدوي المجرب يسخر منا:

- طعام أولاد مدينة.. أين الثلاجة يا أهل الطماطم؟!

حمل على ظهور جماله زاد الصحراء.. التمر والحليب والماء.

فـــي اللـــيلة التالية لم نشعر بالبرد، نسير مسرعين، خائفين أن نلتقـــي بدورية حدود كامنة لنا وراء الكثبان، ليل الصحراء الهادئ إلا من وقع أقدامنا حيث كل شيء منبسط غارق في الظلمة يبعدنا عن الحضارة. النجوم تقود دليلنا الصحراوي يمشي عليها كطرق معـــبدة، يلـــوح درب التـــبانة: شارع رئيسي في خارطة عاصمة كبرى، أرى الدليل يمشي رافعاً رأسه إلى السماء لا يتبين الأرض، أسأله:

- انظر إلى طريقك ربما تقع في حفرة.

يجيب دون النظر لي أو إلى طريقه:

- مـــن يمـــش الصحراء مرة يحفظها عن ظهر قلب.. ليس معنى هذا أنها سهلة فهي كالبحر تثور وتدفن في الرمال كما يدفن الـــبحر الناس تحت أمواجه.. السماء تطرد النعاس عني، أستكشف نجومها، طرقها اللامحدودة، عشت عمري في الصحراء لم أستطع أن أطوي صفحة السماء.. ألمس بعيني المجردتين الأحاسيس التي لا يســـتطيع أن يلـــتقطها أكبر المراصد.. حتى ضياء القمر يتغير بهاؤه، أراه في الشتاء آسراً بهي الطلعة، أجمل وجه في الدنيا، في الصـــيف يفقد بعضا من بهائه، يعود كبروجكترات الكهرباء ترسل أضـــواءها من بعيد لذا أستغرب كيف ينام رواد الفضاء، لا بد أن

النوم في الفضاء يحمل إحساساً غريباً يجعلهم حالمين، فعندما يعودون إلى الأرض يتحدثون بشاعرية.

أثار حديث البدوي الشجون في نفسي، تصورته أوسع قليلاً من عقل بعيره.. ذكرني بإسماعيل الراحل الحالم الذي قتلوه في اليقظة.

كان الأستاذ يشير له ولي قائلاً:

- أنتم تلاميذ تتناسبون مع طموح الأستاذ.

ما قاله البدوي جعلني أرى نوعاً من الجمال لعالمه الصحراوي، جمال حزين.. تتراءى لي كثبان الرمل أطلال حضارات، تنام الرياح في باطنها راوية وحيدة لا تفصح عن مكانها، تنقلها سراً مضللة بعثات تنقيب الآثار. سألت الدليل:

- لولا كثبان الرمل لبارت تجارتك وهلكت.

- ليس تماماً.. مرات لا أدري هل وجودها للمساعدة أم للإعاقة.

- لماذا لا تتزوج؟

- ليس كل النساء يصلحن أمهات.. معظم وقتي أقضيه في البراري.

- لكنك تمكث في المدينة زمناً في كل سفر وعودة.. استأجر لها بيتاً.

- بعض الأطفال في المدينة يبحثون عن أمهاتهم ولا يجدونها.

- أنت متشائم يا صاحبي.. لعل تحديقك الدائم في السماء يجلب لك حورية، فإذا كنت تبحث عن الأطفال فإنك لن تجدهم في أحضان حورية.

سـألني الدليل عن عدد سنوات عمري، استغرب لمجاراتي له بالحديث بنفس مفرداته البدوية، كان يظن أن كل من يقوم بتهريبهم من الناس إما فقراء يطلبون الرزق في البلدان الأخرى أو أشخاص هاربون من الخدمة العسكرية. أجبته:

- العمـر والحكمة ليسا بالضرورة أن يكونا جنباً إلى جنب، أنا ابن قرية نصفها بدوي.

أولانـي اهـتماماً خاصـاً بعد هذا الحديث، يقرأ علي الشعر النبطي الموغل في القدم، يصف النساء والناقة والصقور والشجاعة كمعلقـات الجاهليين صلبة الحياكة أحادية الظل. أعطاني الدليل راديو أثناء الاستراحة القصيرة قائلاً:

- استمع له.. لا ترفع الصوت.

أصـغيت لنشرة الأخبار.. رشيد ما زال يعمل وسائد من النار للأبرياء. قلت في سري:

- يـا لله.. كان عنيفاً منذ صغره. يأخذنا أستاذ المدرسة في رحلـة إلـى حديقـة الحـيوان، هـو الوحيد الذي لا يتفرج على الحيوانات في أقفاصها إنما كان يرميها بالحجارة.

انقضـت أول لـيلة سـرناها دون نوم بتعب مؤلم عدا الدليل. أجلسـنا بيـن الكثـبان قرب إحدى الخيام، اصطحبني الدليل معه مخاطباً الآخرين:

- انتظروا هنا سنأتيكم بالماء والشاي.

تخـوف بعـض رفاقـنا من أن يتركهم الدليل ويهرب معي، طمأنتهم:

- مهما بلغ الحال فلن أنفصل عنكم.

وجدنا عدة أشخاص في الخيمة تمر عليهم (تناكر) الماء دورياً، تزودهم بالماء والغذاء، يعملون في جمع الحصى من البر. الجميع

يعـــرفون الدلـــيل عدا كلبهم الذي حاول تمزيق ثيابنا، لم تنفع معه خيزرانة البدوي، يقفز بخفة الذئاب وشراستها.

قال البدوي غاضباً:

- إن لم تبعدوه سوف أطلق عليه النار في المرة القادمة.. ما فائدة هذا الكلب؟ يهش عن غنمكم وأنتم لا تملكون حتى (طلي).

أجابوه:

- إنه كلب سائب جاء من قلب الصحراء يلهث.

- لم هو بهذه الشراسة؟

- ربما أوجعه مثلك من بني البشر.

- دعوني أقتله، صوته يدعو دوريات الشرطة.

اعترض أحدهم بشدة:

- الاهتمام بالأشياء التي لا تهتم بك هو ما يجعلك إنساناً.

ضـــحكت رغـــم تعبـــي لخجل البدوي المعتز بخيلائه، أخاطب الرجل:

- مـــن أيـــن اكتسبت هذه الحكمة؟ ربما تكون أستاذ جامعة متنكرا بجمع الحصى!

كـــتم البدوي نواياه عن باقي رفاقنا. جلبنا لهم الماء والشاي.. لكن ذهاب الدليل إلى جامعي الحصى كان لغاية أخرى.

اتفـــق معهم على نقلنا إلى داخل البلد المجاور بواسطة سيارات (اللـــوري) نختبـــئ بيـــن الحصى. لم يدفع الدليل لهم ثمن الشاي والماء، ذكرته بذلك، ابتسم:

- أنـــت قـــروي كمـــا ذكرت! هؤلاء لا يأخذون ثمناً للماء والطعام.

ثم أضاف:

- لكنهم يأخذون الهدايا.. لن أنساهم عند عودتي. لا تخبر أصحابك أن أهل الحصى هم من رتبوا صفقة نقلكم إلى البلد المجاور.

شمس النهار ساطعة، تخترق جفوننا المغمضة، تحرمنا من النوم. مر ذلك النهار من بين النهارات الطويلة، فوقنا الشمس الحادة وتحتنا الرمل ينثر حباته على وجوهنا وأجسامنا. تلال الرمال الصغيرة تتوزع كالقبور، تدفن نفسها ثم تأتيها الريح مثل يوم الحشر فتقوم من مرقدها.

لاحت أضواء سيارات لوري الحصى عند أول الظلام. صاح بنا الدليل:

- استيقظوا.

- من الذي نام حتى نستيقظ!

لكنه لم يكن مخطئا فقد أغلق السهر والتعب عيوننا المفتوحة، يقودنا كالعميان، أقول له ضاحكاً:

- سنتوه من بعدك.. دليل حقيقي.

ملأوا اللوريات بالحصى. الدليل يراهم عن بعد، يوقف استعجالنا:

- دعوهم يشربون الشاي، دقائق ويبعثون الإشارة.

وضعونا كل اثنين في لوري، نشروا فوقنا غطاءً خفيفاً من البلاستيك، حذرونا:

- اندسوا كالفئرانِ بين الحصى إذا أصر شرطي على رفع الغطاء.. لا تحدثوا صوتاً... اغمروا أجسادكم منذ الآن بالحصى، أبقوا رؤوسكم فقط خارجه.. إذا مسكوكم سنقول إننا لا نعلم.. من المؤكد أنكم قفزتم في بهيم الليل على ظهر الشاحنات دون علمنا.

غصت بعيداً داخل الحصى، أبقيت أنفي فقط خارجاً، ألتذ بمتعة التنفس شبه الممنوع.

سارت السيارة عدة ساعات على أرض رملية بسرعة كبيرة، مطباتها الصغيرة المتواصلة تحركنا كالغربال، تسقط الحصى الصغيرة وتدفع الكبيرة منها إلى الأعلى. بعد كل غربلة أجد جسمي وقد تحرر من الحصى وصار فوقها، أغطس مرة أخرى، أعوم في مياه ضحلة سرعان ما تعيدني إلى السطح. امتزج الرمل الملتصق بالحصى وعرق وجهي وجسمي، يكسوني بطبقة من الطين.

وصلنا بسلام إلى الكويت، جمعنا المهرب في بيت عند مدينة الجهراء أول المدن التي تنتهي عندها الصحاري.

كل واحد منا يحمل رقم تلفون لقريب أو صديق يعمل في الكويت. عند الظهيرة خلا البيت منا، اصطحبنا أقاربنا وأصدقاؤنا إلى بيوتهم. تبادلنا التلفونات.

رفض المهرب أن يأخذ مني نقوداً، ألححت عليه:

- إنها عيشتك.. تحملت المخاطر من أجلنا، أرجوك خذ.

أصر على رفضه قائلاً:

- لم أصادفك كثيرا في قريتكم لوجودك في المدينة.. إنها بيتي الثاني هذا إذا كنت أملك بيتاً أول في مكان ما. عيب علي أخذ النقود منك وقد سبق أن أكلت في بيتكم، ثم أي مخاطر تتكلم عنها؟ إنها متعة لي أن أواصل العيش في الصحراء.

منذ أول يوم لوصولي شعرت كأني على مدخل عالم آخر، يتجاذبني الإحساس بالاطمئنان لبعدي عن الخطر المباشر رغم أن السيارات الدبلوماسية في الخارج حلّت محل سيارات الأمن اللاندكروزر، وبين الحزن لحياة وأماني تركتها هناك لا سبيل

للعـــودة لها. كنت أسبح في أعماق الحياة، أتلقى ضغطها الهائل. لا زلـــت خائفـــاً على عائلتي التي خلفتها هناك.. أينما كنت ولو في أقصى الأرض بعيداً عن الأهل سيضعك رشيد في قارب واحد مع عائلتك يقلبه متى شاء.

لـــم تـــدم إقامتنا في الكويت، مكثنا فيها محطة استراحة لحين إكمال وثائقنا.

اتصـــلت بشـــقيق (أمـــل) في سوريا مع بعض من رافقونـي، آخرون اتصلوا بعدن. قبل أيام من رحلتنا الثانية في طريق سفرنا الطويـــل، فاجأنا المذياع بنبأ غير متوقع... نفّذ حكم الإعدام رمياً بالرصـــاص برشيد الرهيب... آلة الحكم التي تفرم أجساد الناس.. كلـــب مســـعور قـــتله أهلـــه. كنا نعتقد أنهم لا يربون إلا الكلاب المسعورة.. كانوا يراقبونه، يبقونه ساطورا في يد جزار.. أراد هو الآخـــر أن يشارك الجزار في ثمن ذبائحه لكنه لم يعلم أن الجزار أقسى قلباً من ساطوره وأسرع إلى الفتك.

تسربت الأنباء لاحقاً أن قتله تم تحت التعذيب خلافاً لما أعلنوه، كما كان يفعل هو بضحاياه الكثيرين.

طـــال الانـــتقام كل من له صلة به، أعدموهم معه. الذي كان يخيف الناس بصلاته برشيد أخذ يشتمه علناً، ينكر معرفته، يدعي أنـــه انـــتحل تلـــك الصفة لمآرب وضيعة يطلب الصفح عنها. عم الفرح أصحابي يهنئون بعضهم، وزعوا الحلوى قائلين:

- سقط المجرم.. يوم سقوط النظام.

أجبتهم:

- لا أعتقد.

- ألـــم تقل إنهم أحجار دومينو إذا سقطت قطعة منها سقطت جميعاً؟

- أحجار الدومينو هذه تسندها أكثر من يد. إنكم تنظرون إلى العازف وتنسون من أعد الموسيقى وألفها.

رد أحد أصحابنا:

- تعني المصالح.. أصحاب المصالح.

- نعـــم.. طبولها على قرع البراميل.. لا أحد يعلم كم يطول شواؤنا على نيران هذه البراميل قبل أن تنضب.

خابـــت آمـــال أصحابي بالعودة السريعة إلى الوطن، استغلت الحكومة كره الشعب لرشيد تلصق في ظهره (إن بقي له ظهر أو جـــثة بعد تعذيبه) كافة الفظائع التي ارتكبها، مات بلا قبر. أعدموا والده بعده بأيام.

اعـــتقد الـــناس أن لا أحد أكثر فظاعة من رشيد، ما مر وقت قصـــير إلا وأصـــبح رشيد تلميذاً كسولاً في مدرسة الإرهاب.. لم يـــترحم علـــيه أحد لكن الفظاعات الجديدة لمن خلفوه والتي فاقت بكثير ما قام به رشيد، أنست الناس ذكره.

تذكـــرت أيامـــي المشـــتركة معه.. في المدرسة.. النضال في العهود الماضية.. ذكاءه.. ربما إخلاصه المفرط.. دمويته.. كيف ابـــتدأت هذه الدموية، من يشاركه بحمل وزرها، حزبه أم الوطن المعذب؟.. كان سوياً، تلميذاً مثلنا حلم بعيش أفضل.. والده كآبائنا لا يحرض على الاعتداء، عاش بعيداً عن ولده ثم دفع حياته لكونه أباً!

وصـــلت مطار دمشق غير مصدق أنني خلفت الخوف ورائي. كانت دمشق كغرفة الإنعاش بعد عملية طويلة لم يصاحبها تخدير.

أخو أمل انتظرني في المطار منهياً إجراءات الدخول بسرعة. الطريق إلى مدينة دمشق تقف على جانبيه الأشجار، قوامها مستقيم تنثر الخضرة كفتيات الاستقبال الجميلات... إنه شعور لا يوصف

ذلـــك الـــيوم الذي زال فيه الخوف مني، عادت لي حواسي أتلذذ بالخضـــرة، بـــالوجوه، بأكل الطعام، بالنظر إلى (قاسيون) العذب الهواء الخالي من القسوة.

لقـــد خلـــف الأمويـــون علـــى أرض دمشـــق جامعهم الكبير ودهـــاءهم.. لكنـــنا لم نستوعب هذه الدروس، تصارعنا منذ اليوم الأول لوصولنا.

وصـــلتنا الأنباء من الوطن بإعدامٍ وجبة جديدة من المناضلين والأبـــرياء.عملـــنا لهم عزاء مشتركاً.. الجميع ينصت إلى تسجيل الآيات من القرآن الكريم:

(ولا تحســـبن الذيـــن قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون)

قال أحدهم بصوت مسموع:

- إذا قـــتل فـــي ســـبيل الله.. وليس في سبيل الطموح إلى السلطة.

امـــتعض أقـــرباء المقتوليـــن يرومون ضربه. حدث هرجٍ بين طرفين ثم انقسم إلى عدة أطراف، أمسكت الميكرفون قائلاً:

- لقـــد قـــتلوا سوياً.. دعونا نجلس لذكرهم سوياً.. جميعهم وطنـــيون مظلومون.. من لا يؤمن بالوطنية ليؤمن بأجر الله الذي يهـــبه للمظلـــوم. نهدأ، نعود أخوة، نجتمع في مناسبة أخرى سوية نخرج منها متفرقين:

- يجب إبعاد الأحزاب العلمانية.
- يجب إبعاد الأحزاب الدينية.
- يجب إبعاد الأحزاب القومية.
- يجب إبعاد المثقفين.
- يحب إبعاد الأكراد.

- يجب إبعاد التركمان.
- يجب إبعاد العرب.
- يجب إبعاد الشيعة.
- يجب إبعاد السنة.
- يحب إبعاد المسيحيين.

(يجب إبعاد الشعب!)

لا أدري أين تقف السلطة الفاشية وغيرها من هذا التناحر، إنما حصلت على نجاح لم تستطع تحقيقه داخل الوطن، فنحن كأرضنا أرض السواد مليئة بالخصوبة والأنهار، لكنها تفتقر لتنظيم قنوات الري، طبيعتها الرسوبية تتطلب معجزة للسيطرة عليها.

بعضهم أراد الاسترخاء معتقداً أنه عبر حدود النار إلى الجنة ثم أدرك أنه لا زال في الدنيا. في سوريا نسمع نبض الوطن تنقله شرايينه من الشمال والوسط والجنوب، نقف عندها كالأشجار ترسل جذوراً طويلة لتصل إلى مياه الأنهار تحت الأرض فالمياه على السطح تظهر وتختفي.

استعصت الكهوف، مدخل عالم ما تحت الماء على التنقيب، رغم أن بعثات التنقيب الأجنبية عادة تستعمل أجهزة متطورة للرصد لفصل الجذور عن المياه.. أعياها البحث فقد اختزن الفرات الكثير من مياهه الجوفية سراً. حينها لوحوا لنا بالقدوم إلى الفردوس المفقود منادين:

- هلموا.. تكسبون الحرية والسكن والعيش المجاني.. شرط ألا تحملكم من دياركم سفينة ولا طائرة ولا أية واسطة نقل أخرى. وحدهم المهربون وكلاؤنا المعتمدون، تتضاعف أسعارهم في كل عام.. استلفوا، بيعوا كل ما لديكم، اسرقوا كي تصلوا لنا.. أهلاً

بكــم في أوربا، أستراليا، أمريكا، كندا.. طريقكم ملأناه بالشراك، الديناميت، الرمال المتحركة، مستنقعات المغاريق، لجج البحار..
من يجتازها فقد فاز.. أهلا بكم في الأرض الموعودة.
سبقني بعض أصحابي بالسفر. كانوا ثلاثة كل واحد قاده مهرب إلــى ناحــية، مهربو أوربا وأستراليا وكندا وأمريكا ليسوا كدليلنا الــبدوي يدفع من جيبه، في سبيل المال يلغون مشاعرهم حتى لو وضعوا ياقة قسيس على أعناقهم.
طريق الهجرة الطويل ذو المحطات والبلدان المختلفة يستنزف كــل ما لدينا، تنضب النقود في منتصف الطريق، يبحث المهاجر عن قريب أو صديق في البلدان الأخرى يتلفن:
- اسعفني.. توقفت راحلتي.. لا تتحرك إلا بزيت النقود.. لا تتأخر علي، أرقد على سرير من المسامير.
يجيبه الصوت:
- دفعت قبلك لفلان وفلان وفلان.. لم يتبق عندي شيء.
- اســتلف لــي.. لا أجــد هنا من يقرضني النقود.. لا أفهم لغتهم، النقود هي اللغة.. أنت أملي الوحيد.
تأتــيه النقود، يقفز بها إلى محطة أخرى، يتكرر المشهد. ساعد الفقراء بعضهم البعض يبيعون ما عندهم، يستلفون، يعملون زمنا أعمــالا شبه سخرة بغية تأمين المال للقفز إلى محطة من محطات الدرجة الثالثة.
قــام بعــض (الملالي) بتحريم اللجوء بعد حوادث تمزقت فيها أسر كثيرة. منهم من يوصي المهاجرين بإيذاء مضيفيهم، رد عليهم آخرون معترضين:
(ما جزاء الإحسان إلا الإحسان)

تصـــارع مـــريدوهم يستشـــهدون بالرب على أعمال التدليس، متجاهليــن روح الاجــتهاد التي تنقذك من الحرج. يأخذون الغث ويتركون السمين كالماشية المربوطة تأكل القش رغم توفر العشب. إنهم رجال دين لكني لا أعرف بماذا كانوا متلبسين! جميعهم جزء مــن امتحان الظروف الرهيبة وليس جزءاً من تكفير الذنوب. لقد انــتزع هــذا قطعــاً كبيرة من جدار المعتقدات يدعو إلى الأسى. الوقورون منهم، مريضو الروح والجسد يبثون حزنهم قائلين:

- كم هي دنيا كريهة تلك التي تدفع المرء إلى الخطايا.

يــرون الكثــير من طالبي النصيحة لا يعملون بها. أراد بعض المريديــن أن يحرق ماضيه لكن تأخره عدة سنوات ضاعف الألم على قلبه.

انتظرت إشارة من رفاقي الثلاثة المسافرين تهديني إلى أقصر الطــرق وأســهل الــدروب للحــاق بهم، أعداد كبيرة جاءت من كردستان تروم اللجوء. التقيت بصديق:

- تخلى عنكم الجبل؟

- غضــب الجــبل يرى جنته تشوهها أعمال التهريب، خفنا بطشة الحليم فهربنا.

- هل عجز الجبل عن إيقاف أعمال التهريب؟

- هزمته أنابيب البترول، تمر كالإبر الصغيرة، تثقب قلبه، تدفع ثمن الدماء سائلاً أسود له رائحة النقود، أغوت بعض حراسه يصوبون بنادقهم نحو صدره.

- أين تذهبون؟

- إلى اللجوء في البلدان البعيدة.

- أتعرفون الطريق؟

- لا نعرف.

- تحملون نقوداً؟
- لا نملك نقوداً.
- كيف تصلون؟
- لا نعلم.

راهن النظام الفاشي على أن شدة القمع تؤدي إلى استكانة الناس وخضوعها لكن ما من أحد تهينه وتضربه يومياً ويبقى ساكناً.. لا بد لغضبه المضغوط أن ينفجر في وجهك يوماً ما.

أسبغت عموم الناس على كل خارج من سجوننا صفة النضال حتى لو كان لصاً، بغضاً لأساليب السلطة وكذبها المستمر.. فقد عرضت بعضا من وجوه التاريخ المشرقة على أنهم لصوص وبعض اللصوص على أنهم حراس المصير.

فاجأني رجوع أحد أصحابي الثلاثة، واحد منهم وصل غايته والآخر انقطعت أخباره.

تلفن من المطار، استقبلته مرحباً:

- الحمد لله على السلامة.
- أية سلامة هذه التي فقدت بها كل شيء.
- إحمد الله على الصحة.

بدا مكتئباً، خائر القوى، أشجعه:

- في المرة القادمة تنجح.. لا بد من صنعاء ولو طال السفر.
- من أين أجمع النقود؟ عشرة آلاف دولار غرقت في بحر (تيمور) بين إندونيسيا واستراليا.
- كل شيء يتعوض عدا العمر.
- ليتني مت مع من غرق من أصحابي.
- استعذ بالله.. ركبك الشيطان فأنساك ذكر الله.
- صاحب الشيطان تفز في هذه الدنيا.

- استغفر الله.

قطعـت علـيه حديثه مستفسراً عن رفيقنا الغائب، أجابني بلا مبالاة:

- مات.

- كيف حدث ذلك، مات مقتولاً أم مريضا؟

- لا هـذا ولا ذاك.. مات متجمداً في براد نقل اللحوم عبر حدود أوربا.

- أعاقهم رجال الحدود؟

- كلا.. عبروا الحدود في الموعد المناسب.. الشرطة سهلت عـبور الشاحنات لكن السائق نسي ضبط ميزان الحرارة والبرودة بأعلى من درجة التجمد.

- أين دفن؟

- لا أعلم.. لعله يرقد في إحدى الغابات الكثيفة النائية.

آلمني موته غريباً حتى في قبره. انبريت أعنف صاحبي:

- أشكر الله على أنك لم تلق مصيره.

أجابني خجلاً:

- اليأس أسوأ من الموت.

- لا تـيأس مـن رحمـة الله.. كل شيء يتبدل.. أين رشيد الرهيب؟. إصبر قليلاً.

- صـبرنا أجيالاً.. توارثت بؤسي عن أبي وهو توارثه عن أبيه إلى أن نصل سيدنا آدم.

- هكـذا حـال الدنـيا.. لم يكفر أبوك ولا جدك.. إرو لي قصتك، لم أسمع منك غير الشكوى.

تنهد رفيقي قائلاً:

- أقلعت بنا الطائرة إلى تايلاند، ننام عدة أشخاص في غرفة واحدة. بعد أيام سمحوا لنا بالتجوال، زودنا المهربون ببعض التعليمات البسيطة.. عنوان السكن.. أرقام تلفونات. البلد يحمل نكهة شرقية، داكن الخضرة، غزير الأمطار. تآلفنا سريعاً، أهاليه تخلوا عن الجسد يهبونه للضيوف الأجانب وفتنوا بالروح.

على معابد بوذا ذات الشناشيل الملونة تشعر بحضور الأرواح التي تنظر إلى رفات الأجساد المعبأة في قوارير صغيرة مستغربة، كيف تعود ثانية تتلبسها ساعة الحشر!

بوذا الرابض في كل معبد رسموه على الجدار حارساً، لم يلامسوا روحه المتفردة.. يخرجها من الجسد متى ما أراد هو وأتباعه أن يتخلصوا من آلامهم ثم يعيدها تجمع آلاماً جديدة على درب الحياة.

انغمست أنهل من ضيافة الأجساد، تمنيت لو قبلونا لاجئين في هذا المكان الممتع.

أعلنوا.. غداً تسافرون إلى إندونيسيا ومنها إلى أستراليا.. القارة المنسية التي أصبحت قبلة يتسابق عليها مئات الألوف من الحجاج الذين لا زاد عندهم ولا راحلة.

في إندونيسيا سمعنا الأذان في المساجد، ما أحلى ترتيله في الغربة. دخلنا نصلي جميعاً، حتى الجاحدون منا كأننا دخلنا إلى بيتنا في العراق. بقينا أياما قليلة نستعد للقفزة الأخيرة.. الترقب أفسد علينا المتعة في هذا البلد الجميل. أركبونا الشاحنات ليلاً إلى رصيف مهجور، منه أبحرنا، لم نعلم أن رجال الأمن العراقيين يتزاحمون معنا على المنفى، يلاحقوننا في ديار الأرض البعيدة.. هنا في جزر الواق واق..

كبار المهربين يعملون مع أكثر من سيّد، يلعبون لعبة الروليت الروسية على رؤوس الضحايا عدا أنهم يعلمون أين توجدّ الطلقات.

تمر سفينة لاجئين، غالباً ما يكون بينهم من رجال الأمن ويقبضون على أخرى. أصحاب السفن الصغيرة المستأجرة يقعون في خداع وكلائهم.

ثارت طلقة الروليت الروسية في مركبنا الصغير على رؤوس عشرين شخصاً، كنت من بينهم. تركونا نبحر بعيداً لقرب المياه الدولية، ظهروا لنا فجأة من مياه البحر كالهولندي الطائر. أمرونا عبر مكبر صوت بالتوقف. قبطان المركب شيخ عجوز يرى الأطفال والنساء معنا، تكلمنا معه بلغة إنكليزية يحسنها، توسلنا له ألا يقف. قبلها طمأننا بأنه أبحر عشرات المرات في هذا الطريق دون أن يقبض عليه ولا مرة واحدة. نستعطفه:

- أعبر بنا إلى المياه الدولية.. مياه أستراليا.. دعهم يقبضوا علينا هناك من دون وثائق. أطلق العجوز مركبه الصغير بأقصى سرعته، قال في تحد:

- لن ينالوا مني.. ترعرعت مع الحيتان منذ صغري.. علمتني دروب البحار.

أطلقت دورية خفر السواحل النار في الهواء لكن العجوز مضى في سيره يحث مركبه:

- اجر أيها الرهوان الصغير.

شممت رائحة الخمر الرخيص من فم القبطان، أخرج رأسه من قمرة القيادة يلوح للدورية:

- باي باي..

اقتربنا من مياه أستراليا، نرى سفنهم تنتظرنا ضيوفاً ثقلاء نزاحم أهل الدار. خشيت أن يلحقوا بنا، أكلم القبطان:

- سفينتك عتيقة أمام طراريد الشرطة.

- داخلها قلب قوي لا يملكون مثله.

أكمل ضاحكاً:

- هذا إذا صدقنا أن هناك قلباً لشرطي!

اهتزت السفينة بعنف، أعقبها صوت قذيفة. أبطأت من سرعتها كجواد أعطبت أقدامه. استلقت السفينة على جانبها تستريح من طول الجري، يعلو صراخ النساء المتشبثات بأطفالهن على كل صوت، غمرتها المياه سريعاً.. لم يحاول أحدنا أن ينقذ طفلاً أو امرأة، هربنا نبحث عن النجاة في مياه البحر، عدا القبطان وقف صامتا كأنه يريد الدخول في هذا القبر الواسع، تخطفنا أطواق النجاة المتوفرة.

مات نصف الركاب.. جميع النساء والأطفال غرقوا متعانقين..

انتشلتنا شرطة السواحل، أخرجوا القبطان من المياه حياً. أرسلونا إلى سجن بغيض لا يتناسب مع جمال الطبيعة خارجه.

المهربون عبر قنواتهم السرية والعلنية نشطوا في إخراجنا من المعتقل وإلا بارت تجارتهم!

في غضون ثلاثة أسابيع نقلونا إلى المطار عائدين لا نعلم كم دفعوا على كل رأس منا لرجال الشرطة.. من الخزي أن يموت الأطفال والنساء أمام أعيننا مع أننا لم نكن نتفرج، لكن شعوري بنوع من مسؤولية بقائي حياً يثقل ضميري... بغرقهم فقدت جزءاً من كرامتي.

عاود رفيقي المنكوب السفر بعد فترة قليلة واصطحبني معه.. قفزنا قفزتين فقط في طريق جديد لم تطرقه أرجل اللاجئين من

قبل، ابتكره المهربون الذين تفوقوا على خبراء تخطيط الطرق ومسح الأراضي.

بلدنا الجديد دولة اسكندنافية، يرسمون الشجر فيها بلا أوراق من شدة الثلج، تتكاثر طيور البطريق وأسمع نهيقها كأنها حمير القرية..ارتجفت رعباً من رشيد، ظننت نفسي أحلم بالوصول إلى بلد ناء من غرفتي في القرية. قفزت أفتح النافذة.. أيقظني البرد الجليدي. حمدت ربي على نفاذي من رشيد ثم تذكرت أن رشيد ميت.

حجزونا في شبه معسكر، لسنا أحراراً وأفضل من معتقلين.

طلبونا للتحقيق فرادى. مع المحقق يجلس مترجم، ساورتني الشكوك في نزاهته من تقطيبة وجه سائلي. حفظنا الأسئلة والأجوبة عن ظهر قلب قبل سفرنا، اللغة الاسكندنافية غير مفهومة، أبحث عن تشابه كلماتها والإنكليزية، سألني:

- ما هو لون لباس شرطي المرور...
- اسم النهر الذي يخترق الناصرية..
- ماركة باص المواصلات الحكومية..
- لباس الكشافة..... الخ.

ليتيقن أنني قادم من الجحيم. أدركت أن شيئاً ما يربك الإفادة، ما قاله أخيراً أثبت شكوكي، قال:

- إنك غير صادق.

أجبته بلغة إنكليزية سليمة:

- تسمح بإعادة الأسئلة لأجيبك عليها مباشرة دون مترجم.

شحب وجه المترجم، استأذن من المحقق يكلمه بالاسكندنافية ثم أسرع في المغادرة.

افتضح أمره كوكيل للمخابرات العراقية. أرسلوه يطلب اللجوء كضحية من ضحايا النظام منذ أوائل وصول وجبات اللاجئين.

صحح المحقق الأجوبة.. كتب الفرات بدلاً من دجلة...

أبقونا عاماً في هذا المكان، بعضنا لم يتحمل الحجز كل هذه المدة الطويلة، غادر يجرب حظه في مكان آخر. أعادوا علينا التحقيق الممل عدة مرات، معنا يقبع وزراء في حكومات دكتاتورية سابقة.

مرة تملكني الغضب تستفزني برودة المحقق، أجده غير مهتم بمصيري، صرخت في وجهه:

- ساعدونا على إزالة الدكتاتور.. تنهون مشاكلكم و مشاكلنا.

خرجت من الحجز إلى قوم لا يخافون من الشرطة، إلى الآن غير مصدق أن قامة شرطتهم الهرقلية وهراواتهم الضخمة لا تغريهم بضرب الناس. ليس من الممكن أن تمتلك هذه الوجوه الصارمة قلوبا رحيمة.

موظفة البلدية التي تشرف على شؤون إعانتي راقية التعامل، تبدو لي من عالم آخر، دمثة، مهذبة، لكني وجدتها غير سعيدة، سألتها مستغرباً:

- غير سعيدة وأنت في هذا المزاج الراقي؟!

أجابت متنهدة:

- عمري أربعون عاماً.. ما زلت على الرف.. سيذهب ما تبقى من جمالي، قلبي تتسارع دقاته كلما زادت سنوات عمري.

تصادمت أساليب حياتنا الموروثة، نحملها معنا إلى بلدان لحياتها إيقاع آخر، مفاتيحه الموسيقية تعزفها أصابع المال والجنس والهمبرغر. هذا الثالوث غير المقدس عصف بعوائل محافظة

تلبس الحجاب، بعض فتياتهم فتنهنّ إغراؤه الطاغي، انقدن وراء عشقه الذي لا يرضاه عذرياً، تكتمل متعته في العري التام.

سمعت صوت سيارة الشرطة تتوقف أمام البناية التي أسكن فيها مع أعداد من اللاجئين، أعقبها صراخ نساء وأصوات مختلطة. نزلت لأسفل البناية، في الشارع تقف سيارتان للشرطة. أدخلوا بنتين في إحداها واقتادوا والدهما مقبوضاً عليه إلى الأخرى.

الأم تصرخ وتلطم على خدودها من العار، أمسكتها:

- يا خالة.. ليس في الشارع أمام الناس.

أجابت بعين دامعة:

- الناس.. من الذي يهتم هنا بغير نفسه.. حتى أنهم لا يردون التحية.

- ماذا جرى يا خالة؟

- بناتي خلعن الحجاب، يردن الخروج من البيت متى شئن، زوجي وأنا لم نقبل، تشاجر أبوهن معهن قبل أيام، شكونه إلى الشرطة. في دائرة الشرطة أجبروه على كتابة تعهد بعدم التعرض لبناته والاعتذار منهن لقاء بقائهن معنا في البيت، حذروه بأخذهن منا في المرة القادمة.

بدأ الشجار اليوم على صوت الموسيقى الراقص العالي، تورم رأس زوجي من الصخب. أقفل المسجل.. أطلقن ألسنتهن السليطة:

- رجعي.. متخلف..

- زمانك ولى.. إن كنت شجاعاً ارفع إصبعك.

هوى عليهن بالأكف والركلات والعض، أشفى غليله المكتف بالذل.. أنا الآن وحدي، أخذوا البنات يفصلونهن عنا واعتقلوا

زوجي لا أعرف متى يخرج من السجن.. ألا يوجد مكان في هذا العالم نرتاح فيه؟

أوصلت الأم، ودعتها:

– يا خالة.. هذه حال الدنيا.. دار عناء.

انزويت حزيناً في غرفتي أقفز بخيالي إلى الوطن.. أتساءل عن مغزى الأمور الجائرة التي يرتكبها الناس بعضهم لبعض وهل تؤدي الكراهية في يوم ما إلى حب.. الفرار خيارنا الوحيد الذي تركه لنا النظام ورئيسه بعد أن ترصدناه في كل مكان.. ملأنا له الهواء والماء والأرض بالسم كي يموت ولم ينفع.

أخاطب من بعيد.. أستعير صوت (سعدي يوسف) ليس فقط لمجيد الراضي إنما لكل الأحياء والأموات في الوطن: إسماعيل وكريم وسرحان وياسين وفرحان والحاج عبد الواحد صاحب الدكان وأمل ونجاة وجعفر و(السيد) وأخته والإقطاعي والشيخ طاهر وولده وسلمان ومن غرقوا في البحار ودفنوا في كردستان وفي الفرات وفي دجلة والناصرية وكل مدينة وقرية في العراق ومن ليس لهم قبور والذين ينتظرون الموت وفي المنفى وإلى الوطن المجهول مصيره:

قد يقع الإنسان

في قبضة السجان، أو في قبضة الأزهار

بل ربما أوقف من سنينه، عشراً على الأحجار

يمنحها النسغ، كما تمنح أزهار الدجى الشطآن

وربما استنفذت الأشجار

أعمارنا...

من أجل ألا نجهل الأشجار

لكنني أريد أن أخبرك الليلة

وأنت لا تجهلني
كنا معاً في ذلك البستان
أريد أن أخبرك الليلة
بأنني في قبضة الذكرى
سجين دونما سجان
وحين يبدو التل كالغيم ويدنو الغيم كالتل
وترتعي في العشب المبتل والدالية الألوان والقطعان
أغنية للبحر والصحراء
أغور في الذكرى فتمتد على جبهتي القضبان
كم أحسد الليلة من أوقف للبستان
شبابه، منجله، رايته الأولى
كم أحسد الليلة من دس كتاباً واحداً في راحتي إنسان
أواه... كم أحسدك الليلة!



للسجون والحزن معنى آخر في جنوب الفرات، فلا السجون أماكن ردع للمنحرفين ولا الحزن يخلو من اللذة. ينتهي تقويم المنحرفين خلال يوم واحد في نظارة المخافر بواسطة حزمة من الخيرزان تعمل من بعضهم وكلاء أمن. يحتفظون بالسجون لكل من أحب وطنه وفداه بنفسه. الحراس من رجال الأمن يفوقون أكثر المنتفعين نكراناً للجميل، يأخذون بلا حساب من موائد الوطن ويغصبون الناس على كرهه.

يحتل الحزن أكبر المساحات في أرواحنا، له أحلى وأجمل الأشعار والأغاني، صوته الأكثر صدقاً لبلاد تنتشر فيها القبور، حتى في أعراسنا نغني عن افتراق المحبين.

